إطلالة على التراث

تأليف

عبد العزيز بن عبد الله الخويطر



الجزء السادس

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ/١٩٩٤م

إطلالة على التراث

الجزء السادس

تأليف
عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

الرياض - الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ

٨١٠,٨ الخـويطـر ، عبدالعزيز بن عبدالله .
٦٣٦خ إطلالة على التراث / عبد العزيز بن عبدالله بن علي الخويطر .
- ط١ . - الرياض: ع . ع . الخويطر ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م .
مج ٦ : ص ؛ ١٤,٥ × ٢١ سم .
ردمك : ٨ - ١١٨ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (مـــج ٦)
٥ - ١١٤ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (المجموعة)
١ ـ الأدب العربي - مجموعات . ٢ - الحكايات العزبية .
٣ - السعودية - المقالات العربية .
أ ـ العنـــــــــوان .

رقم الإيداع : ٠٥٧٥ / ١٥
ردمك : ٨ - ١١٨ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (مـــج ٥)
٥ - ١١٤ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (المجموعة)

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

مقدّمة

هذا هو الجزء السادس من كتاب «إطلالة على التراث»، وكان في الأصل مقالات خرجت بالتتابع في (المجلة العربية) شهرياً، أو في صحيفة (عكاظ) كل سبت من كل أسبوع.

وقد يسر الله - سبحانه وتعالى - لهذا الجزء فتجمعت مواضيعه، وأصبح معدًّا ليأخذ مكانه مع الأجزاء التي سبقته، وهو مثلها في الهدف، وعلى نسقها في النهج، وعلى وتيرة معها في النظرة إلى التراث، نظرة تحبب فيه، وتجذب القارئ إلى مَظَانِّه، وتهديه إلى مصادره، وتبصره بمواضيعه، وما تبحث فيه، وما تعالجه، وطريقتها في ذلك، محاذراً ملل القارئ، وحريصاً على نشاطه وجذبه؛ ساعياً أن يزرع حب التراث في قلبه، ومحركاً الغيرة في نفسه، ليعطي التراث حقه من الالتفات، وما هو أهل له من الرعاية.

وفي الوقت نفسه حرصت على أن أقرن القديم بالحديث ما أمكن، وأن أتخذ من القديم مدخلاً لمعالجة خطأ اجتماعي استشرىٰ في زمننا، أو عيب خبيء له أثر على حياتنا، دون أن أَجْبَهَ القارئ بفظاظة، أو أثقل عليه بغلظة.

وأخرج أحياناً بالاستطراد إذا لم يكن الخروج إلى سبيله مصطنعاً، وإنما جاء عفواً، فأهدى نفسه إليّ، فلم أستطع أن أرد وافده، أو أخيب أمل طارئه. وكان بعض الاستطراد فيه من الفائدة ما لم يتوافر في مجال أصل المقالة. وفي هذا من الفائدة ما يجعل القارئ يقبله، لأنه جاء إضافة لم يحسب حسابها، هي مثل الزيادة تأتي «فوق البيعة» كما يقول العامة، فهي كسب بدون ثمن، وفائدة بلا غرامة.

والمواضيع التي تطرق لها هذا الجزء شتى، قد لا يكون بينها رابط إلا أنها من التراث، وسارت على نهج معين حافظت عليه، كما كان في الأجزاء

السابقة. وكان الذي حكم اختيار الموضوع جاذبية جانبٍ من جوانبه، وتوفر نصوص وافية تخدم الفكرة.

وبجانب مادة الموضوع، وفائدتها، وما تضيفه لمعلومات القارئ الناشئ، وما تعرِّفه عليه من مجتمعات آبائه وأجداده، فإن فيها محاولة لإيجاد ملكة للنقد، تساعد على الرفض والقبول، دون أن تدخل القارئ في موازين النقد المعقدة، ومصطلحاته المقيدة، ومبادئه المنفرة، وإنما مرتكز هذه المَلَكة هو التعود على إعمال العقل، وتحريك الذهن، في اتجاهات مختلفة، حتى يلقم المحور، ويثبت الميزان. وهذه الطريقة في رأيي تهيء القارئ الناشئ، وتعده، ليكون له طريقته في وزن النصوص، وقبول ما يتفق مع ما وضعه لنفسه من مقاييس، أو ما يرفضه.

والتراث مليء بما لذّ وطاب، فلا تكاد تفكر في شيء إلا تجد أنه قد جاء فيه، إختصاراً، أو

تفصيلاً، في باب أو كتاب؛ بل تجد عدداً من الكتب تعرضت لمواضيع متماثلة، ولكن القيمة تصبح حينئذ في النهج أو الأسلوب، أو طريق المعالجة.

وفي هذا العدد تعرضت لبعض المواضيع التي تدور حول الخلق، صلابته واستقامته، أو اهتزازه وضعفه، مثل موضوع «الرشوة» في القديم؛ وفي مثل هذا الموضوع تدور آلة الفكر، فتقارن ما كان في تلك المجتمعات، بما هو حادث في المجتمعات الحديثة، ومدى ثبوت بعض مظاهر الرشوة، لثبات الأسس، أو تغيرها بتغير الظروف.

ولمست بعض الأمور التي يقابلها الإنسان في الحياة، ولها صلة بالروح والنفس مثل: «الإشعاع الخفي»، ومدى ما وصل إليه الإنسان في هذا المجال من مقدار العلم، أو جثوم الجهل؛ وموضوع «هموم وهموم» مثل هذا في المعالجة، والغوص في أغوار النفس الإنسانية بقدر ما يستطيع الإنسان.

وهي أمور تضفي إلى الثقافة، وتزيد العلم، بل تعيد الثقة إلى الإنسان إن كان يشعر بنقصه أمامها اليوم، وذلك عندما يراها عند من قبله ممن بلغوا من العلم شأوًا، ووقفوا حائرين، أو وجد نفسه وصل بجهده إلى ما وصلوا إليه، فهو لا يقل عنهم، وقد يزيد.

وفي موضوع «سوء فهم» من العِظَة المخفية، ما فيه، إذ أن سوء الفهم كثير الوقوع بين الناس، وفي الاطلاع على النصوص القديمة عزاء، أو درس يفيد القارئ في المستقبل، إذا ما وقع له ما وقع لآبائه وأجداده.

وفي موضوع «در السحاب» مثلاً صورة قديمة، تتجاوب في نفس القارئ مع ما يقابله اليوم، ففيها مجال للمقارنة، ومعرفة عن مقدار تغير الحال من ذلك الوقت إلى هذا الوقت، ليس في العبارات تجاه المطر والسحاب، ولكن في المواقف.

وهكذا فكل مقالة محاطة بفائدة، وفي داخلها

نفع. جيء بها لغرض، أحياناً يكون واضحاً، وأحياناً خفياً، ولكن النفع حاصل، بإذن الله - كما هو الأمل والنية.

هذا، وأرجو أن ينفع الله به، فيؤدي الغرض الذي من أجله وضع، ويأتي بالفائدة التي من أجلها ألف، وأن ينال القبول الحسن، والرأي الجميل.

وبالله التوفيق. . . .

عبدالعزيز الخويطر

أحلام وأحلام[1]

الحديث عن الأحلام واسع ومتشعب، يتبع إختلاف حياة الناس وتشعبها، وقلما يستيقظ إنسان من نوم دون أن يكون رأى في منامه حلماً، وبعض الناس يمتاز عن غيره بأنه يذكره لفترة قصيرة، وبعضهم لفترة طويلة، وبعضهم لا يذكر منه إلا ما غُلِّف بضباب يحجبه، وبعضهم يذكر منه نتفاً، ويضيع منه أغْلبه.

والناس في أمر الحلم أيضاً يختلفون، فبعضهم يقيم للحلم وتفسيره وزناً، فيريح باله أو يقلقه، وبعضهم لا يلقي له بالاً، ولا يهتم به، ولا يلتفت إليه، ولا يوليه اعتباراً، بل قد يهزأ من أولئك الذين يأخذ الحلم من تفكيرهم حيزاً، وينعكس على تصرفهم في اليقظة.

---

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٢٠٤) في ٨/ ٢/ ١٤١٥هـ الموافق ١٦/ ٧/ ١٩٩٤م.

والنظرة إلى الحلم، والاهتمام به، لا تقتصر على أُمَّة دون أُمَّة، بل الأمم فيه سواء، المتقدم منها والمتأخر، لإنه أمر متصل بتكوين الإنسان وفكره، وكل أمة متقدمة اليوم كانت متأخرة بالأمس، وبقي لها اليوم من رواسب الماضي، والنظرة حينئذ إلى الحلم، ما تعتقده اليوم، وتؤمن به.

وبعض الأمم تتقيَّد بما ورد في دينها عن الأحلام، إلا ما قبلته نتيجة تأثير دين لاحق، أو علمٍ حديث، يقوم على التجربة، ويستقرى الحوادث، ويصنّعها حسب ما يثبت عنده في مختبراته ومعامله.

والإسلام له رأي في الأحلام في بعض جوانبه المؤكَّدة، مثل الرؤيا الصالحة، فمن رأى رسول الله ﷺ فالرؤيا حق، لأن الشيطان لا يتراءى للإنسان بصورة الرسول ﷺ ومعنى هذا أن بعض الرؤى شيطانية.

وقد تحدَّث السابقون عن الأحلام سواء من الجانب الديني، أو الجوانب الدنيوية، وبرز في

العصور المختلفة أناس برعوا في تفسير الأحلام على رأسهم يوسف عليه السلام، وتفسيره حلم فرعون أمر يعرفه كل مسلم، وقبلها رؤياه التي قصها على والده، وعرف يعقوب - عليه السلام - ما قد ترمي إليه، وتحققت الرؤيا الأولى في كيد إخوانه له، والثانية في سني المجاعة التي أصابت مصر.

وفي كل عصر مُفَسِّر للأحلام بارع، أو مفسرون بارعون، لا ينفك الناس يلجؤون إليهم في تفسير أحلامهم، وفكِّ ألغازها، وحلِّ غامضها، ومن أشهر هؤلاء محمد بن سيرين الذي طبق ذكره الآفاق، وغطَّت شهرته على غيره، وأصبح كل حلم بَرَّاق فُسِّر بجدارة إذا لم يعرف مفسِّره، يُعزى إليه، ويُعلق على مشجبه، بل لعل بعض ما يقال إنه حلم، لم يكن في الحقيقة حلم نوم، وإنما هو حلم يقظة، نبتت فكرته في رأس كاتب، أو قاصٍّ، جالسٍ في قعر داره يُحبِّر هذا الحلم وأمثاله،

وقد يكون في هذا المُبْتَدَع من الجمال والجاذبية ما يجعل قبوله مؤكداً، وما يَجعل إغراءه غير مقاوم.

وبعض الأحلام قد يبدو تفسيرها سهلاً، وبعضها مركبًا، أو مدلوله بعيداً، يُدهش تفسيرُه صاحبَه، عندما يفسره خبير، أو يجلو غامضه عالم بالتفسير، والذكاء، ومعرفة مرتكز الأمور مما يجب أن يتوفر في المفَسِّر.

وبعض الأحلام عندما تفسَّر تُعجب: كيف استطاع المفسر أن يصل إلى كنهها، لأن تراكب الحلم مع التفسير جاء معجزاً، ويزيد هذا من دهشة الإنسان عندما يتبين له أن الواقع يطابق الحلم، وإليك أحد هذه الأمثلة المدهشة الممتعة:

«قص رجل حلمًا على صديق له، وقال إنه رأى في المنام أنه يُقَشِّر بيضاً ناضجاً، وأنه يأكل بياض البيض، ويلقي جانباً المحّ والصفار».

ولعله قص الحلم، واهتم بذلك، لأنه أسف على صفار البيض الذي ضاع سدى، بينما هو مع

حمقه اقتصر على بياض البيض، مع قلة فائدته في نظره، ورأى أن ذلك حمق وإهدار، فأحزنه هذا، وأخذ يُنَفِّس عن نفسه بقص ما رآه في النوم، وما اعتقده من حمقه وغبائه!!

ودارت القصة في بليدته حتى وصلت القاضي، ففهم تفسير الحلم، وأزعجه التأويل، وقال سرًّا لمن يثق به، وله سلطة: «راقبوه عندما يموت ميت، فإنه ينبش القبور، ويأخذ الأكفان، ويعيد الأموات إلى لحودهم، ويسوي القبور».

فقعدوا له، ورصدوه ليلاً، فوجدوا قول القاضي صحيحاً، ومسكوه بجرمه. ولو عرف أن حظّه كبير في الحلم إذ لم يأكل إلا بياض البيض دون الصفار لحمد الله على ذلك. فماذا لَوْ أكل الصفار دون البياض!!

هنا تُدهش السامع المطابقة الذكية المتقنة بين الحلم وتفسيره، بحيث إن الإنسان يقبل التفسير، ويجد فيه صدقاً ووضوحًا. وهو مثل السهل

الممتنع، بعيدٌ وقتَ غموضه، واضح وضوح الشمس عندما يفسر.

ومثله في هذا التطابق والقرب والبعد، حلم يوسف في أول أمره عن الشمس والقمر والنجوم، وعن السبع البقرات السمان، والأُخر العجاف؛ إن الأمر سهل وواضح بعد أن فُسِّر، ولكنه قبل ذلك بعيد بعد الأفلاك عن الناس في الأرض، وبعد البقر عن السنين ورخائها وجدبها.

ولابن سيرين، وهو البارع في تفسير الأحلام، تفسير يُري منطقاً في التفسير، وتطابقاً في تأويل الحلم، وركوبه على الواقع الملائم.

«قال رجل لابن سيرين:

رأيت كأن بيدي خاتماً، وأنا أختم أفواه الرجال، وفروج النساء».

فقال: أَمُؤَذِّن أنت؟

قال: نعم.

قال: «أنت تؤذِّن في رمضان قبل طلوع الفجر، فيمتنع الناس لأذانك». [1]

لا يسع من سمع هذا القول إلا أن يَقبل هذا التأويل لهذه الرؤيا، وما أقرب هذا التفسير إلى الذهن، ولكن الذي مهّد لهذه السّهولة هو عقل ابن سيرين، الذي طرح جانبا صورة الخاتم، وصورة أفواه الرجال، وفروج النساء، وقفز إلى المؤذِّن في منارته، وتأثيره على سامعي أذانه؛ ما أبسط الأمر بعد أن ألقى عليه ابن سيرين إشعاعاً كاشفاً، أبان منه ما خفي!

وقارن هذه السهولة، وهذا القبول بما يصبح عليه السامع من حيرة عندما يسمع حلمًا غريباً، ثم يسمع تأويلاً أغرب، فلا تتبين له الصلة، ولكن الواقع يبدو أنه صَدَّقه، وهذا يدل على أن هناك مسارب فكر لدى مفسري الأحلام، لا يشاركهم فيها أحد، وهي أقرب للمَلَكة، وقد تأتي بالتَّعلُّم

(١) الكشكول: ٢/ ٣٦٩.

والامتهان، ولكنها تولد مع الإنسان، ثم تنمو مع التجربة، والمزاولة:

«قال أحدهم لابن سيرين:

«رأيت كأني أطأ مصحفاً.

فقال له: انفض خفّك، فكان فيه درهم، فقال: هذا هو». [1]

ليس هناك علاقة بين المصحف والدرهم، ولكن لأن الواقع أثبت صدق حدس ابن سيرين، فيمكننا تلمس الصلة في أن في الدرهم كتابةً لها صلة بآية من الآيات.

وننتقل من تفسير حلم مادي بأمر مادي، إلى حلم مادي تفسيره غير مادي، وهذا أقرب للصعوبة، وأبعد عن ذهن الإنسان العادي، وجمال التفسير عادة جزء منه يأتي من مفاجأة التأويل، ولا شك أن الحلم الآتي تفسيره معجب، ويرفع منزلة ابن سيرين لدى من اطلع على هذا التأويل:

---

(١) الكشكول: ٢/ ٣٦٩.

«قال رجل لابن سيرين:
رأيتني كأنّي أسبح في غير ماء، وأطير بغير جناح.
فقال: أنت رجل تكثر الأماني».[1]

أنا وكثيرون معي لو طلب منا التفسير لم تخطر الأماني في بَالِنا، وسوف نبحث عن أمر مادي نكشف به غطاء هذا الحلم، ولكننا بعد أن عرفنا تفسير ابن سيرين صغرت عقولنا عند عقله، وارتفعت مكانته عندنا درجة أو درجات عما نُكِنّ له من قدر.

وأكثر من يجيد تفسير الأحلام علماء، لهم معرفة بعلوم الدين المختلفة؛ لأن فيها من النور الذي تأتي به المعلومات، ما يساعدهم على كشف المعمَّى، وهم أيضاً يفرقون بين الأحلام التي يمكن أن يكون لها مرمى، وبين أضغاث الأحلام، التي تأتي نتيجة همّ يركب روح الإنسان في النهار، ولا يفارقه في المنام، يأتيه بصور قاتمة، وحوادث مرعبة، وهي لا تزيد عما يقوله العامة: «حلوم

(١) محاضرات الأدباء: ١٧٤.

أهل نجد حديث قلوبها». أي ما يشغل ذهنك، ويردد قلبك أحاديثه، وما فيه من أمانٍ ونواهي، يأتي في النوم بصورة حلم، يكون ساراً إن كان شاغل القلب في النهار ساراً، ومزعجاً وكابوساً إذا كان بشعًا مقلقاً في النهار.

وبعض ناقلي تفسير الأحلام ومدونيها، يُتْبعون ذلك بما جاء على لسان المفسر من تعليل لما قاله، وإيجاد الصلة بين الحلم والواقع المطابق له، وهذا يكشف عن درجة مؤول الحلم من العلم والمعرفة، وهذا تبينه القصة التالية:

«لما خرج محمد بن عبدالله بن الحسن - رضي الله عنهم - على المنصور، رأى المنصور فيما يرى النائم كأنه قد صارع محمداً، وأن محمداً قد صرعه، وقعد على صدره، فأهمَّه ذلك، وبقي واجمًا.

وجمع العابرين، فكل وقف؛ فسأل جدّ أبي العيناء، فقال:

«إنك تغلبه، وتظهر عليه».

قال: «وكيف؟»

قال: «لأنك تحته، والأرض لك، وكان فوقك، والسماء له». فَسُرِّي عنه».[1]

حُقَّ للمنصور أن يرتعب من هذا الحلم المخيف، لأن الذهن ينصرف إلى أن محمد بن عبدالله الذي خرج على المنصور سوف ينتصر عليه، لأنه رماه أرضاً، فمعنى هذا أنه غلبه، ولكنَّ جَدَّ أبي العيناء نظر إلى الأمر من زاوية أخرى، ولغرابة تفسيره اضطُرَّ إلى إعطاء التعليل المعقول، الذي أزال عن ذهن المنصور الهمَّ الذي جثم عليه؛ وحلم المنصور يؤكد قلق المنصور من خروج محمد، وما هَمَّهُ منه في النهار زاده في الليل في الحلم زيادة غير مرحبٍ بِها.

ـ[2] ومن الرؤى التي يأتي تأويلها سهلاً إذا ما قورنت بغيرها من الأحلام المعماة الحلم الآتي:

---

(١) البصائر: ٤/ ٢٢١.

(٢) من هنا تبدأ الإضافة إلى ما سبق أن نشر في «عكاظ».

«جاء رجل إلى الإمام الصادق، وقال:
رأيت في بستاني كرما يحمل بطيخا.
فقال: له: إحفظ امرأتك لا تحمل من غيرك». [1]

ونكاد نجزم أن هذا الرجل ليس في بستانه كرم، ولهذا فسّر «الصادق» الحلم بما فسره به، والإطار الذي جاء التفسير ضمنه أن «الصادق» لا بد أنه يعرف الرجل، لأن رؤية الرجل ومعرفته أحياناً مهمة لتفسير الحلم، فقد يرى رجل حلماً فيفسره المفسر بما لا يفسِّر به لرجل آخر رأى الحلم نفسه، وهناك مثل مشهور عن هذا قصته كالآتي:

قص رجل على أحد مفسري الأحلام أنه رأى أنه يؤذن، فقال له إنك سوف تؤدي فريضة الحج؛ ثم جاءه آخر، وقال له مثل ما قال الأول فقال له إنك قد سرقت.

ولما أظهر أحد الحاضرين تعجبه من اختلاف التفسير مع تماثل الرؤيا، أزال معبر الرؤيا دهشته

(١) الكشكول: ٢/ ٣٤٦.

بأن فسر له ما عُمِّي عليه. فقال له: إني لما قص علي الرجل الأول رؤياه توسمت فيه الخير والصلاح، واستحضرت في ذهني الآية الكريمة: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.(١)

أما الثاني فرأيت في وجهه الشّر، فعرفت أنه ليس من أهل الخير، فاستحضرت الآية الكريمة: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾.(٢)

لهذا كان تفسير الإمام جاء منصرفاً إلى هذا التفسير المنطقي، فالمرأة محل الحرث مثل البستان، والثمرة تظهر في الحقل دون أن يبذرها صاحبها لا بد أن غيره وضعها، وسقيت ونمت في بستانه. إن الأمر بعد تفسير المفسر واضح جليّ، وفي متناول أي أحد، وهو السهل الممتنع.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٧.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٧٠.

وهنا رواية تدور في مجتمعنا عن عالم كبير رأى أنه يبول في أقدس بقعة في أحد المساجد العظمى، وكان له قريب عالم مثله، جيد في تفسير الأحلام، ولكن رائى الحلم لم يرد أن يسأله، فأملى حلمه على رجل عاديّ، ليس له صلة بالعلم، وقال له: إدّع أنك رأيت هذا الحلم، وأسأل فلاناً تفسيره.

فذهب الرجل البسيط إلى العالم المرموق في تفسير الأحلام، وقص عليه حلمه، فقال له العالم: إن هذا ليس حلمك، ولا يمكن أن تحلم أنت مثل هذا الحلم، فأخبرني وأصدقني: من صاحب الحلم؟ لأفسره لك. فأخبره، فقال له: قل له إن صدقت رؤياه فإنه سيخطب الناس على منبر هذا المسجد.

وكان هذا التفسير بعيداً وقوعه عن التصور في هذه الفترة، ثم دارت حوادث ذلك الزمن، وهي كبرى ومهمة، ومرّ وقت وإذا بالرجل يُختار خطيباً على هذا المنبر المرموق في هذا المسجد المبجل.

ولهذه القصة مثيل في الأدب العربي، وما أكثر تشابه حوادث زمن لاحق بحوادث زمن سابق، والقصة تُحكَى كما يلي:

«جاء رجل إلى سعيد بن المسيب من قبل عبدالملك بن مروان، فقال:

رأيت كأني بُلْتُ خلف المقام أربع مرات.

قال له: كذبت، لست صاحبها.

قال: فإنه عبدالملك.

قال: يلي أربعة من صلبه». (١)

ويدخل التحريف في رواية الأحلام مثل غيرها من الروايات، فينتفي مع التحريف المنطقُ، وتُعمَّى الرؤية، فيسقط الخبر من عليائه، ومن هذا القبيل الرواية الآتية:

أتى رجلٌ عليّ بن أبي طالب فقال:

إني احتلمت على أمي.

فقال: أقيموه في الشمس، واضربوا ظله الحد». (٢)

---

(١) البصائر: ٨/١٠٨.

(٢) المراح والمزاح: ٣٢٩، البصائر: ٦/٦١.

ويتبين الخلل في هذه الرواية عندما تقارن بالرواية الثانية، التي هي أقرب للمنطق، وهي كما يلي:

«رفع رجل رجلاً إلى عليّ - رضي الله عنه - وقال: إن هذا زعم أنه احتلم على أمي.

فقال: أقمه في الشمس، فاضرب ظله».[1]

والظل هو خيال الشيء الحقيقي، والحلم هو خيال الشيء الحقيقي، وعلي بحكمته اختار هذه العقوبة، لتكون على مشهد تجعل الرجل يقلع عن تكرار التحدث بها في المجالس، والتندر بها بين الناس. والعنصر المهم في الرواية الثانية هو ليس ابن المرأة، وعادة إذا جاءت مثل هذه الرؤيا من الابن نفسه فسرها المفسرون بأنه علامة بر بأمه.

والأحلام تفسيرها في الغالب مظهره مغاير لها، فإذا كانت مفرحة جاء التعليل محزناً، وإذا كانت مخالفة للدين، فتفسيرها يؤكد التمسك بالدين.

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٦٣، البصائر ٦/ ٦١.

ويبدو أن الحجاج من الذين يُفسّرون الأحلام، وتُفَسَّر له، ومن الأحلام التي فسّرها الحجاج الحلم الآتي:

«قال رجل للحجاج:

رأيت في المنام رجلاً من عمّالك قدّم فيلا فضرب عنقه.

فقال: إن صدقت رؤياك هلك داهر بن بصبهري». [1]

والتطابق بين الحلم وتفسيره واضح، ولهذا فالتفسير من السهل قبوله، وليت صاحب الرواية أكمل الخبر، وأعلمنا هل مات داهر فعلاً، أو أنها أمنية للحجاج! كان في تلك الأيام يكره داهراً، ويتمنى موته.

أما الحلم الذي رآه الحجاج، وطلب تفسيره فهو كما يلي:

«رأى الحجاج في منامه أن عينيه قلعتا، فطلق

(١) البيان والتبيين: ٧/ ١٩١.

هند بنت المهلب، وهند بنت أسماء بن خارجة، فلم ينشب أن جاءه نعي محمد أخيه، يوم مات ابنه محمد، فقال: هذا تأويل رؤياي من قبل، «إنا لله وإنا إليه راجعون»، محمد ومحمد في يوم واحد.

ثم أنشأ يقول:

حسبي حياة الله من كل ميت
وحسبي بقاء الله من كل هالك[1]

إذا كان الحجاج ممن يعبّر الأحلام، ويفسّر الرؤى، فلعله أراد أن يصرف الرؤيا إلى زوجتيه، لأنهما زوجتاه واسم كل منهما هند، أملاً أن ينجح في هذا الصرف، ولكنه نسي أن الزوجتين ليستا عينيه، بدليل أنه أرخصهما من أجل حلم؛ أما العينان حقيقة فهما ابنه وأخوه، وتماثلا في الاسم؛ فهما اللذان يكملان التطابق بين الحلم والواقع، ولقد جاء الإتقان من الحقيقة رغم محاولة الحجاج تطبيق ما تقوله عامة الناس من أن «الحلم

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ١٩٣.

بتفسيره» فإن فسرته بخير جاء خيراً، وإن فسرته محزناً أو مؤلماً جاء كذلك. ولقد كان الحجاج في فعله هذا وتفسيره عاطفياً، ففقد أربعة، إثنان رغم أنفه، واثنتان بطوعه واختياره. هذا إذا صحت الرواية!

وما دمنا في صحبة الحجاج، وفي الحديث عن الأحلام فهناك حلم عن الحجاج، وهو حلم سياسي، قد يكون مركّبا، فهو لا يخلو من بذرة الوضع والاختلاق، ولكنه طريف، ويعبر عن «أحاديث قلوب النبط» والخبر يأتي في «كتاب الحيوان» للجاحظ، كما يلي:

«رأى رجل من النبط الحجاج بعد موته في منامه فقال:

يا حجاج، إلام صيرّك ربك؟

فقال: وماذا عليك يا ابن الزانية.

فقال: ما سلمنا من قولك ميتاً، ولا من فعلك حيًّا». [1]

(١) الحيوان: ٧/ ١٦٤.

سواء صحت هذه القصة أو لم تصح، فهي تري شعور النبط تجاه الحجاج، والناحية الفنيّة متقنة وجميلة، إذا صرف النظر عن المحاولة للتأكد من صحتها أو نحلها.

ونخرج عن منزلق السياسة، خشية الملل، إلى الأحلام العادية، على أن نعود فيما بعد إلى الحكام في العصور الماضية، وهمومهم مع أحْلامهم، الحقيقي منها، والمفتعل.

ومن الأحلام الطريفة، التي تُري - كما قلنا - كيف أن الحلم المرعب تفسيره مضيء، ليس مظلماً مثله، الحلم الآتي:

«قال هّمام لابن سيرين:
رأيت كأني أوثقت أبي بحبل، ثم ذبحتُهُ.
قال: وما ذاك الحبل الذي أوثقته به؟
قال: قلت: حبل أسود.
قال: هل لك عليه مال؟ أو له عليك مال؟
قال: قلت: كان لأمي عليه مال، فماتت،

فورثتُها.

قال: هو الحبل الذي أوثقته به.

قال: قلت: رأيت كأني ذبحته.

قال: هل رأيت دمًا؟

قال: لا.

قال: ذاك بِرٌّ». [1]

إن هذا الأخذ والرد طريف، وإن هذا الاستفسار الدقيق عن لون الحبل، وعن خروج الدم من تساؤل ابن سيرين ليكشف عن حركة ذهنه في محاولة تركيب الحل الواقعي على الحلم المرئي في النوم. ولقد أحسن تركيب الأجزاء على الأجزاء، حتى جاءت النتيجة مقنعة، لانطباقها على واقع لم يكن يعرفه ابن سيرين، وما عرف منه فيما بعد عند التساؤل اقتصر على ما يَحتاج، وكأنه - رحمه الله - طبيب يتلمس من مريضه مداخل على لغز المرض، ليصف العلاج الناجع.

(١) الإشـــراف: ١٧٩.

وابن سيرين كان يمكن لو كان جاء في عصرنا الحديث أن يُنْشأ له معهد، يُدعى له مريدون وطلاب، يأخذون العلم منه، ويرتشفون الفن من تلك العبقرية الفذة. ولعله يتبين أن لتفسير الأحلام أصولاً وقواعد، واسعة ومترابطة، فيتخرج من تحت يده جيل يحفظ هذا الفن، فيتسلمه جيل من جيل، خاصة أولئك الذين ولدوا ومعهم الملكة لهذا الفن.

ولننظر إلى حلم فسّره اثنان، أحدهما أَجْمَلَ ولم يفد، والثاني حدَّد الأمر فأفاد، أما الأول فلم نعرف عن شهرته في تفسير الأحلام، ولكن لعل مؤدّى الحلم نفسه أرعبه، فجاء منه عنه ما جاء، أما الثاني فهو ابن سيرين، وناهيك بابن سيرين! وإليك الحلم:

«قال صاحب الإشراف:

حدث قُرَّة [بن خالد السدوسي]: أنه قال لقتادة:

«رجل رأى رباعيته تحركت، ولم تسقط.

قال: مصيبة!

قال: فأتيت ابن سيرين فقال لي:

«ليتق الله، وليصلح ما بينه وبين أهله».

قال: فعرفت ما قال». (١)

إن قتادة حدث بقلب المؤمن أن هناك كارثة قد تقع في ضوء ما يدلّ عليه الحلم، ولكن الخبير ابن سيرين حدّد مأتى الكارثة، وكشف الغطاء عما جعل راوي الحلم يؤمّن على صدق تعبير الرؤيا، لما يعرفه عن صاحبها وما بينه وبين أهله، إن لم تكن رؤياه هو نفسه، ألبسها مجهولاً.

ولننظر فى بعض الأحلام التي عليها ظل من الشك في أن وراءها غرضاً من الأغراض، إما عنصري مثل ذاك الذي رويناه عن النبطي الذي رأى الحجاج في نومه، أو سياسي، تكشف بعض جوانبه عما قد يكون الهدف من قصّه وروايته:

---

(١) الإشـــراف: ٣١٨.

هناك سجال بين عربي ومولًى من الموالي، قام محوره على حلم، والمحادثة رغم قصرها إلا أنها تكشف عن العداوة المتأصلة بين العرب والموالي، ومحاولة كل منهما النحل على الآخر، وكسب الجولة في النهاية، ويمكن من هذا الكسب يبدأ شكنا في تحديد من هو صاحب اختراع القصة، ووالدها. والقصة التالية مثل جيد لهذه العداوة؛ فهذه المجادلة، وما انتهت إليه تكشف عن الجانب الذي ذكرناه.

«قال رجل من العرب:

أُريتُ البارحة في منامي كأني دخلت الجنة، فرأيت جميع ما فيها من قصور، فقلت:

لمن هذه؟

فقيل: للعرب.

فقال رجل عنده من الموالي:

أصعدت الغرف؟

قال: لا.

قال: فتلك لنا». [1]

إن الفئتين تدفعان أفكارهما عن طرق متعددة، والرؤيا من الوسائل المفيدة في تقرير الحقوق المتنازع عليها في الحياة اليومية، وفي اليقظة. وإن اتسع المكان في هذه المقالة فسوف آتي بنماذج من الأحلام التي مرت بي أثناء قراءتي تاريخ بغداد، في التراجم المختلفة، [2] وما روي في نهاية كثير من التراجم عن الرأي في العالم، صاحب الترجمة، عما فعل الله به بعد موته، حتى كادت أن تصبح قاعدة، ولو حصرت هذه الأقوال، واستقرئت، لطُلِعَ من هذه الدراسة بأفكار موثّقة عن مدى صحتها، أو نحلها، أو ما هو الصحيح، وما هو المختلق، ولماذا اختلق، وكيف استشرت هذه الظاهرة، فهي فعلاً ظاهرة، لكثرتها، ولتماثل أجزائها، وما يستشف مما وراءها من أغراض.

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٢٣٢.

(٢) لم يتسع المجال، فقد طالت هذه المقالة، وسيكون لها مقال منفرد إن شاء الله.

ومما يشم فيه رائحة السياسة، ولا يعرف ما إذا كان قد حدث، أو أنه موضوع ليخدم قضية شغلت المسلمين في وقتها، وأصبح أناس منهم في موضعين متعارضين، القصة الآتية، وقد جاءت على هيئة حلم.

روى صاحب كتاب «الإشراف» في منازل الأشراف:

قال عامر: قالت عائشة لأبي بكر: «رأيت كأني على أكمة، وبَقَر تُنْحر حولي!».

قال: «لئن صدقت رؤياك ليقتلن حولك فئام من الناس».[1]

إذا كانت عائشة - رضي الله عنها - رأت هذه الرؤيا فوقعة الجمل تؤكد صدقها، ولكن ما كتب من التزوير والنحل في هذا الموضوع يجعل المرء لا يجزم بصدق وقوع الرؤيا، رغم أنها لا تلمز جانباً من جوانب المشتركين في هذه الحرب، إلا ما قد يلاحظ على كلمة «بقر» ولكننا وجدنا تسامحًا في

(١) الإشـــراف: ٢٧٤.

صور الحلم، وقبولَ ما يأتي فيها مما لا يقبل في الحقيقة، بل قد يستهجن.

وهناك قصة ثانية لها الرائحة نفسها، ويعتورها الشك نفسه، وهي أيضاً تلمس الموضوع نفسه، ولطرافتها سوف نأتي بها كاملة، رغم أن ما يهمّنا هو ما جاء عن الحلم في نهايتها:

«روى محارب بن دثار: أن عمر قال لرجل: ممن أنت؟

قال: أنا قاضي دمشق.

قال: وكيف تقضي؟

قال: أقضي بكتاب الله.

قال: فإذا جاء ما ليس في كتاب الله؟

قال: أقضي بسنة رسول الله - عليه السلام -.

قال: فإذا جاء ما ليس في سنة رسول الله؟

قال: أجتهد رأيي، وأُوامر جلسائي.

فقال له عمر: أحسنت.

وقال له عمر: إذا جلست فقل:

«اللهم إني أسألك أني أقضي بعلم، وأن أفتي بحلم، وأسألك العدل في الغضب والرِّضى».

قال: فسار ما شاء الله أن يسير، ثم رجع إلى عمر.

قال: ما رجعك؟

قال: رأيت فيما يرى النائم أن الشمس والقمر يقتتلان مع كل واحد منهما جنود من الكواكب.

قال: مع أيهما كنت؟

قال: مع القمر.

قال عمر: نعوذ بالله، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[1] والله لا تلي لي عملاً أبداً.

قال: «فيزعمون أن ذلك الرجل قُتل مع معاوية».[2]

إن الشك يدخل على هذه القصة من عدة أبواب، الأول أن الحلم عن النزاع بين علي

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٢.
(٢) الإشراف: ٢٢١.

ومعاوية، والوضع فيه كثير، والثاني أن الوقت بين الحلم وبين وقوع الأمر بين «الشمس والقمر!» طويل، والحلم عادة لا يتأخر وقوع مدلوله كثيرًا، والثالث ما الذي جعل هذا القاضي يدرك أهمية الحلم حتى يعود من رحلته بعد أن بدأها، ليسأل الخليفة تفسير حلمه، ولو عزله عمر على قلة عقله في هذا لكان محقاً. أما أن يعزله، ويحرِّم عليه أن يعمل معه أي عمل، فعمر أعدل من أن يأخذ الأبرياء بما يراه من تفسير أحلامهم، وهذا هو الباب الرابع الذي يدخل معه حمل الشك بما حمل، أما الباب الخامس، وهو باب واسع أيضاً فَدَور الرجل في الحلم تابع، وليس قائداً، وكيف ترك عمر القمر، وهو قائد المشكلة!!

الذي يبدو لي أن أول القصة، وما يخص القضاء وكيف يقام، صحيح، لأنه يواكب ما عرف عن عمر في مجال القضاء والقضاة، وسؤالهم عن طريقتهم في القضاء، وهي تمشي تماماً مع ما كان

يفعله الرسول ﷺ مع قضاته وهو يرسلهم للبلدان، مثلما فعل مع علي - رضي الله عنه - ومعاذ - رضي الله عنه. وعمر ثبت عنه هذا مع قضاته؛ ولكن الوضع والنحل ألحق في نهاية القصة، فما جاء عن عودة قاضي دمشق ليقص حلمه على عمر، مزاد في القصة، وملحق بها لغرض، وهذا الجزء مهلهل، ولا يراكب سيرة عمر، ولا أخلاق عمر، ولا يتناسب مع عقل قاض ثبت من إختبار عمر له أنه كفيّ عاقل رزين، فهذا الزائف لا يلائم ذاك الصريح، وهذا المتدني لا يتماشى مع ذاك الرفيع!

وما دمنا قد عدنا لأمور السياسة فلا بد لنا من أن نزور حُجَر التراث التي تهتم بقطبي سياسية تعوّد من يقرأ عنهما على رؤية النحل والنحت عليهما، وإلصاق قصص بهما لم تحدث لهما، وطالما كانا مشجبين نافعين لتعليق أفكار الكتاب والمفكرين من أصحاب الأفكار التي تختبط وتصطفق في

أذهانهم، ويريدون أن يريحوا مضطربها في حضن هذين السياسيين الداهيتين. والقصة التالية طريفة لكثير مما يختلق على لسان معاوية وعمرو، وتمثل خير تمثيل نظرة أحد الأدباء تجاههما:

«قال عمرو بن العاص لمعاوية:

إني رأيت البارحة في المنام كأن القيامة قد قامت، وَوُضِعت الموازين، وأُحْضِر الناس للحساب، فنظرت إليك وأنت واقف قد ألجمك العرق، وبين يديك صحف كأمثال الجبال.

فقال معاوية:

فهل رأيت شيئًا من دنانير مصر؟». (١)

من السهل أن نقرر، حسب معرفتنا بالنصوص السابقة المنحولة، أن هذا الحلم لم يره عمرو، ولم يرو شيئًا عنه لمعاوية، ولم يرد معاوية الرد المذكور. وما الأمر إلا مجرد فكرة نبتت في ذهن واضعها، لسبب من الأسباب، وعلقها عن طريق الحلم على

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٣٨.

هذين الداهيتين، وخدم بذلك فكرة في ذهنه، في تشويه سمعة معاوية وعمرو، وأنهما كلاهما آثمان، هذا عن طريق أخذ الخلافة قهراً، وما صاحبها من آثام، وهذا عن طريق نهب أموال مصر، وهو واليه عليها.

وسبق أن ذكرنا أن العلاقة بين عمرو ومعاوية لا تسمح بقبول ما يقال إنه يحدث بينهما من جدل مرفوض، لأنه لا يتماشى مع ما يجب أن يكون بين رئيس ومرؤوس، ورئيس قادر بجرة قلم أن يقضي على مرؤوسه، ولا يتماشى مع ما عرف عن معاوية وعمرو من عقل ودهاء، وينقض هذا ما نجده من نصوص تؤكد خضوع عمرو لمعاوية، بل ورهبته منه، وحسابه الحساب الوافي لرضاه، وما يبديه له من احترام وتبجيل، يسارع إلى تأكيدهما إذا ما أحسّ أنه ظُنَّ فيه أنهما قد ضعفا، أو أن ولاءه قد اهتز.

ويجب أن نقر بذكاء واضع هذه الأقوال على

معاوية وعمرو، لأنه اختار لقوله ثوب الحلم، وهو ثوب جذاب، غالباً ما يأتي بالقبول من أول نظرة، فَيُنْسَى في نشوة قبول الحلم مُحَّ القول وأُسَّه.

والشعر ليدرج ويقبل يلبس ثوب الحلم الجذاب، ولهذا مَثَلٌ أو رده صاحب ذيل تاريخ بغداد، وإن كان لا يستبعد أن يقول الشاعر الشعر في النوم كما يقوله في اليقظة، فإذا كان هو شاغِلُ ذهنه في يقظة النهار، فربما أصبح شاغلهُ في نومة الليل؛ قال صاحب المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن النجار، في ترجمة محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر الشاشي أبو بكر:

«قال أبو بكر الشاشي:

رأيت كأني أنشد هذه الأبيات في النوم من غير أن تكون على ذكري:

قد نادت الدنيا على نفسها
لو كان في العالم من يسمع

كـــم واثـــق بـــالعمـــر أفنيتـــه
وجـامـع بَـدَّدْتُ مـا يجمـع»[1]

إن المتبصر في تقـديـم البيتين، ثـم في البيتين نفسهما يلمح أهمية إدخال الحلم في الأمر، فكم من واحد قبل البيتين على أنهما جاءا من مكان روحي خارج نطاق البشر! والبيتان لا يدقق الناس كثيراً في كيف جاءا فالعبرة في الموعظة التي فيهما.

ونعود إلى ابن سيرين، وما مر به من أحلام رآها أصحابها، وفسّرها لهم، ويُلحظ فيها أسلوب ابن سيرين وطريقته في مراكبة الرؤيا وحلّها، وسهولة قبولها لهذا التوافق:

لقد جاءه أبو حنيفة فقص عليه بعض ما أزعجه وأفرحه، والقصة تفصيلها كالآتي:

«قال أبو حنيفة:

رأيت كأني نبشت قبر رسول الله ﷺ فضممت عظامه إلى صدري، فهالني.

---

(١) المستفاد: ١٩/ ٤.

فسألت ابن سيرين، فقال:

ما ينبغي لأحد من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا.

قلت: أنا رأيتها.

قال: إن صدقت رؤياك لتحيينَّ سنة نبيك». [1]

لعل ابن سيرين عُمّي عليه الأمر في أوله، ولكنه عندما علم أن الرائي هو أبو حنيفة اتضح له آخرًا ما لم يتضح أولاً.

هذا إذا صحت الرواية، ولم تكن مما يؤتَى به لترجيح مذهب على مذهب، كما كان حادثاً في تلك الأزمان بين المتعاصرين من أنصار المذاهب، وليس من أئمتها.

«وسئل ابن سيرين عن رجل رأى في المنام كأنه يمضغ شدقه، فقال:

هذا رجل يغتاب أقرباءه». [2]

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٣٣٧.

(٢) ربيع الأبرار: ٤/ ٣٣٩.

ولا يمكن أن يأتي بمثل هذا السهل الممتنع، إلا عالم مثل ابن سيرين، أعطاه الله هذه الموهبة اللامعة الصافية.

وفسّر ابن سيرين حلمًا جميلاً قصه عليه رجل؛ ونحن حين نسمعه لا يخطر في بالنا أن وراءه تفسيراً مرعباً، وتعبيراً مفزعاً، يكشف عن جرم شنيع خارق للعادة، ولعل الله أراد أن يفضح صاحبه، ويحاسبه في دنياه، فقاده إلى هذا الحلم، الذي أوصله إلى ابن سيرين، الذي فضحه، وكشف ستره، وأورده حوض العقاب، وأوّل قصة الحلم تبدأ هكذا:

«رأى رجل في منامه كأنه يصب الزيت في الزيتون». [1]

هل يخطر في بال الإنسان أن هذه الشجرة المباركة في ثمرتها، الوارفة في ظلها، المغنية لمالكها، المعمرة في زمنها يأتي منها أو من زيتها إلا

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٣٣٥.

الخير؟ شجرة زيتها يضيء، وما بقي بعده فهو غذاء للناس، وعلف للحيوان، ودفء في الشتاء، لا ينبذ منها شيء، هي والنخلة غاليتان ثمينتان، هما كما تقول العامة: «عينان في رأس»، وهل أغنى من العينين؟! وهل أثمن منهما؟!

ولكن ابن سيرين ينتفض مما سمع، ويرى ما لم نره، ولم يخطر لنا على بال، ولا يمكن أن يخطر، لأنه بعيد عن التفكير، لا يقترب من أن يحوم حوله العقل، أو يقبله الذوق، أو تستسيغه النفس، حتى في الحلم إذا حدث، فإن الإنسان حين يسمع عنه يشمئز، ويفضل ألا يسمعه، ولا يعطي صاحبه فرصة قص قصته.

لقد رمى ابن سيرين صخرة أدهشت عندما قال للرجل الذي جاءه ليعبر رؤياه هذه:

«إن صدقتَ فأنت تفعل بأمك».

فكان كما قال.[1]

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٣٣٥.

الآن تتضح لنا الصلة بعد أن أعطى ابن سيرين التعبير، ونقترب من معرفة شيء شرِّير لم يكن قريباً من تفكيرنا الخيّر، ولا من طبيعة الزيتونة المباركة.

وننتقل من هذا الحلم المزري إلى حلم، قد تكون وراءه فكرة سياسية، وقد يكون صنع بعد أن حدث الحدث، ووقعت الواقعة، ليكون فيه رياضة للفكر، في صياغة حلم متقن، يجلل حدثاً وقع، وإن فيه لطرافة تستحق نقله:

«لما انصرف أبو مسلم من حرب عبدالله بن علي رأى في المنام كأنه على فيل، والشمس والقمر في حجره.

فقصه على عابر سبيل فقال: «الرسم».

فقبض عشرة آلاف درهم؛ ثم قال: إعهد عهدك، فإنك هالك. وقرأ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾.[1]

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ * يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾»[2].

---

(١) سورة الفيل، الآية: ١.

(٢) سورة القيامة، الآيتان: ٩، ١٠. - ربيع الأبرار: ٤/ ٣٣٥.

والافتعال واضحٌ في تجميع هذه الآيات، وتركيبها على هذا الحلم الملفق.

وعلي بن الحسين من العلماء الذين يلجأ إليهم في الفتوى وفي تعبير الأحلام، وله تفسير موفق لرؤيا رآها رجل جاءه يسأله تعبيرها، وهذه القصة:

«قال رجل لعلي بن الحسين:
رأيت كأني أبول في يدي، فقال:
تحتك محرم.
فنظروا فإذا بينه وبين امرأته رضاع». [1]

والحديث عن الأحلام لا حدود له، وكيف يُحَدُّ ما يتصل بشعور الناس، وأحداث زمانهم؛ وسوف نختم بقصة حلم مشهورة، تروى دائمًا لتُري حسن التصرف في تفسير الأحلام إذا كان التعبير غير سار؛ وأقرب مصدر أمامي الآن «قاموس نامه» وليس هو أفضلها في لغته:

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٣٣٧.

«سمعت أن هارون الرشيد رأى رؤيا على تلك الجملة:

إذْ تخيل أن جميع أسنانه سقطت من فمه، فدعا معبّراً في الصباح، وسأله عن تعبير رؤياه.

فقال المعبر: أطال الله بقاء أمير المؤمنين! جميع أقربائك يموتون قبلك، بحيث لا يبقى أحد بعدك.

فأمر هارون بأن يَضْربوا المعبّر مئة عصا، قائلاً: يا كذا وكذا، واجهتني بهذا الكلام المؤلم لهذا الحد! إذا مات أقربائي جميعًا فمع من أكون حينئذ؟

وأمر بإحضار معبّر آخر، وقَصَّ الرؤيا ثانياً.

فقال المعبّر: يستدل بهذه الرؤيا التي رآها أمير المؤمنين على أن حياة مولانا ستكون أطول من حياة أقربائه جميعاً.

فقال هارون: (هذا في طريق العقل واحد) لم

يخرج التعبير عن ذلك، ولكن بين العبارة والعبارة فرق كبير.

وأعطى لهذا الرجل مئة دينار». [1]

(١) انظر كتاب «التعبير» (٩١) في صحيح البخاري عما ورد في الأحلام وتعبيرها.
قاموس نامه: ٧٤.

الإنسان والزمان[1]

الإنسان مرتبط بالزمان، يسير معه في كل لحظة من حياته، صغيراً أو كبيراً، يقظاً أو نائماً، عاملاً أو بدون عمل، الزمن محسوب من حياته، وحياته محسوبة من الزمن، اقترانه بالزمن لا ينفك منذ أن يولد حتى يموت، بل حتى قبل أن يولد وهو مستكِنّ في رحم أمه.

لهذا لا عجب أن تكثر أقوال الإنسان وأحاديثه عن الزمان، وأن يتفنن في ذلك، فلا يترك زاوية من زوايا القول عنه إلا جاء بها: يمدح صلته به أحياناً، وأحياناً يتذمر من الزمان، والزمان بريء مما يلصقه به، فهو يسير كما أراد الله له، في ظل نظام دقيق محكم لا يختل، واللوم أقرب أن يقع على الإنسان الذي قد يخونه حَظّه، فيلوم الزمن، وقد يغلبه كسله، فيلوم الزمان، وقد يخطئ في تقديره، فيلوم الزمان.

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٢١٨) في ٢٢/ ٢/ ١٤١٥هـ الموافق ٣٠/ ٧/ ١٩٩٤م.

ومع هذا فلا نعدم أن نجد إنساناً متبصراً منصفاً يبرئ الزمان مما يلام عليه، ويحدد من هو الملام، فيجلو الحقيقة، ويضع الأمور في نصابها، ويعدل الكفة بعد أن أمالها من غلبته العاطفة، وتجنبه العقل والمنطق.

ويأتي الناس بأحكام جائرة أو عادلة يجلسونها على كرسي الزمن، ويكون من هذا منطلقهم في توزيع الأحكام، أو تحديدها، في حين أن لا دخل للزمن فيها، وإنما جاء الأمر نتيجة تفاعل اجتماعي، أو وهم مسيطر، ومن هذا ما يأتي مقارنة بين زمن وزمن، ويعزى التأثير فيه إلى الزمن في حين أن الزمن محور يدور حوله الناس أو عليه، ودورانه لا يختل، ولا يتغير، وما يتغير إلا الناس، نتيجة تفاعل في مجتمع، ديني، أو سياسي، أو اجتماعي أو ثقافي، وإنّ الزمن في هذه الأحوال تبع.

يأتي زمان ينشط المجتمع، ويزدهر كيانه، وترتقي فئاته، نتيجة دعوة إصلاح نجحت، فيزهر

ذلك المجتمع، ثم يدب فيه المشيب، وتبهت الدعوة، ويتقهقر المجتمع، فيأتي جيل يلوم زمانه، ولا لوم على المجتمع، واللوم على الناس، وما طرأ عليهم.

ثم يأتي مصلح، أو يطرأ على المجتمع ما يجعل أمره يتحسن، فتضيء شمس المجتمع، ويسطع نور بدره، فيحمد الزمن، ولا حمد للزمن وإنما الحمد لله ثم للتغيير الذي طرأ على الناس من علم، أو غيره، أدى إلى تحسن وهكذا يستمر الأمر من زمن إلى زمن.

يغير المجتمعَ رجلٌ مصلح، فينقله من حال سوء إلى حال حسن؛ أو يغزى هذا المجتمع عسكرياً أو اقتصادياً أو اجتماعيا أو أخلاقياً فينتقل من حالِ حريةٍ إلى حال عبودية، أو من حال ازدهار إلى حال انحطاط، ويبقى الزمن شاهداً صامتاً، لا ينطق لا ليرد على الذامين له، ولا الحامدين.

والذي يهمنا عن الزمن هو ما ورد عنه في

التراث، مما نجد أنه معبر وطريف، وفيه تناسق أحياناً، وفيه تنافر أحياناً، وفيه تلاق، وفيه تضارب، وفيه تقارب وفيه تباعد، ولعل اختيار بعض ما قيل في الزمان مباشرة، أو ما مت له بصلة بعيدة، يعطى صورة متكاملة عن نظرة الناس في ذلك الزمن إلى الزمن:

«يقول أحد الشعراء:

يعيب الرجال زماناً مضى
وما لزمانٍ مضى من غِيَرَ
فقل للذي ذم صرف الزمان
ظلمت الزمان فذمّ البشر»[1]

هذا الشاعر خالف القاعدة، فالعادة أن يمدح الناس الزمان الماضي، ويعيبون الحاضر، فيقولون: فسد الزمن، أو كان زمن آبائنا خيراً من زمننا، ويتوجدون عليه، وغالباً ما يردد هذا كبار السن، الذين ينتقدون أبناءهم على تصرف يرونه

(١) الكشكول: ٢/٣٤٦.

جديداً، مخلاً بما تعود عليه مجتمعهم. ولكن الشاعر عندما خالف ركز على دفع التهمة عن الزمان، وألقى اللوم على الناس، وهذا أمر تبعه الشعراء وأكدوه، يقول شاعر آخر:

نعيب زماننا والعيب فينا
وما لزماننا عيب سوانا

بل إن هذا الشاعر زاد فجعل الناس هم عيب الزمان، وليس غيرهم، وهذا تأكيد لظلم الناس للزمان، وتحميله عيوبهم ونقائصهم، وقد شهر بذلك أحد الناس، وهو هذا الشاعر.

«ويروى عن أنس:

ما من يوم ولا ليلة ولا شهر ولا سنة، إلا والذي قبله خير منه، سمعت ذلك من نبيكم». [1]

إذا صح هذا القول عن رسول الله ﷺ فإنه يضم إلى الأقوال التي تتحدث عن فضل الأيام السابقة على اللاحقة، ولعل مظاهر التطور هي التي أوحت

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٩١، ١/ ٥٥٧.

بأن الماضي خير من الحاضر، وهذا يصدق على عهد رسول الله ﷺ ثم عهد الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم - وما جاء في آخره من فتن، واختلاف بين الناس، وما دخل المجتمع من تهاون في الدين نتيجة كثرة القادمين من البلدان المفتوحة، ثم جاء العهد الأموي فضعف الدين في بعض جوانبه عند بعض الناس، وفي بعض أركان الخلافة، وكثرت الفتن؛ ومثله العصر العباسي، وما جاء فيه من اختلاف في العقيدة، وما ظهر فيه من فرق، وفتن في الدين، ويصور الحسن البصري - رحمه الله - هذا التدني بقوله:

«إني أدركت صدر هذه الأمة، ثم طال بي عُمرٌ حتى أدركتكم، فوالذي لا إله غيره لهم كانوا أبصر في دينهم بقلوبهم منكم في دنياكم بأبصاركم، ولهم كانوا فيما أحل الله لهم أزهدَ منكم فيما حرّم الله عليكم، ولهم كانوا من حسناتهم ألا تقبل منهم أشدَّ شفقة منكم من سيئاتكم أن

تؤخذوا بها». [1]

ويصف آخرُ تغيّر الزمان بأهله، وتدهور الخير عندهم مقارنة بما كان عليه من سبقهم:

فيقول أسماء بن عبيد بن مخارق الضبعي، وقد مات في منتصف القرن الثالث الهجري، مصوراً رأيه في أهل زمانه، ومقارناً لهم بمن سبقهم، ومن عرفهم في أول عمره:

«أدركنا أقواماً فجالسناهم، فنفعنا الله بمجالستهم في ديننا ومعايشنا، فأصبحنا اليوم بين ظهراني قوم نجالسهم فَيُنَسُّونا ما سمعنا من أولئك». [2]

لم يقتصر أسماء بن عبيد في ملاحظته على ما طرأ على الناس تجاه دينهم، ولكنه أيضاً نبه إلى ما يخص المعيشة، فلقد رأى الأسراف في المأكل والمشرب والمركب مما لم يكن معروفاً قبل ذلك، وقد أصبح

---

(١) الإشراف: ٢٦٠.
(٢) الإشراف: ١٦٠.

هذا الجديد عادة متأصلة أنست الأقوال والتعليمات التي ساروا في ضوئها في زمن مضى.

ويعبر آخر عن هذا المعنى تعبيراً يأتي من زاوية مختلفة، ولكنه يصب في الحوض نفسه، ويصيب الهدف نفسه:

«قال مطرِّف:

كان الناس في الزمان الأول أفضلهم المسارع في الخير، وإنّ أفضل أهل زمانكم المُتَبَطِّين». [1]

وعندما يختلف، في زمن من الأزمان، التعامل في الخير بين فئتين: معطية وآخذة، فإن هذا يكون مقبولاً، فقد يكون المعطي في زمن مضى يطمئن إلى من يطلب الإحسان والمساعدة؛ أو من تتبين عليه الحاجة، يكون صادقاً في ما يطلب، وصادقاً فيما يظهر، أما في زمن متأخر فقد فسد الناس، فصاروا يتظاهرون بما ليس فيهم، فيظهرون الحاجة طمعاً وخداعاً، ويتظاهرون بالفقر وهم في

(١) الإشراف: ١٨١.

غنى، فاستوجب هذا ذاكَ، وتغير الأمر عند الأول بتغيره عند الثاني.

ولهذا قال عبدالملك بن مروان، الخليفة الأموي، ما قال لبعض رعيته، الذين كانوا يطالبونه بأن يعاملهم معاملة أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - لرعيتهما، فنبههم إلى أنهم هم أنفسهم قد تغيروا ولم يعودوا مثل رعية أبي بكر وعمر فيعاملوا معاملتها، وقد عمّي هذا عليهم حتى اضطر الخليفة أن ينبههم إليه، وأيقظهم من غفلة كانوا فيها؛ وكأنه يقول لهم: إبدؤا بأنفسكم، فكونوا في الطاعة والاستقامة، والالتفات لأمور دينكم ومعاشكم مثل الناس في زمن الخليفتين وستجدون أننا مثلهما، فالطابق الثاني يقوم على الطابق الأسفل، ولا يقوم في الهواء حتى يبنى الطابق الأسفل:

«قال عبدالملك بن مروان:

انصفونا يا معشر الرعية، تريدون منا سيرة أبي

بكـر وعمـر، ولا تسيرون فينـا ولا في أنفسكـم بسيرتهما، نسأل الله أن يعين كلاً على كل». [1]

ويصف واصف للناس في زمن لاحق ما كان الناس عليه في زمن سابق، ويرسم صورة حسية بديعة لِمَا رأى الفريقين عليه، فيقول أبو مسلم الخولاني، بنبرة تأنيبٍ لجلسائه:

«كان الناس ورقا لا شوك فيه، وأنتم اليوم شوك لا ورق فيه». [2]

وهو وصف لأهل زمانه مغالىً فيه، أوجبه الحنق عليهم، وخيبة أمله فيهم، لما يسيرون عليه من سيرة لا ترضيه، ونهج ينبذه ويرفضه.

وليس بعيداً عن هذا في المؤدى العام قول يونس بن ميسرة:

«لا يأتينا زمان إلا بكينا منه، ولا تولى عنا زمان، إلا بكينا عليه».

---

(١) سراج الملوك: ٣٤٨.

(٢) ربيع الأبرار: ١/ ٣٩٨.

ومنه قول الشاعر:

«رب يـــوم بكـــيت منـه فلمّا
صـــرت في غيره بكيـــت عليـــه»[1]

ولقد خفف الشاعر في البيت الحُكم، فلجأ إلى احتمال وقوع ذلك، فكان قوله أقرب إلى الصواب، وفيه مراعاة لحال الناس، إن أحسنوا، وصار هذا ديدنهم، أو أساؤا واتخذوا هذا مظهر حياة. أما القول الذي قبله فقول جازم بحسن الزمن الماضي وسوء اللاحق مقارنة به، ويحمل في طياته مثل القول الذي سبقه حنقاً شديداً على أهل زمن القائل. ولعل القول يأتي مُرّاً هكذا أحياناً لا لأن قائله يعتقد هذا الأمر أعتقاداً جازماً، ولكنه يقوله وفي النية التأنيب والحث على تدارك الأمر، وإيقاف التدهور في نظره. وتحمل الجملة روح الاصلاح المغَطَّى بستار الحنق والغضب، ولكن الجملة في هدفها باسمةٌ مشرقة، ولا تعْني ظاهرها بحذافيره.

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٩١هـ، ١/ ٥٥٨.

ولبيد في زمنه في الجاهلية رأى زمنا يختلف عن زمن، وتوجَّد على أهل الزمن الماضي، وصاغ ذلك في أبيات مؤثرة استشهدت بها أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - فقالت ما رواه هشام بن عروة:

«قاتل الله لبيداً حيث يقول:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم
وبقيت في خلف كجلد الأجرب
يتحدثون مـلَالـة ومهـانـة
ويعاب قائلهم وإن لم يَشْغَبِ»[1]

فكيف لو أدرك زماننا.

قال هشام بن عروة: أما أنا فلا أقول شيئًا.

ويضيف أبو حيان التوحيدي في كتابه: «بهجة المجالس» أن ابن عباس قال لما سمع تعليقها:

«رحم الله لبيداً، ورحم عائشة، لقد أصبتُ باليمن سهماً في خزائن عاد كأطول ما يكون من

(١) البخلاء للبغدادي: ٧٤، بهجة المجالس: ٢/ ٧٩٧.

رماحكم هذه، مريّش مفوق، مكتوب عليه:

فهل لي إلى أجيال هند بذي اللوى
لوى الرمل من قبل الممات معاد
بلاد بها كنا ونحن نحبها
إذ الناس ناس والبلاد بلاد»[1]

ويبيّن هذا الشعر عمق الزمن في القدم، ومعه بُعْدَ الشكوى فيه، فالشاعر يلمح إلى أن الناس في الزمن الذي يتشوق إليه، ويتوجد عليه، كانوا ناساً بما تعنيه هذه الكلمة من الإنسانية. وإن الزمن كان زمنًا محموداً، وزمانه بخلاف ذلك.

ويأتي من لعله رأى حيفاً من الناس في حق الزمن، وتهمة ظالمة له، فأخذ يدافع عنه، ويحمي حقه، ويظهر الحقيقة، ويلقى اللوم على أهل الزمن لا الزمن، فيقول:

إن الجديدين في طول اختلافهما
لا ينقصان ولكن ينقص الناس[2]

---

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٧٩٨.
(٢) المحاسن والمساوىء: ٤٥٦.

وهذا قول صادق فالزمن لا يتغير: نهار يكر وليل يمر، وأسابيع تنتهي، وأشهر تنقضي، وسنين تجري مجرى السحاب، وإذا كان الزمن يتغير بعد مئات الآلاف من السنين فليس لهذا شاهد من الناس، وما شهدنا إلا بما علمنا، أو علمنا في قرآن أو حديث، وإلا فإنّ علماء الفلك وأمثالهم، نظرياتهم تتطور وتتبدل، وينقض بعضها بعضاً أحياناً.

واتهام الزمن بأنه سبب تغير الناس يوحي بأن الإنسان يحب أن يلقي اللوم على غيره، وفي أمر واسع مثل هذا ليس هناك أقرب، وأدعى للقبول من رمي التهمة، وإلقاء الظنة على الزمن؛ لأن الزمن لا يدافع عن نفسه، وهو قوي يتحمل ما يلقى على عاتقه، ولعله لقوته لا يشعر بأنه ألقي إليه شيء، أما ابن آدم فيجد راحة ومتنفساً إذا وجد من يلقي عليه اللوم الذي في الحق يجب أن يتحمله هو، إما لأنه من صنع يده إذا كان خللاً في

مجتمعه، أو شيباً وشيخوخة محتمة عليه، في نظام الله - سبحانه وتعالى - للكون. ولو لم يفعل ذلك لضاق صدره بهمٍّ لا تحمله الجبال.

ويقول الصلتان السعدي في أبيات:

أشـــاب الصغير وأفنـــى الكبيـ
ـــر كـــرّ الغـــداة ومـــرّ العشي
إذا ليلـــة هـــرّمـــت يـــومهـــا
أتـــى بعـــد ذلـــك يـــوم فتـــي[1]

فالصلتان يجعل الزمان في عنصريْهِ الليل والنهار هما اللذان أشابا الصغير، وأفنيا الكبير، بدورانهما وتعاقبهما، فهما وسيلة الله - سبحانه وتعالى - على فناء الإنسان، وكأنهما مقراض دائب القص والقطع لحياة الإنسان، أو مطحنة تسحق هذه الحياة، برحى لا تني حتى تؤدي ما ألهيت به.

ومرور الزمن على أمر يري أنه تغيّر من حال إلى حال، من حال لها صفة معينة إلى حال مخالفة لها

(١) الحيوان: ٣/ ٤٧٧.

تماماً، فما قد يكون غير مقبول في زمن يصبح في زمن لاحق هو المقبول والمطلوب، وقد عبر عن ذلك معاوية بن أبي سفيان بقوله:

«معروف زماننا منكر زمان قد مضى، ومنكره معروف زمان لم يأت». [1]

وقيل إن هذا القول أو مثله قاله عدي بن حاتم لمعاوية، ونصه:

«معروفك الذي تعده اليوم منكراً معروف زمان لم يأت». [2]

ويحلو لبعض قائلي الحكم في الآداب الأخرى قول يسير مع هذا في بعض جوانب الحياة، وما يحدث فيها مع سير الزمن، فهم يقولون:

«بدع اليوم سنن الغد».

ويلوم فقيه الزمان تغطية لتأنيبه لأهل زمانه، وما يود لهم أن يرتفعوا إليه بدلاً من المنزلة التي هم

(١) ربيع الأبرار: ١/٥٥٦.
(٢) محاضرات الأدباء: ٢٥٥.

فيها، والتي يجد أنها لا تليق بهم، وليجعل الأمر مقبولاً لهم، فلا يأنفون من هجومه المغلف، فإنه يجعل محور النقص مركزاً فيه هو نفسه، وهي خطة بارعة، لا يصل إليها إلا مفكر ذكي، وهذه صفات تتوفر في الفقهاء، وما سلكه هذا الفقيه في هذا النهج يسلكه كثيرون ممن يريدون أن «يبيعوا فكرة»، ليس من السهل «بيعها»، على غيرهم، وتستعمل في دروب عديدة من الحياة، وتحظى بالنجاح، لأنها مبنية على دراسة لأنفس الناس وطبائهم، ومعرفة ما ينفرهم أو ما يجذبهم، أو ما يجعل الأمر وسطاً عندهم، لا جاذباً ولا منفراً:

«قال إبراهيم النخعي لأبي حمزة:

لقد تكلمتُ، ولو وجدت بُدًّا ما تكلمتُ، وإنّ زماناً أكون فيه فقيهَ أهل الكوفة لزمان سوء». [1]

إن إبراهيم، وهو إمام في علمه، قاس نفسه بمعلميه وهم من قاس زمانهم بزمانه، وقد عرفهم

---

(١) الإشراف: ٢٧٠.

كباراً في سنهم وعلمهم، وحفر، منذ كان صغيرًا، لهم تقديراً واحتراماً في ذهنه، بقي يزيد ويتضخم مع الأيام، وتضخم كذلك موقع زمانهم، فعند مقارنته للناس بالناس، والزمان بالزمان، يجد الرجحان للسابق، والعامة تقول: «من عرفك صغيراً احتقرك كبيراً» وهو قول صادق مع كثيرين تجاه كثيرين، ومَنْ من الناس من لم يعرف نفسه صغيراً، ويعرف الهفوات وكثرتها وضخامتها في بعض الأحيان، فإذا كان من المسموح به للإنسان - عند العامة على الأقل - أن يحتقر صغيراً كَبُرَ، فالقياس ينطبق على الإنسان مع نفسه، بل هو أولى أن يكون كذلك؛ إلا أن الله يتدارك الناس تجاه أنفسهم وغيرهم بالثقة التي تعطي دفعاً لعامل الاحترام والاعتزاز والفخر ليبرز، وليغطي على عوامل التحقير التي تدخل في حيز النسيان ونعمته، فتبهت تدريجياً، فلا تأتي إلا إذا استدعيت، وقد لا تأتي بسهولة، ولا يأتي بها إلا أشطان وأمراس تجرها إلى مقدمة التفكير، لتبرز

ملهاة وطرفة، لا ألمًا وحرقة، أو مظهر حياء وخجل.

ويقال إن عبدالملك كتب إلى الحجاج أن صف لي الدهر: فكتب إليه:

«أمس كأن لم يكن، وغد كأن قدٍ، ويوم يستطيله البطالون، فيقصرونه بالملاهي، وفيه يتزود العاقل لمعاده». [1]

وهذا قول جميل، وحكمة مضيئة، جاءت بأبهى عبارة، وأقصر تعبير، جامعة لمعانٍ شريفة، بكلمات معدودة، وقد اشتملت على جانبي الحياة: الإنسان وزمانه، وصلة أحدهما بالآخر، وفي مواءمة متقنة، ومجانسة مبدعة.

والذي يلفت النظر في هذا النص هو طلب عبدالملك الخليفة، من عامله أن يعطيه جواب أمر لم يتبين له كنهه، فهل الأمر مركب وموضوع على لسان الخليفة والعامل، ليروج ويقبل، استخساراً

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٧٠.

لضياع مثل هذا القول الشريف، أو أن السؤال من عبدالملك والجواب من غير الحجاج، أو أن السؤال من غير الخليفة، والجواب من الحجاج، بمعنى أن السائل أحد جلساء الحجاج، في جلسة مذاكرة أدبية، والحجاج عرف بحبه لمجالس اللغة والعلم والأدب، وإعجابه بالفصحاء والمتكلمين بالحكمة. أو لعله سؤال ألقاه الخليفة على عامله إختباراً واكتشافاً، حتى يتأكد من أمرٍ، أو ليكشف عما إذا كان عقل عامله قد رَكَدَ وصدأ مع مرور الزمن، وطول المدة في المنصب. الله أعلم!

ويصور الزمان أحياناً وما يحدث للناس بمروره صوراً تأخذ باللب، للعناية في رسمها، ووصفها في تعبير مؤثر مُدَعَّم بالشعر مثل القصة الآتية:

عن شيخ من همدان:

بعثني أهلي في الجاهلية إلى ذي الكلاع بهدايا، فمكثت حولاً لا أصل إليه؛ ثم أشرف إشرافة من كوة له، فخرّ من حول القصر سجداً.

ثم رأيته بعد، وقد هاجر إلى حمص، يشتري اللحم بدرهم، ويسمطه خلف دابته: وهو القائل:

أُفٍّ للدنيا إذا كانت كذا
أنا منها في عناء وأذى
إن صفا عيش امرئ في صبحها
جرعته ممسياً كأس القذى
ولقد كنت إذا قيل من
أنعم الناس عيشاً؟ قيل ذا»[1]

هذه صورة من الصور التي تُري ما يحدث للمرء مع مرور الزمن من تغير في الأحوال، وتبدل في مظاهر الحياة؛ وهناك قصة ترسم صورة تهدف إلى ما هدفت إليه هذه، وتسير في الاتجاه نفسه، وهي تعبير متقن عن فكرة اختلاف الأمور باختلاف الزمان وبمروره:

«قال مالك بن دينار: مررت على قصر تَضِرب فيه الجواري بالدفوف، ويقلن:

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٥٥٧.

ألا يـا دار لا يـدخلـك حـزن
ولا يـذهـب بسـاكنـك الـزمـان

ثم مررت عليه بعد حين وهو خراب، وثَمَّ عجوز، فقالت:

يـا عبـدالله، قـد والله دخلهـا الحـزن، وذهـب بأهلها الزمان». [1]

وتأتي أحياناً قصص رمزية تنطق جماداً يصور مرور الزمن، وما يحدث للناس مع مروره، والقصة الرمزية تعبر عن فكر صاحبها، الذي لا بد أنه أدار الفكرة في ذهنه عن الزمان وأهله، والصلة التي بينهما، وما يحكمها في تنظيمها وسيرها وجريانها، والقصة التالية تمثل ذلك خير تمثيل:

«تشاجر رجلان في قصر، فأنطق الله لبنة من الزاوية، فقالت:

إعلما أني كنت إنساناً مثلكما ألف سنة، ثم مت فكنت رميماً ألف سنة، ثم كنت حِبًّا مئة

(١) ربيع الأبرار: ١/٥٦٦.

سنة، ثم كسرت، فصرت ترابا، فضربت لبنة، فوضعت في بنَاء هذا القصر منذ ثلاث مئة سنة؛ فحياءً لكما بعدما سمعتما أن تتشاجرا، وتأخذا بتلابيبكما». [1]

ويستقرئ بعض النابهين أزمان الماضين، والأزمان الحاضرة، ويرى بعض الظواهر وتطورها، فيأخذ منها حُكْماً على المستقبل، ويتنبأ على هذا بما قد يحصل للأجيال القادمة في هذه الأزمان المقبلة.

«يقول خلف بن إسماعيل:

سمعت سفيان يقول:

يأتي على الناس زمان لا ينجو فيه إلا من تحامق». [2]

ولعل سفيان رأى ما طرأ على المجتمع، ورأى أن أسباب التغيير مستمرة، وأنها في اتجاه معين،

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٣٦٨.

(٢) العقل وفضله: ٥٧.

يدل على أن زماناً آت لن ينجو من الأذى فيه العاقل، ولا ينجو إلا مجنون أو عاقل يتظاهر بغير العقل، ويتسم سياسة بسيماء الجنون.

وليس هذا غريباً فقد جاءت فترة من العصر العباسي قامت فيها فتنة اتجه أذاها إلى خيرة العلماء فيها، وهي فتنة خلق القرآن، وكأنّ سفيان يطل على مجلس الخليفة والناس تدخل عليه، يقر بخلق القرآن من يقر فيسلم، وينكر من ينكر فينال نصيبه من الأذى كبر أو صغر، ولقد تحامق رجل على الأقل دوّنت قصته في التراث، فنجا من الأذى بفضل هذا التحامق، الذي دله على اختياره فكر ثاقب، وذهن صائب، جاء له منهما نجاة محققة، إذا صح الخبر، ولم يكن متخيلاً:

«قيل: أدخل عُبادة على الواثق، والناس يضربون ويقتلون في الامتحان [في خلق القرآن]. قال:

فقلت: والله لئن امتحنني قتلني، فبدأته، فقلت:

«أعظم الله أجرك، أيها الخليفة».

فقال: فيمن؟

فقلت: في القرآن.

قال: والقرآن يموت؟

قلت: نعم، كل مخلوق يموت، فإذا مات القرآن في شعبان فبإيش يصلي الناس في رمضان؟

فقال: أخرجوه، فإنه مجنون». [1]

فإن كانت هذه القصة حدثت فعلاً، فهذا أمر يؤكد ما ظنه سفيان يحدث في زمن لاحق لزمنه، وسبب الشك الذي لم يجعلنا نقطع بأن هذا حدث فعلاً، هو جلال الموقف، وتوقع أن مثل هذا الهزل قد يجد معه الخليفة وجوب معاقبة «عبادة» عقاباً شديداً قد يصل إلى القتل، حتى لا يتجرأ الناس على مجلس الخليفة.

ولسقراط قول يلمس الناس وزمانهم، وقد

---

(١) عقلاء المجانين: ٤١.

انظر أيضا: تظاهر مسعر بن كدام بالجنون عندما دخل على المنصور الذي طلبه ليوليه القضاء، فقال له مسعر: هات يدك، كيف أنت وأولادك ودوابك، فقال (المنصور): أخرجوه فإنه مجنون. عقلاء المجانين: ٤٢.

جاء من زاوية جعلت قوله مقبولاً، لأن ما قاله ملموس في كل زمن، ويكاد لا يبقى من فضلِ قولهِ لسقراط إلا صياغة الكلمات:

«قال سقراط:

لا تكرهوا أولادكم على آثاركم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم». (١)

إنه يدخل تحت هذا أمور مهمة، أحدها تربوي يوجه الآباء إلى كيف يجب أن يكون تعاملهم مع أولادهم، إذ أن تفاعلهم مع زمنهم يختلف عن تفاعل الآباء مع زمنهم، فالمؤثرات التي تدخلت في تهذيب الأب وتربيته تختلف عن تلك التي تكون لابنه في دَرْجِهِ الجديد؟ وثانيها أن التربية على شيء لا تكون بالإكراه؛ لأن الأكراه أحياناً يجلب المكابرة والعناد من الصبي، وهذا يوجب التواقف والمشاحنة بينه وبين مربيه سواء كان والده أو معلمه أو معلمته أو والدته أو ولي أمر إذا كان يتيماً.

---

(١) الكشكول: ٢/ ٢٧٠.

وهذا يذكر بالقول بأنه إذا كان الأب والابن من جيل واحد كان هذا أقرب إلى التفاهم بينهما، وبُعد التنافر، فرجل تزوج صغيراً، ورزق أولاداً في أول زواجه، تربيتهم أسهل عليه من تربية رجل تزوج متأخراً في حياته، وصار بينه وبين أبنائه فجوة كبيرة، وأصبح الأب من جيل والأبناء من جيل، ففي الغالب لا يكون الانسجام تامّاً، أو التربية مقبولة، لأنه يكون للأب نظرة إلى أمور الحياة تختلف عن نظرة أبنائه، لأن الزمن غير الزمن؛ في حين أن الابن إذا كان قريباً من عمر أبيه يكون أقرب إلى أخيه. ولعل هذا أحد مرامي قول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -:

«الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم». [1]

وينظر حكيم إلى فعل الناس، فيرى فيه خللاً، فينبههم إلى ما يجب عليهم تجنبه، وما يجب عليهم أن يحلوه محله، فيقرن ذلك بالزمان، ويجعل ذلك

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٦٥١.

مطيته إلى غايته، ووسيلته إلى إقناع من يخاطبهم، ممن استقرئ أمرهم، وأهمته مصلحتهم، فينبه إلى أن الزمان الذي هم فيه لا يدوم الحال فيه على ما هو عليه، وأنه بمرور الزمن سوف يتغير الأمر، وسيكون هناك عسرة وشدة، وأن الرخاء والأزدهار مؤقت بوقتهم الحاضر القصير، وأن عليهم أن يتعلموا الشدة من الآن تحسباً لما سيأتي، وتعوداً على الحالة القادمة، فإذا جاءت فلا يكون مجيؤها مفاجأة لهم، ولا يكون تغير الحال وصل إليهم، أو وصلوا إليه بغتة؛ فإذا استعدوا له، وتعودوا علي شظف العيش، وما يلائم قواعد الصحة، كانوا في خير وعافية:

«قال جعفر:

كنا نأتي فرقداً السبخي، ونحن شَبَبَة، فيعلمنا:

إن من ورائكم زماناً شديداً؛ فشُدُّوا الأُزُرَ على أنصاف البطون، وصغروا اللقم، وشددوا المضغ، ومصوا الماء مصًّا؛ وإذا أكل أحدكم فلا يَحُلَّنَّ

إزاره فتتسع أمعاؤه؛ وإذا جلس أحدكم ليأكل فليقعد على إليته، وليلزق بطنه بفخذيه، وإذا فرغ فلا يقعد، وليجيء وليذهب، واحتموا فإن من ورائكم زماناً شديداً». [1]

في كل ما قاله فرقد معْزو للزمان، ومركز عليه، ويدور حوله، فهو الذي يتغير، في حين أن الزمان كما قلنا ثابت، ونحن الذين ندور عليه، ونُستَهلك بعد أن نُنْهك: يقظة ونوم، ونوم ويقظة، وأكل وشرب، وجوع وعطش، وأخذ وعطاء، وسفر وإقامة، وحمل وولادة، وصحة ومرض، وقاتل ومقتول، وساجن ومسجون، وهكذا دواليك، والزمان ينظر بعين عادلة، تنظر إلى كل جيل بمثل ما نظرت به لجيل سابق، وما ستنظر به إلى جيل لاحق. ولكن الزمن «حمّال أسيّه»، إثقال كتفيه بالمسؤولية أسهل على ابن آدم من حملها هو بنفسه! ولعل فرقداً مثل غيره استعار

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٢٣٧.

الزمان لمن حل فيه، على وزن: وأسأل القرية، إذ المقصود أهل القرية.

والاستعارة في اللغة العربية وغيرها مصدر جمال، إلا أنها في اللغة العربية مكتملة الأصول، متشعبة الفروع، أنواعها لا تعد ولا تحصى، تفنن فيها اللسان العربي إلى حد الأدهاش، ووردت في القرآن الكريم إلى حد الإعجاز، فجاءت بالصور الناطقة المعبرة، ورسمت معاني مبهجة في جمالها ورونقها.

ولقد أعطت الاستعارة المعاني العربية، والتعبير عنها في هذه اللغة الرائعة مجالاً تصول فيه وتجول، وسعة فائقة للمناورة والمحاورة والمداورة، لا تجدها في أي لغة أخرى، ولا غرو فكل لغة لها خصائصها، ولكن اللغة العربية لغة القرآن فلا عجب أن تبز غيرها سعة وعمقاً، ودقة وجمالاً وتأثيراً، ولا يخفى هذا إلا على جاهل حظه منها قليل، أو مكابر له غرض وهو الخاسر أولاً وآخراً.

في اللغة العربية تستطيع أن تقول:

«لقد بنيتُ هذا البيت في عامين، وهذه العمارة الضخمة في عامين كذلك».

فيفهم العربي أنه لا يمكن أن تكون بنيتها بنفسك، بيديك ولكن يعرف بديهة، وبمجرد أن تنتهي جملتك التي نطقت بها، أنك استأجرت قويّا قادراً مع آخرين مثله على بنائها، ويتصور العمل كله في جميع أجزائه ومراحله كما كان.

أما الإنجليزي فيفغرُ فاه عندما تقول الجملة ويقول بدهشة بلهاء:

«بنيتها بنفسك!؟».

ولو سمع: «وأسأل القرية» لتصورك تخاطب حيطان البيوت وأبوابها ونوافذها. ولهذا امتاز العرب عن بقية المسلمين بلذة فهم القرآن، وتعجب المسلمون من غير العرب كيف نهمله ونهمل لغته، وفيها الشرف لنا! إنهم يغبطوننا على معرفتنا باللغة العربية، ولكننا لا نشحذ هذه

الغبطة بدراستنا للغة القرآن، والمحافظة على نصاعتها وأصالتها، وحمايتها من الدخيل إليها من اللغات التي هي أدنى منها، أو تحريف كلماتها في تصريفها على غير قواعدها، وإذا أردت أن تحميها من عبث الجهلة والمتهاونين الكسالى، قليلي الغيرة عليها، وأخذت تصحح الأخطاء المخزية، ردوا رداً متهرباً، وقالوا: نحن في عصر غزو الفضاء، وأنت في جهد تمحك اللغة، ونشر مواتها؛ وهذا تغطية لكسل، لأنهم لم يعطوها ما أعطيتَها وأضاعوا وقتهم في التبحر في لغةٍ عند التمحيص نجدهم لم يكسبوا منها إلا القشور، في حين أن أطفال أبنائها يتعمقون فيها، ويغارون على أصولها، بل يشقون ليغوصوا على ما يوصلها باللغات القديمة الإغريقية أو اللاتينية، ولم يفكروا في دراسات الفضاء إلا بعد أن أتقنوا أداةً من أدوات التخاطب بين الفضاء والأرض، بما لا يأتي منه لبس، أو سوء فهم، لأنّ في هذا كارثة.

ولكن «عازف الحي لا يطرب!».

أذكر أني مرة في فرنسا سألت شاباً عن شارع من الشوارع باللغة الإنجليزية، فأجابني باللغة الفرنسية، وقال: لماذا تعلمت اللغة الإنجليزية ولم تتعلم الفرنسية، وكأنه يجازيني، ونحن نفرح عندما تأتي الفرصة لنتكلم مع الاجنبي بلغته حتى لو كان يعرف اللغة العربية ويتقنها.

وأذكر أن زميلاً لنا إنجليزياً سافر إلى مصر ليتمرن على التحدث باللغة العربية، فوجد صعوبة مع من يجلس معهم، كلهم يحاول أن يتحدث معه باللغة الإنجليزية، فصار يهرب منهم، ويجلس مع البوابين والخدم والسائقين!

لقد أبعدنا عن الزمان بهذا الاستطراد فلنعد إليه لنرى بعض ما قيل عنه من قريب أو بعيد.

يقول أبو جعفر القرشي:

أرى زمناً نوكاه أكثر أهله
ولكنما يشقى به كل عاقل

سعى، فوقه رجلاه والرأس تحته
فكبّ الأعالي بارتفاع الأسافل[1]

إن أبا جعفر نظر إلى الزمن، ثم أجلس فيه أهله، فصار هو الصَّحْفة التي قدم فيها الناس، ثم وصفهم، وأن كل عاقل يشقى بهذا الزمان الذي أمتلأ بالحمقى، وقد أكد في البيت الثاني انعكاس الأمور، وانقلابها رأساً على عقب؛ فأبو جعفر يقول إن الزمان تغير، وتغير أهله، وكان ما قبله أفضل منه، فقد كانت في السابق الأمور أفضل، وفي هذا الزمان انحط ما كان عالياً، وارتفع ما كان سافلاً.

وأبو جعفر ثانٍ له قصة ثانية مع الزمان، فيها طرافة عندما تقارن بما قاله أبو جعفر القرشي:

قال: أبو جعفر الشيباني:

أتانا يوماً أبو مياس الشاعر، ونحن في جماعة، فقال:

---

(١) العقل وفضله: ٥٧.

ما أنتم فيه؟ وما تتذاكرون؟

قلنا: نذكر الزمان وفساده.

قال: كلا، إنما الزمان وعاء، وما ألقي فيه من خير أو شر كان على حاله، ثم أنشأ يقول:

أرى حللا تصان على أناس
وأخلاقاً تداس فما تصان
يقولون الزمان به فساد
وهم فسدوا وما فسد الزمان

هنا موقفان متضادان، موقف يضع اللوم على الزمان، وموقف يعذّر له، ويبرئه مما نسب إليه، الموقف الأول فيه تسرع وكسل عقلي، والثاني فيه تأنٍّ وتبصر، وإجهاد للفكر وإعمال له، حتى الوصول إلى كنه الأمر، والحصول على المخّ والزبدة، وشتان بين الموقفين.

والأبيات صادقة وبديعة، ومعضدة لفكرة صاحبها الذي قالها أو استشهد بها، وما قاله أبو مياس الشاعر هو الحق فيما يبرأ به الزمان من التهم

التي تكال له، ويمكن أن يكون قوله المحك لكل قول من النوع الذي أثاره فَرَدَّ عليه.

وهذا آخر يجعل في يد الأيام عملاً تؤديه حيال الناس، والأيام جزء من الزمن، وأوكل إليها عملاً كبيراً، فجعلها تقلب حالات الناس، ومثّل لذلك بصورة معبرّة، وهي أن الأمور انقلبت رأساً على عقب، حتى أن الثعالب تجرأت فعدت على الأسود:

«قال الحارث بن نمر التنوخي:

وقد تقلب الأيام حالات أهلها

وتعدو على أسد الرجال الثعالب»[1]

ومظهر آخر من انقلاب بعض الأمور رأساً على عقب يعبر عنه عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - في قوله:

«إن صغار هذه الأمة تعلموا من كبارها في

(١) تسهيل النظر: ٢١٢.

صدر الإسلام، وسيجيء زمان يتعلم كبارها من صغارها». [1]

ويأتي الحديث عن الزمن في مخاطبة بعض رموزه، ومنها الهلال إذ هو دليل دخول الشهر؛ وكان أهل الجاهلية:

«إذا رأوا الهلال قالوا:
«مرحباً بمن يحلّ دَيناً، ويقرِّب حينا». [2]

إنه ترحيب سخرية، لأن الشهر إذا أهلّ أتى بما ينغص عليهم حياتهم، وينكد عيشهم، إما بالمطالبة بدين حل أجله، أو موت عزيز حان وقته. والشهر في الحقيقة لا دخل له بالأمر، فالموت بيد الله - سبحانه وتعالى - يأتي في أول الشهر أو وسطه أو نهايته، لا دخل للهلال في مجيئه أو رده؛ أما الدَّين فالذي حدد وقته هم الناس، فما بالهم يلقون اللوم، وألفاظ السخرية على الهلال رمز الزمن؟!

---

(١) البصائر: ٤/ ٢٣٩.
(٢) البصائر: ٥/ ١٩٨.

هذه بعض الأقوال التي وردت في الزمان، تُحَمِّلُه اللوم على ما لم تجن يداه، وما لم يتسبب فيه، وتلقي عليه حملاً أهل الزمان أولى بحمله، ومعاناته، وبعض هذه الأقوال يقف حصناً منيعاً أمام لوم الزمن، وإلقاء التهمة عليه، وينتصب ترساً واقياً يحمي حوزة الحق تجاه الزمن.

وإلقاء اللوم على الزمن يمتد إلى زمننا هذا فكثيراً ما نسمع من يقول: «الزمان تغير» أو «هذا زمان كذا»، وتتغير أمور، وتتبدل مظاهر في زمن واحد، وعلى جيل واحد، واللوم على الزمن، وأحياناً أبناء الزمن، ولو فكر أحدنا فيما مر عليه في الخمسين سنة الماضية، أو الستين، وكيف تغيرت الأمور من صورة إلى صورة، مع عودة للصورة السابقة تفضيلاً لها، وهروباً من الأخرى، لوجد عجباً، وما هذا من الزمن، ولكنه من تقارب الديار، وسهولة المواصلات، وانتقال التأثير، وأعطي مثلاً واحداً، سوف أتتبع - دون تدقيق - بعض مراحل في خط سيره:

عندما كنا صغاراً كان الشيء المحمود هو حلق شعر الرأس بالموسى، كل شهر مرة تقريباً، وغير هذا منتقد؛ ثم صار في بعض المناطق، أو المراحل ترك الشعر يطول هو المحمود، ويكون للشخص الكبير والصغير من طبقة معينة، ذوائب، تنافس ذوائب النساء، ثم دخلت بعض المدن طريقة القذلة، ثم الغرّة و «التواليت»، وكانت هذه تحارب من عقلاء الناس، ويوصَى بترك الشعر كلية أو حلقه كلية، ثم قُبل الأمر فترة طويلة، وفجأة زحف على المجتمع طراز حلاقة الخنافس، فثار المجتمع العاقل عليه، وتمنى الناس العودة إلى «الغرّة» أو «التواليت»، فكانت محمودة عند هذا الحدث الكريه المنظر، ثم اختفت، وجاءت قَصَّة الغراب وكثرت القصات، حتى لم يعد الناس يعرفون هذه من تلك، وكثرت الظباء على خراش، ولكن هذه الأنواع من الطراز قصيرة الأجل، سريعة العطب.

تفاعل المجتمعات هو الذي يأتي بإذن الله بالتغيير والتبديل وليس الزمن، وما الزمن إلا شاهد عدل.

استدراك ولحن[1]

من عمق الوطنية أن يهتم المرء بلغته، والاهتمام باللغة العربية يمتاز عن اللغات الأخرى، في نظرنا، فإن الاعتناء بها دليل الدين، والتمسك به، والغيرة عليه، ودليل الوطنية أيضاً، لأن اللغة العربية هي وعاء الدين، وهو وعاء شريف ونبيل، لأنه وعاء القرآن الكريم، وسنة رسول الله ﷺ.

وإذا كان هناك من حرص في أن يكون المرء يقظاً في عصور الإسلام المتأخرة، لكثرة الأخطار التي بدأت تحف باللغة، من كثرة الوافدين إلى البلاد العربية، أو الداخلين في الإسلام، فإن المسلمين الأوائل، منذ زمن أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - كانوا يقظين ومتنبهين لكل زلة في اللغة يسمعونها، وكل خطأ في حقها يرتكب أمامهم.

---

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٢٢٥) في ٢٩/ ٢/ ١٤١٥هـ الموافق ٦/ ٨/ ١٩٩٤م.

وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كثيراً ما يغضب على من يلحن، وله مواقف مشهورة في هذا، تدل على وعي تام بما قد يأتي به السكوت على اللحن، والتهاون في تصحيحه؛ ولهذا كان لا يتوانى عن اتخاذ العقاب البدني، فيضرب مرتكب اللحن كما حدث مع كاتب أبي موسى الأشعري، ولعل القارئ يعذر عمر عندما يرى فداحة اللحن الذي ارتكبه الكاتب:

«روي أن كاتباً لأبي موسى الأشعري كتب إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «من أبو موسى».

فكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري - رضي الله عنهما - «إذا أتاك كتابي هذا فاضربه سوطاً وأصرفه عن عملك». [1]

ويعلق صاحب كتاب «تنبيه الألباب» على هذا الخبر بقوله:

(١) تنبيه الألبياب: ٢٩٠، انظر أيضاً: ربيع الأبرار: ١/ ٦٣٤.

«فلو لم يكن اللحن عند عمر - رضي الله عنه - ذنباً يستوجب به العقوبة من الله - تعالى - لما أمر بضربه وصرفه، هذا مع أنه لم يلحن في كتاب الله - عز وجلّ - ولا في حديث رسول الله ﷺ فلو لحن فيهما لكان ذنبه أعظم، وكانت العقوبة له ألزم»، فقد روي عن الحسن أنه قال:

«من لحن في القرآن فقد كذب على الله - عز وجل -».

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».[1]

ولعل ما أرعب عمر من لحن كاتب أبي موسى هو أن يتدرج الأمر إلى اللحن في القرآن والسنة، فيدخل اللاحن في المحذور.

وإذا تركنا هذا النوع من اللحن جانباً، والتفتنا إلى ما ليس بلحن، ولكن الأمر فيه يرجع إلى الذوق، وحسن التعبير، وجدنا أن هذا النوع أيضاً

(١) تنبيه الألباب: ٩٠.

مما يقصدون من ورائه صفاء اللغة وضياءها، غيرة عليها، وظناً بها عن أن يتسبب أحد في نقدها، واتهامها، وهناك قول يروى عن أبي بكر، ويروى مثله تماماً عن عمر، وتقارب القولين يدل على أن القائل أحدهما، وأن الراوي وهم فنسبه إلى الآخر، أو أن هذه ظاهرة بدأت تظهر في هذه الفترة، فصار كل غيور يسارع إلى تصحيح العامة فيها حتى لا تستشري:

«مرّ رجل بأبي بكر، ومع ثوب، فقال:

أتبيع الثوب؟

فقال: لا عافاك الله!

فقال أبو بكر - رضي الله عنه -:

لقد علمتم، لو كنتم تعلمون. قل: لا، وعافاك الله!». [1]

وفي رواية أن الحوار كان كما يلي:

«مر رجل بأبي بكر الصديق - رضي الله عنه -

(١) البيان والتبيين: ١/ ٢٦١، تدريب الناشئين: ٦١.

ومعه ثوب، فقال له أبو بكر:

أتبيعه؟

فقال: لا، يرحمك الله!

فقال أبو بكر: لو تستقيمون لقُوِّمَت ألسنتكم، هلا قلت: لا، ويرحمك الله!». [1]

وفي رواية ثالثة:

«رأى أبو بكر - رضي الله عنه - رجلاً بيده ثوب، فقال:

هو للبيع؟

فقال: لا، أصلحك الله!

فقال - رضي الله عنه -: هلا قلت: لا، وأصلحك الله! لئلا يشتبه الدعاء لي بالدعاء عليّ». [2]

أما ما جاء مروياً عن عمر فهو كما يلي:

«روي أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال لرجل:

---

(١) الكشكول: ٣٧٣.

(٢) لطائف اللطف: ٢٧.

أتبيع هذا الثوب؟

فقال: لا، عافاك الله!

فقال: لقد علمتم ما لو تعلمون، قل:

لا، وعافاك الله». [1]

وهذه الواو ذات أهمية كبرى، فهي، كما رُوي، تجعل الدعاء للشخص إذا أثبتت، وعليه إذا حذفت، وقد مدح المأمون جمال وجودها في القصة الآتية:

«وحكي أن المأمون سأل يحيى بن أكثم عن شيء، فقال:

لا، وأيد الله الأمير!

فقال المأمون: ما أظرف هذه الواو! وما أحسن موضعها!».

والمبرد يروى أن الذي سأله الخليفة المأمون هو يحيى ابن المبارك، ويرويها كالآتي:

«سأل المأمون يحيى بن المبارك عن شيء، فقال:

---

(١) محاضرات الأدباء: ٣٠.

لا، وجعلني الله فداك يا أمير المؤمنين!

فقال: لله درك ما وضعت واوٌ قط موضعاً أحسن من موضعها في لفظك هذا! ووصله وجمله». [1]

وقد تغزل الصاحب ابن عباد بهذه الواو فيما روي عنه:

«كان الصاحب ابن عباد يقول:

هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ». [2]

وأحياناً يكون الاستدراك مهمًّا، لأنه يحمي أس الدين، ويبعد خطأ فيه جسيمًا، قد لا يتنبه له الإنسان، فيأتي فقيه ينير له الطريق، ويوقفه عن أن يتردى في حفرة غفل عنها؛ والقصة الآتية تُري مداخل الشبه التي يمكن أن يقع فيها الإنسان دون أن يعلم.

وهذه أمور في بلادنا - والحمد لله - أصبحت واضحة يعرفها الطالب في سني دراسته الأولى، لعناية الغيورين على الدين، وحرصهم على زرع

(١) تاريخ بغداد: ١٤/١٤٨، ترجمة يحيى بن مبارك اليزيدي، أخبار الظراف: ٩٢.

(٢) الكشكول: ١/ ٣٧٣.

بذور العقيدة الصافية في أنفس الصغار، وإبعاد الشبه، خاصة ما يدخل في نطاق الشرك بنوعيه، وهي ميزة يمتاز بها المتعلم في المملكة، مما قد يخفى على خريج جامعة في البلدان التي لا تلتفت لهذا الأمر، ولا تعتني به. والقصة الآتية تبين مزلقاً وقع فيه شخص تداركه فيه آخر، ونبهه إلى ما غفل عنه:

«قال رجل من بني مجاشع:

جاء الحسن في دم كان فينا، فخطب، فأجابه رجل بأن قال: «قد تركت ذلك لله ولوجوهكم».

فقال الحسن: لا تقل هكذا، بل قل: لله ثم لوجوهكم، وآجرك الله!». [1]

والحسن أدرك الخطأ في إشراك وجوه القوم مع الله - سبحانه وتعالى - في درجة واحدة، وفي هذا مع الشرك وإثمه الكبير، نقص في الحياء، وتطاول على مقامه - جل وعلا -.

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٢٦١.

وهذا الاستدراك السريع لم يجعل الجملة تسلم دينا ولكنه جعلها تلبس حلية لغوية جميلة.

واستعمال كلمة «ثم» في مثل هذه الحالات التي تعطي الإلٰه - عز وجل - حقّه من التميز والعلو، وتضع الخلق في موضعهم من التدني بالنسبة له، أمر اهتم به الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - وهو ما تعلّمه من أساتذته الأحياء منهم والأموات، فكان من أصول دعوته، ومما أخذ به نفسه من محاربته، لانتشاره في ذلك الزمن، وغفلة العلماء عنه، أو تساهلهم في أمره، أو خوفهم من الغائلة فيما لو أظهروا رأيهم وحاربوه، في مجتمع ألفه.

والاستدارك لا يقتصر فقط على الألفاظ وما يأتي في ظلها من معاني تتأثر بها، بل يأتي أيضاً في المعاني، وما أشرفه حين يأتي كذلك! والقصة التالية تُري نبل القصد من الاستدراك، وما يرجوه صاحبه من أجر عليه، وبعد عن الرياء والنفاق:

«قال حصين بن عبدالرحمن:

كنت عند سعيد بن جبير فقال:

أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟

قلت أنا، ثم قلت: إني لم أكن في صلاة، ولكن لدغت.

قال: وكيف فعلت؟

قلت: استرقيت...»[1].

خاف سعيد بن جبير أن يتبادر إلى ذهن سامعيه أنه كان ساهراً يصلي، فتلحقه شبهة الرياء، فبادر ينفي ذلك، ويبعد عن سامعيه إثم الظن، ومثله لو كان ساهراً يصلي لما أشار إلى ما يدل على ذلك، لأن عمله مثل أمثاله من البررة إنما هو لوجه الله، وما دام كذلك فلا بد من إخفائه إلا على من لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء - سبحانه وتعالى.

فهذا استدراك لم يكن في اللفظ وإنما في الحال

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٣٧٤.

والمعنى، وفيه من الجمال ما استحق أن يدون ويروى.

وإذا رجعنا إلى اللحن الذي هزّ عمر، واضطره للعقاب نجد أمثلة كثيرة في مجال اللحن ومحاربته، ومقاومة انتشاره، وحماية اللغة، ومحاولة بقائها على صفائها وبهائها دون المساس بهذا الجوهر الثمين، بعد أن دخلت إلى المجتمع العربي عناصر أعجمية، أكدت الخطر، وزادت من توقع حدوثه.

وزمن عمر هو بدء إطلالة هذا الخطر بعنقه الطويل الممتد المتغلغل، فقد كثر في المدينة، وفي الأمصار العربية مثل الكوفة والبصرة، الغلمان والجواري من سبي الغزوات الموفقة المتتالية، وكثر الداخلون إلى المجتمع العربي من حديثي الإسلام من الأعاجم ومن الذميين.

ونظرة عمر إلى اللحن، واهتمامه به، تتبين من القصة التالية:

مر عمر - رضي الله عنه - على رماة غرض، فسمع بعضهم يقول لصاحبه:

«أخطيت وأسيت».

فقال: مه، فإن سوء اللحن أشد من سوء الرماية». [1]

فرغم أهمية إتقان الرمي في ذلك الوقت، نظراً للفتوح والحاجة إلى جند مدربين على الأسلحة تدريباً جيداً، إلا أن عمر أعطى اللغة أهمية أكبر، لإدراكه لخطر اللحن على اللغة، خاصة وأن لحن هذين الرجلين كان من النوع الذي لا يغتفر.

ـ[2] ولو عاش عمر إلى زمن الحجاج لرأى ما يهول ليس فقط في اللحن ولكن في النطق، وإن كان هذا ليس غريباً على عمر إذ لا بد أن هناك منذ زمن الجاهلية أحباشاً رجالاً ونساءً لا يحسنون النطق، ولكنها لم تكن ظاهرة يحتاج عمر إلى أن يشير إليها في خطبه على المنبر، كما فعل الحجاج بن يوسف:

«قال الأعمش:

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٢٢.

(٢) من هنا يبدأ الجزء الذي ألحق بما سبق أن طبع في صحيفة «عكاظ».

سمعت الحجاج على منبر الكوفة يقول:

يا معشر الحمراء (يعني الفرس) تخلفتم عن الغزو، وجلستم على الكراسي، وتبرّدتم تحت الظلال، فلا يمر بكم مار إلا قلتم: ما الهبر ما الهبر؟ (ما الخبر؟) والله لأهبرنكم بالسيف هبراً، أشغلكم به عن الأخبار». [1]

وعدم المقدرة على صحة نطق بعض الحروف العربية يسبقه جهل بالنحو والنطق حسب قواعده وأصوله، وفي زمن الحجاج كان اللحن مستشرياً، وهو إذا استشرى أعدى، ولا يُفرّق بين صغير أو كبير، أو عربي أو أعجمي؛ والحجاج نفسه روي أن العدوى وصلته، وأنه لحن:

«قرأ الحجاج يوماً: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمُونَ مُنتَقِمُونَ﴾ [2] فقالوا:

لحن الأمير، فأنشد:

---

(١) ربيع الأبرار: ٦٤٣.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٢٢.

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحًا
مني وما سمعوا من صالح دفنوا»[1]

ولا يعقل أن يلحن الحجاج في آية مثل هذه في القرآن، ولعل كلمة «منتقمون» التي تلي «مجرمين» هي التي أزلقت لسانه، فإن كان هذا حدث فعلاً، فهو زلة لسان، لا بد أنه تداركها.

ومع هذا فالحجاج، فيما يُروى، قاس على من يلحن، وفداحة الجزاء الذي أنزله بكاتبه تجعل الشك يحوم حول صحة الخبر، خاصة وأنه يرمى دائماً بالقسوة والعقاب، على أتفه الأسباب، مما رسم له صورة متناقضة مع ما دون من قصص عن عفو وعن لين جانب في حياته.

«رأى الحجاج لحنا في كتاب كاتبه، فأمر بقطع اصبعه».[2]

والأعراب هم أهل اللغة الصافية، وأبعد

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٤٣.
(٢) ربيع الأبرار: ١/ ٦٤٤.

الناس، لفترة طويلة من عهود الإسلام، عن اللحن، لبعدهم عن الاختلاط بالأعاجم، ولانعزالهم في البادية، حتى إن بعض من أراد أن تصفوا لغته، أو يأخذ اللغة الصافية ليدونها، شعراً ونثراً، كان يذهب إلى البادية، يعيش بين أهلها، ويأخذ اللغة من معينها الصافي، ومنبعها الثرّ، وقد دُوِّن من جواهرها ما ملأ مجلدات.

لهذا قيل عن أعرابي أنه لما دخل السوق، ورأى الباعة الحضر يلحنون، وفي الوقت نفسه يربحون، عجب من ذلك، والرواية كالآتي:

دخل أعرابي السوق، فسمعهم يلحنون، فقال:

«سبحان الله! يلحنون ويربحون، ونحن لا نلحن ولا نربح». [1]

«ويروى مثلها عن عمرو بن العلاء:

«مر أبو عمرو بن العلاء بالبصرة، فإذا أعدال مطروحة، مكتوب عليها «لأبو فلان» فقال أبو عمرو:

(١) عيون الأخبار: ١/ ٨٣٤، ٢/ ١٧٤.

يا رب يلحنون ويرزقون» .[1]

ومثله ما جاء على لسان الأصمعي، وهو صاحب الأخبار الطريفة، سواء منها ما قاله حقيقة، أو ما قيل على لسانه، خاصة ما يتصل بالأعراب، لاختلاطه بهم في البادية، وحرصه على الرواية عنهم، ونقل غريب أخبارهم، مما سهّل على الناحتين نحله بعض الأخبار، اعتماداً على أنها تحمل روحه، وتسير على نمط ما يرويه من غرائب الأخبار، والخبر الآتي قد يكون قاله الأصمعي، وقد لا يكون قاله؛ ولكن الملاحظ فيه قرن استجابة الله للدعاء بصفائه من اللحن، وهو مثل قرن مكسب التاجر رغم لحنه :

«سمع الأصمعي رجلاً عند الملتزم يقول :
يا ذي الجلال والإكرام» .
فقال : من كم تدعو؟
قال : من سبع سنين دأبا، فلم أر الإجابة .

(١) تاريخ بغداد : ١٢/ ١٠٧ .

فقال: إنك تلحن في الدعاء، فأنى يستجاب لك؟

قال: قل: يا ذا الجلال والإكرام.

ففعل، فأجيب». [1]

ولعل هذا جاء عن طريق الموعظة، وسيق حتى يحرص الناس على الأدب مع الله في مخاطبته بلغة لا شية فيها، وعلى هذا فقد تكون القصة قيلت على لسان الأصمعي لهذا السبب؛ لأن المهم في الدعاء ليس الكلمات، ولكن صفاء النية، ونقاء القلب، واتجاه المرء إلى ربه بإخلاص، والعربي والعجمي في مخاطبة الله سواء، واللغات وسائل، والمهم ما يكمن خلف الوسائل. ولكن ما قيل على لسان الأصمعي إذا لم يكن قاله، فهو قياس على مخاطبة الناس، فلو أراد شخص في ذلك الزمن أن يخاطب الخليفة، ويطلب رفده، أو فزعته، أو إنصافه، لاختار من الكلمات أقواها،

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٢٤.

ومن الأسلوب أجمله، بعبارات جذابة، وأسلوب منمق، لا للتأثير فقط، ولكن ليدل بذلك على الاعتناء والاهتمام، وهذا في حدِّ ذاته يدل على الأدب، وحسن الخلق، ومراعاة المقام، والإنسان أولى أن يراعي ذلك مع الله - سبحانه وتعالى - إذا اتجه إليه.

والوليد بن عبدالملك عرف باللحن، ويعزو والده ذلك إلى تدليلهم إياه، وعدم إرسالهم إياه إلى البادية، أسوة بما كان يعمل مع أولاد الخلفاء والكبراء، ولعل لعطف والدته عليه دخل في ذلك.

وقد ظهر اللحن عليه، أكثر من ذي قبل، عندما أصبح خليفة، واللحن يرعب الخليفة، لأنه يقلل من تأثير القول، فإذا لحن الخليفة أخذ الناس يفكرون في اللحن، وانصرفوا عن المعاني، فلم تأتِ الخطبة بما هو مطلوب منها، وما قصدت له. وكان عبدالملك بن مروان عندما لاحظ عليه أحد جلسائه كثرة الشيب، أجابه بأن ذلك:

«من طلوع المنابر، وتوقع اللحن».

أما الوليد فيبدو أن أخطاءه كثيرة، وقد يكون بعضها مزاداً، لأنه إذا ظهر في الخليفة عيب كثر الناحلون عليه، وكثرت القصص المتخيلة.

وهذه إحدى القصص التي تروى عن لحنه، وهي إذا صحت فادحة:

«كان الوليد بن عبدالملك لحّانة، فقرأ في خطبة: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾[1] بالرفع.

فقال أخوه سليمان: «عليك».[2]

وإرسال الأبناء إلى البادية شائع بين كل الطبقات تقريباً، ويبدو أنه ينظر إليه نظرة عالية، لأنه يضمن تقدماً في المجتمع للابن الذي رضع اللغة العربية وآدابها من مصدرها الأصيل، ومن منبعها الصافي، ويحدث أحياناً أن الحرص على هذا المسلك يدخل في نطاق المغالاة، ويأتي للغلام بضرر

(١) سورة الحاقة، الآية: ٢٧.
(٢) ربيع الأبرار: ١/ ٦٣٤.

كبير، قد يُميته، والقصة التالية تشهد على شيء من هذا:

يذكر صاحب معجم الأدباء عن محمد بن أحمد أبو الندى الغُنْدِجاني اللغوي:

«أنه غاب عن أهله مدة، وأقام في البادية سنين عدة، وعاد يروي ويخبر؛ وكان له ابن، فأخذ يطليه بالزيت، ويقفه في شمس القيظ بالغندجان، (بليدة في فارس)، وهي حارة جدّاً، ولم يزل يفعل به ذلك، ليكون أسمر اللون كالعرب، حتى مات ذلك المسكين». [1]

إن الأب كان مولعاً بالاقتراب من الأعراب، والاستفادة منهم، ولم يكفه ما يحصل عليه منهم من شعر ونثر، ولا ما يخرج به من أخبار ومشاهدات، ولا يكفيه أن يأخذ ابنه بشيء من ذلك، وإنما يريد أن يكون أسمر مثلهم، وقد قاده حمقه إلى أن أهلك ولده.

(١) معجم الأدباء: ١٧/ ١٦٤، ترجمة: محمد ابن أحمد الغندجاني.

ومن الخلفاء شديدي النفرة من اللحن، الغيورين على اللغة، وحماية جانبها من الإهمال والضرر، عمر بن عبدالعزيز - رضي الله عنه - فقد أُثر عنه أقوال في هذا تدل على التفات واضح إلى هذا الجانب، وهذا مثل من الأمثلة التي تؤكّد هذا:

«تضجر عمر بن عبدالعزيز من كلام رجل، فقال شرطي علي رأسه: قم فقد «أوذيت» أمير المؤمنين.

فقال عمر: أنت والله أشد أذى بكلامك هذا منه». [1]

والقواد لهم همومهم مع اللحن، خاصة وأن بعضهم لم يكونوا ممن يهتم بجانب اللغة، وهمهم ينصب على سلاحهم وتدريبهم، وهنا قصة حدثت لمسلمة بن عبدالملك مع أحد جنده:

«كان مسلمة بن عبدالملك يعرض الجند، فقال لرجل:

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٢٢.

ما أسمك؟

فقال: عبدَالله (بنصب الدال).

قال: ابن من؟

قال: ابن عبدِ الرحمن، بالجر.

فأمر بضربه، فقال:

بسمُ الله (بضم الميم).

فقال: دعوه، فلو كان تاركا (اللحن) لتركه تحت السياط». [1]

وقد يخطئ الفهيم، ويغيب عنه وجه الصواب، ولا يدري حتى يُنبّه، ويأتي ذلك من شبهة اللحن في لفظ بسبب لفظ يشبهه أو قريب منه. وهذا المأمون من الخلفاء الذين اعتني بثقافتهم العربية، وأرضعوا لبانها من الصغر، واختير لتأديبهم فطاحل العلماء والأدباء والنحاة واللغويين، حتى كان من أبرز أهل زمانه، ولكن غاب عنه أمر في اللغة، اضطر معه أحد جلسائه أن ينبهه إليه، بطريقة لبقة:

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٣٤.

«حدث المأمون عن هشيم يرفعه:

إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سَداد من عوز.

فقال النضر بن شميل: صدق يا أمير المؤمنين هشيم، فإنه حدثنا عوف يرفعه: كان فيها سِداد من عوز.

وكان المأمون متكئاً، فاستوى جالساً، فقال: كيف قلت؟

قلت: السَّداد هنا لحن، وإنما لحن هشيم، وكان لحانة، فتبع أمير المؤمنين لفظه.

قال: أو تعرف العرب ذلك؟

قلت: نعم، هذا العرجي يقول:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسِداد ثغر

فقال: قبّح الله من لا أدب له.

ثم وصلني بخمسين ألفاً». [1]

---

(١) ربيع الأبرار: ١/٦٢٨.

هذه الروح التي أبداها المأمون في حرصه على جرِّ كلمة بدلاً من فتحها، وقبوله للتصحيح، وإثابته عليه ثوابًا جزيلاً، وتعليقه هذا التعليق المنير، هي التي - بعد الله - حفظت للغة منذ تلك الأزمان كرامتها، وصانت عزتها، وأبقت كيانها. ونحن، ونحن نسوق مثل هذه الاستدراكات المضيئة، فإنما نحدد دورنا لا في اللغة، ولكن في الدين والوطنية أيضاً.

حدود اللؤم[1]

اللؤم صفة ممقوتة، وخلق منبوذ؛ يأتي في الدرجة الدنيا من عقد الرذائل؛ لا يتصف به إنسان إلا أصبح كالجمل الأجرب، يحرص الناس على تجنبه، خوف أن يؤذيهم، أو ينقل عدواه إليهم دون أن يعلموا؛ لأن اللؤم قد يأتي مستتراً، كما يأتي ظاهراً، والظاهر سهل تجنبه، وتفادي صاحبه، ولكن المختفي هو المخيف حقاً، لأنه قد لا يتبينه إلا القليل من الناس.

ومن الصعب تعريف اللؤم، لأنه خليط من رذائل ولا يحدده إلا ضرب أمثلة عن اللؤم، عمن اتصف به مما جاء في التراث على ألسنة أناس متعددين، رصدوه وسجلوه فيما سجلوا في صورة أقوال محكمة، أو قصص متقنة. ويكاد يكون كل صاحب رذيلة لئيماً، فالبخيل لئيم، والمغتاب

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٢٣٢) في ٦/ ٣/ ١٤١٥هـ الموافق ١٣/ ٨/ ١٩٩٤م.

لئيم، والمجرم لئيم، والمؤذي لئيم، وقِسْ على هذا كل عمل شرّير، أو فعل سيئ.

وهذه الكلمة عجيبة في مدلولها حتى في اللغة الإنجليزية، وهي طوع يد الشاتم متى أراد أن يطلقها فهي كما تقول العامة «لا تقع على الأرض»، وإنّما تصيب مقتلاً، أو «مجرحاً» أو «مخدشاً»! وعند النطق بها يلتفت الناس إلى من وجهت إليه، وكأنهم قبلوا الحكم فيه، دون تحقق أو تأكّد، لكثرة نقائص الناس، وانطباق هذه الكلمة على كل نقيصة.

والكلمة قد خلط معها شيء من صفة الخبث والمكر والخداع، ولهذا عندما تقال يشعر السامع وكأن الموصوف قد خطط بخبث ومكر للرذيلة التي عيب عليه الاتصاف بها، وأنه لم يقع فيها دونَ أن يدري، أو دُفع إليها مجبراً.

وتضعف هذه الكلمة وتقوى حسب العمل المشين الذين أقدم عليه المُنْتَقَد، إلا أنها عندما تطلق

على أنها صفة دائمة في شخص فإنها تأخذ موقعاً راسياً ثابتاً، فتلون هذه الصفة كل عمل يأتي منه، ولا يقبل منه عمل يظهره متصفاً بغير هذه الصفة، فصاحبها مثل الكذاب، لا يعرف صدقه من كذبه؛ ولهذا فالمأمن منه أن يؤخذ كل كلامه على أنه كذب، ومثله اللئيم، إذا بدا منه عمل ظاهره جميل، تُوُقِّع أن هذا الظاهر ما هو إلا شباك نصب لعمل لئيم يكمن تحته، ويختفي بداخله، ويستتر خلفه.

وسنستعرض بعض الأقوال التي جاءت في التراث عن اللؤم، وما اعتبره الأولون لؤماً، وسوف نجد أموراً محددة في هذا الجانب، تبين نظرتهم إلى اللؤم، وما يتعلق به من الصفات الرديئة، والأخلاق المتدنية.

من المفكرين الحكماء، والساسة البارزين زياد ابن أبيه، وإذا قال قولاً التُفت إلى قوله بعناية واهتمام، وقوله الآتي فيه قوتان جاءتاه من طريق

فكره الصافي، ومن تجربته الناجحة في حكم العراق، وما يقوله هنا هو نبع ذينك الموردين الصافيين:

«قال زياد:

تأْخير جزاء المحسن لؤم، وتعجيل عقوبة المسيء دناءة، والتثبت في العقوبة ربما أدّى إلى السلامة منها، وتأخير الإحسان ربّما أدّى إلى ندم لا يمكن صاحبه أن يتَلافاه». (١)

لولا الخوف من أن يشوِّه تكرار كلمة «اللؤم» قول زياد لأعاد هذه الكلمة وصفًا لتعجيل عقوبة المسيء، لأنها رذيلة يمكن أن توصف باللؤم، ولكنه راعى أسلوب القول المعترف به.

وزياد الحاكم، الجزاء والعقاب أمران يمر به موجبهما كل يوم، بل لعله يمر به عدة مرّات في اليوم، واستقراؤه ذلك، وتبصره فيه، أوحى إليه بهذا الحكم المضيء، ثم أردف ذلك بتعليل قوي

(١) تمام المتون: ٩٤.

متين، ليزيل أي شبهة في أنه يرمي القول على عواهنه، أو أنه يقوله متسرعًا، أو أنّ رأيه فج لم يختمر وينضج؛ فذكر أن التثبت في العقوبة يعطي الفرصة للمتثبت أن يكون حكمه قائمًا على أرض صلبة، لا خطأ في تحديدها وحالها، فينجو من إثمها بأحد أمرين، إما أن يؤدّي به التثبت إلى إسقاط العقوبة، في وقت لم يكن الغضب مسيطراً عليه، ورأَى في وقت متأخر، وذهنه مرتاح، وفي قواه الطبيعية، ما لم يره في وقت أعمى الغضب بصره وبصيرته، وفي وقت أخذته العزة بالإثم، وأعطى الآن اعتباراً لأمور هي مزالق للزلل، ومسارب للخطأ.

أو أدى به التثبت إلى وجوب إنفاذ العقوبة، وحينئذ ينفذها بقلب مطمئن إلى العدل، وفي حدوده، فلا يبقى على صدره ما يثقله بالهم في أمر تمّ، ولم يعد بالإمكان تفاديه. وهذا النوع من الهموم يبقى مع الإنسان ليل نهار، وإن بهت فإنه

عند الممات، وعند حشرجة الصدر، يبرز وكأنه حدث في تلك الساعة، فيزيد سكرات الموت سكرات.

وليس هناك أقوى من تأثير التعليل إذا ألحق بالحكم، إنه يصبح وسيلة الإقناع الأولى التي تؤدي إلى قبول الأمر.

وإذا كان هذا ما قاله زياد، وهو الحكيم في أقواله، فهناك حكماء آخرون قالوا قولاً صائباً في اللؤم، ودخلوا إليه من زاوية أخرى، وإليك أحد هذه الأقوال:

«قالت الحكماء:

أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام.

وقالوا:

المعروف إلى اللئيم أضيع من الرسم على بساط الماء، والخَطِّ على بسط الهواء». (١)

اللؤم هنا في إنكار المعروف، ومسدي المعروف

(١) تمام المتون: ٣٧٨.

كريم، والمُقِرُّ به كريم، أما منكره فلئيم، لأنه لم يرتق إلى الدرجة التي دعي أن يقف عليها وإنما اختار أن يكون في الحَضيض، والمعروف بذل وإعطاء، وثمنه الاعتراف به وشكره، وما أرخصه بجانب المعاناة في البذل، وعدم الأثرة عند من يجهد نفسه ليقوم بالواجب، ويُفضل الآخرين على النفس، هنا يَبرز العجز عن تصور تدني رذيلة اللؤم، لنتصور رجلاً مدّ يده إلى آخر في وقت عسرة، وبدلاً من شكره راح يقلل من عمل مسدي المعروف، بأن ادّعى بأن له هدفاً آخر غير مرئي، وهو المنّة والتطاول، وحتى يقول الناس إنه أعطى، وأنه كريم، وأنه صاحب نجدة، ثم يُغرق اللئيم في اللؤم، فيقول: أنا صاحب المعروف عليه، لأني قبلت ما امتدت به يده إليّ، فأعطيته الفرصة لأن يَفخر، وأن يُمدح، فأنا مادة مدحه، وأنا سبب فخره، فأنا صاحب الفضل، ومُسدي المعروف، وأنا أحق بأن يشكرني، فلولاي، ولولا

تنازلي وقبولي ما أعطاني لم يجد أرضاً يقف عليها فخره.

لهذا جاءت الجملة في نهاية النص، راسمة صورة معبرة لما عليه ناكر المعروف من الخواء، فمثل زرع المعروف في الحقل المجدب، بمن يرسم على وجه الماء، وهل هناك أضيع منه إلا من يخط بقلمه على بساط الريح.

من هذين الموقفين المتضادين تأتي العداوة، والذي بدأها، وزرع بذرتها، وسقى نبتها هو ناكر المعروف، لأن في نفسه صفة تجعله لا يقبل الخير، بل أعطته هذه الصفة مقدرة على قلب الخير إلى شر، والطيب إلى سيء، والجميل إلى قبيح، فهو قادر على تحوير النور إلى ظلمة، بإطفاء شمعات الضوء، وقادر على تشويه الجميل، أو تغيير معالمه أو محوها أو طمسها.

وعدي بن حاتم ممن يأتون بالقول الرصين، والفكر المنير، وأقواله الحكيمة يتلقفها معاصروه

فيتأدبون بها، ويختارها الأدباء والمفكرون فيدونونها، وينشُرونها بين الناس، وتصل إلينا مضيئة صادقة.

ولعدي قول في اللئام رسمه في صورة معبّرة، وقد جاء بقوله عنهم من زاوية اختارها عن تجربة، وهو بهذا الاختيار يؤكد ما قلناه من أن اللؤم خَدِين كل رذيلة، وملتصق بكل عمل سيّء، فهو يتلوَّن بهذه الألوان التي تظهر بها هذه الرذائل.

وقد اختار عدي بن حاتم رذيلة الغيبة، ويا لها من رذيلة، واللؤم فيها مسيطر عليها، وعلى القائم بها، ومجلل لها بجلال عفن، وهي الرذيلة التي تعد من أسوأ أدواء المجتمعات، ولا يكاد يخلو مجتمع من تعكيرها صفوهُ، لما في طبيعة الناس من انجذاب إليها، سواء كانوا مغتابين، أو مستعمين للمغتاب:

قال عدي بن حاتم:

«الغيبة مرعى اللئام».[1]

(١) بهجة المجالس: ١/ ٣٩٨.

ما أدق هذه الصورة التي اختار عدي أن يرسمها بفرشة الاستعارة هذه. إنه رسم الغيبة مرعى فيه العشب المطلوب للغذاء، والماء المنعش، المطفئ للظمأ؛ فالدابة إذا دخلته كيف تستطيع مقاومة البقاء فيه، إنها لا تقاوم، بل تستسلم وتبقى ترعى وترعى وتشرب وتستريح فيه؛ لنتصور أن الحقل أعراض الناس، والبهيمة الراعية هي اللئيم. أن اللؤماء يجدون في الغيبة مرعاهم، وفيه تروج بضاعتهم.

رعى رجل في عرض محمد بن سيرين، وتمتع وقتاً باغتيابه، واستيقظ ضميره، أو خشي أن يصل ابن سيرين الخبر، فَسَارع يطلب عفوه، فماذا قال له ابن سيرين؟ لقد أجابه جواباً يُنتظر مثله من مثل ابن سيرين: عالمٍ، قاضٍ، واعظٍ:

«قال رجل لابن سيرين: إني وقعت فيك، فاجعلني في حلّ.

قال: لا أحب أن أحل لك ما حرّم الله عليك». [1]

(١) بهجة المجالس: ١/ ٣٩٨.

إنه جواب عالمٍ، وحكم قاضٍ، ورأي فقيهٍ، وردٌّ ذكيٍّ، وما للئيم المغتاب إلا مثل هذا الجواب، من مثل هذا العالم المرموق.

واللؤم له مظهر آخر، لَحَظَهُ من لَحَظَهُ فسجله، وأدخله في القائمة التي من اتّصف بما فيها عدّ لئيمًا، وقد قال عن ذلك بعض الحكماء ما يأتي:

«ما استبّ رجلان إلا غلب ألأمهما».[1]

لأن السباب في حد ذاته منتقد، ولا يدل على قوة عقل، أو حسن أدب، فالمتوقع أن الإنسان الذي يرعى سمعته، ويحافظ على اسمه، يتجنب الدخول في المهاترة، مهما كان سببها، وأن يكون في موقف من يتغاضى، ويسامح السفيه، أما أن يحاربه فهذا يجعله في كفة واحدة معه، وما دام العمل هذا منتقداً، فإن من يجيد فيه، ويغلب غريمه، فإنه يكون أسوأ الاثنين، وينصرف إليه اللؤم، أكثر من الآخر.

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٤١٨.

وأصحاب السباب لا يكتفون بالحقائق وذكرها، ومقارعة الحجة بحجة حقيقة صافية، ولكنهم في مرحلة من مراحل السباب ينفد ما عندهم، فيعمدون إلى الاختلاق، فيكثرون منه، وإلى الافتعال فيقدمونه ويرجحونه، ويدخلون في حدود المهاترة والبهتان، والكذب والافتراء.

هذه الصورة التي جعلت أحد الحكماء يصدر حكمه بأن الغالب في السباب هو اللئيم، لأنه يكون قد جاء بأمور غير حقيقية، ورَجَح على صاحبه في هذا الجانب، وأسكته، فغلبه باللؤم.

وهناك قول آخر يعضد هذا القول، ويرمي إلى ما يرمي إليه:

«كان يقال: الغالب في الشر مغلوب». (١)

ولأن المنافسة هي في الشّر، فإن من يوفِّ الشر حقّه، ويزيد من إتقانه له، يكون حظّه من الشر أوفى؛ وخاب وغُلِبَ من كان أوفى الناس في الشر.

(١) بهجة المجالس: ١/ ٤١٨.

ونستطيع أن نتصور منافسة بين خيرّ وشرير، فإنه وإن كان يعز علينا أن يغلب الشرير، ونتألم عند ذلك، ولكن هذا الرجحان زائف، لأنه أنقص ما في كفة الخير، وزاد في كفة الشر، وبئس المجتمع الذي يرضى بهذا، ولا يأخذ على يد الشرير، والصورة التي تبقى في الأذهان عن هذا القول أن واحداً من المتواقفين أخذ الشر، وذهب به، والآخر أخذ الخير وذهب به، فالظافر اعتباطاً معروف، والمنتصر الحقيق واضح.

ويكفي الشرير أن يعرف أنه لم يحصل إلا على الشر، فإن أدرك فيما بعد الأمر فإن الشّر سوف يبقى عباً ثقيلاً على ضميره، وإن لم يدرك فلا بد أنه خسر مجتمعه إذا كان مجتمعاً سوياً. أما إذا لم يكن كذلك فهو ومجتمع الحقود واحد.

ـ[1] الأعمال، التي يأتي ضمنها اللؤم، أو تتصف به كله، كثيرة، ولكننا نكتفي بما ذكر في النص

(١) من هنا يبدأ الجزء الذي لم يكن ضمن ما نشر في «عكاظ».

على أنه لؤم، قولاً كان ذلك أو فعلاً، حتى نعطي الصورة الحقيقة عن نظرة تلك المجتمعات إلى اللؤم وأقسامه.

ولعل اللؤم لم ينفع صاحبه في يوم من الأيام مثلما نفعه في موقف مع الحجاج، وكان الإقرار باللؤم، والاعتراف بالاتصاف به، نجاة له، وعتقًا لرقبته. وهذا يؤكد صدق المثل الإنجليزي في بعض الأحيان: «كل غمامة سوداء فيها بطانة بيضاء»، والقصة تروى هكذا:

«قال عيسى بن عمر: رمي الحجاج فقال: انظروا من هذا؟

فأومأ رجل بيده ليرمي، فأخذ فأدخل عليه، وقد ذهبت روحه.

قال عيسى بصوت ضعيف يحكي الحجاج: أنت الرامينا منذ الليلة؟

قال: نعم أيها الأمير.

قال: ما حملك على ذلك؟

قال: الغَيُّ والله واللؤم.

قال: خلوا عنه. وكان إذا صُدق انكسر». [1]

هذا رجل اعتدى على الحجاج، واعترف أنّ عمله غي ولؤم، وليس بعد إقراره مزيد من صحة الحكم، فهو أعرف بنفسه، ولا يبدو أن هناك تعليلاً أصدق من هذا، والصدق من الأمور التي تعجب الحجاج، إلى الحد الذي أسقط معه الحجاج العقوبة، رغم فداحة الجرم.

والصدق خير من يقدره الحاكم، والصدق مصدر ثقة، ومحط اعتماد، ومظهر شجاعة متناهٍ، وهذه أمور لها مكانة في نفس كل حاكم، وتظهر قيمتها إذا قورنت بضدها، وضد الصدق الكذب، وهو خصلة لا تصاحبها الثقة، ولا يسير معها الاعتماد الناجح، والكذاب جبان يهرب من الحقيقة، وهو خفاش يؤذيه النور، وتعميه أشعة الصدق.

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ١٨٠.

وقد رأينا من قبل ما قيل عن الغيبة وأنها طلاء آخر للؤم، وللأعراب في صحرائهم قول يماشي هذا الرأي، والمنكب فيه يحاذي المنكب:

«قيل لأعرابي: «فلان يعيبك».

قال: ذاك المائل عن المجد رجلاً، المطلّي باللؤم وجهاً، ولكن قد ينبح القَمَرَ الكلبُ». (١)

وللأمثال نصيب من رسم صورة اللئيم، تأتي عن طريق تعريفه، وتحديد صفاته، وصاحب المثل حدد اللئيم بسلاسل تجعله لا يخرج عن الحيز الذي خطه له، وأحكم حلقته عليه، وطلاها بالطلاء اللائق به، والمثل تجري الفاظه ومعانيه هكذا:

«اللئيم إذا ارتفع جفا أقاربه، وأنكر معارفه، واستخف بالأشراف، وتكبّر على ذوي الفضل». (٢)

هذا حال اللئيم إذا ارتفع، وتغيّر حاله أتى من أن الخلق الحسن عنده لم يكن أصيلاً، وما كان يظهره

---

(١) البصائر: ٣/ ٨١٠.

(٢) المخلاة: ١٧٨.

لمعارفه عندما كان في مرتبة متدنية في معيشته، وما كان يظهره أثناءها، من احترام للأشراف، وما كان بيديه من تواضع وخضوع لذوي الفضل، لم يكن إلا قشرة رقيقة تغطي اللؤم المتأصل فيه، والذي ظهر واضحاً عند ما حُكَّ وكُشِط كشطا رحيماً!

واللئيم عندما يظهر في حالة غير ما يأتي منه عندما تتغير هذه الحال ينطلق من مركب نقص داخله يخفيه، ويعاني منه، لا يفتأ أن يسعى بإكماله عندما تتاح له الفرصة، ومركب النقص شعبة من شعب الجبن، لأن المرء يظهر منه غير ما يخفي، لأنه لو كان شجاعاً لأظهر ما بداخله على السطح دون مبالاة، فإن كان سيئًا سوءاً متناهياً سعى إلى علاجه، واستعان أقاربه وإخوانه على التخلص منه، فيكمل منه ما نقص بطريقة شريفة، وسعي نبيل.

هذه صورة للئيم، وهناك صورة للكريم الذي يثبت على حال واحدة في التعامل مع إخوانه، ومن لهم فضل عليه وقت رخائهم، فلا يغير موقفه

معهم وقت شدتهم، وانحسار ماء الغِنى عنهم في يوم من الأيام، لأنه يؤمن بالمثل الذي يقال على لسان الحسين:

«كفر النعمة لؤم». [1]

وقد جاءت صورة هذا الوفاء في بيت شعر وافٍ، يقول الشاعر:

أأترك، إن قَلَّتْ دراهم خالد
زيـــارتَـــه، إني إذاً للئيـــم»[2]

ويحذر الناس اللئيم، ويدعون الله أن لا يحوجهم إليه في عسرة، ويقرنون هذا الدعاء بالوقاية من عذاب جهنم، فالشاعر في الأبيات الآتية يقرن هذين الدعاءين، ليوازن حمايته من الحاجة للئيم بوقايته من عذاب جهنم:

«ربِّ أنعمت في الكثير من العمـ
ـر ونجيتني من الأشـــرار

(١) المخـلاة: ١٧٨، ١٧٩.
(٢) المخـلاة: ٢٨٣.

فاعفني اليوم من سؤال لئيم
وقِني في غدٍ عذاب النار»[1]

ويأتي تحذير من مصاحبة اللئيم، ومع هذا التحذير القوي تعليل يدعم هذا التحذير، فيساعد على قبول هذا النصح، وقد أتى هذا من شاعر صاغه في بيته الآتي:

«لا تصاحب من الأنام لئيمًا
ربما أفسد الطباعَ لئيمُ»[2]

فالطبع في الإنسان متأصل، وسمي طبعاً لانطباعه في داخل الإنسان، وهو يكاد يكون بقوة الغريزة في ثبوته وتمكنه، ولهذا قال الشاعر في البيت السابق مغالياً عن تأثير اللؤم أنه «ربما» أفسد الطبع، رغم قوته وتمكنه.

ويبلغ الهجو منتهاه عندما يهاجم المنذر بن صخر الأسدي خصومه، ويصفهم باللؤم، ويضع

(١) المخلاة: ٣١١.
(٢) المخلاة: ٣١٧.

ذلك في صورة مبتكرة، تلفت النظر، وتسهل رواية الشعر، وانتقاله وانتشاره، لأن في الرسم إبداعاً، وفي القول مبالغة:

إذا المجلس العبدي يومًا تقابلوا
رَأَى كلهم وجهاً لئيمًا يقابله
وإن سِيْلَ أي الناس ألأم والداً
أشار إلى العبدي مَنْ أنت سائله»[1]

ويبدو أن إلصاق اللؤم وحده كافٍ لذعر من وصف به، ويزيد هذا الذعر درجات إذا جاء ذلك شعراً، كما في البيتين الآتيين، وهما لمالك بن أحمد بن سوار الطائي:

ترى اللؤم في العجلان يومًا وليلة
وفي دار مروان ثوى آخر الدهر
ولما أتى مروان ألقى رِحاله
وقال: رضينا بالمقام إلى الحشر[2]

(١) ربيع الأبرار: ٣/ ٧١٥.
(٢) ربيع الأبرار: ٣/ ٧١٥.

هذه الصورة التي رسمها الشاعر للؤم، وجعله يتصرف تصرف الإنسان، فيختار دار المهجو مروان، ثم يختار البقاء فيها، لأنها تلائمه، ترعب المهجو، وتخيفه، لأنها تحمل عنصر الجاذبية في سماعها وحفظها وترادها، والتمثل بها.

ويأتي قول آخر عن اللئيم، والتعامل معه، ومحاولة أخذ شيء منه، قبل أن يدركه لؤمه فلا يستجيب، أو يجد المفرَّ فيهرب بحجة يهيؤها، أو عذر يؤلفه، لأن هذا طبعه، وهذه طريقته في السير مع طبعه، وعدم إفادة الناس مما عنده، والقول جاء في «ربيع الأبرار».

«إذا سألت لئيماً فغافصه (فاجئه)، ولا تدعه يفكر، فإنه كلما تفكر ازداد بعداً».[1]

لا بد من ختلهِ كما تختل الأرنب، أو كما تلقي القبض على سارق، أو تقتل حية؛ لأنك كلما أعطيته فرصة للتدبر، والتفكير في الاستجابة، فإن

(١) ربيع الأبرار: ٣/٧١٨.

اللؤم المتمكن منه لا يَدُلُّه إلا على طرق الرفض، يتفنن فيها، وهو فيها خبير، لكثرة ما استفاد منها، وأقدم عليها، حتى أصبحت عادة من عاداته المتمكنة، وجانبًا من طبيعته المتأصلة.

وفي البيتين الآتيين صورة لها صلة باللئيم:

جمعتُ صنوفَ المال من كل وجهة
وما نِلتُها إلا بكف كريم
وإني أرجّى أن أموت وتنقضي
حياتي وما عندي يد للئيم[1]

هذا الشاعر يقر بالمعروف لمن أسدى إليه معروفاً، بل إنه يذكر أن هذا المال ليس صنفاً واحداً، ولكنه أصناف متعددة، جاءته من طرق مختلفة، ولكن اليد التي مدتها يد كريم، فهو يفخر بهذا، وإن المنة التي ملكته، والمعروف الذي طوّق عنقه هو لكريم، يعتز بما ناله منه؛ ثم يردف البيت الأول ببيت ثان يتجه فيه إلى الله مؤملاً أن

(١) ربيع الأبرار: ٣/ ٧١٨.

يموت وليس للئيم عنده يد، وأن الزمن لم يحوجه إليه، ولم ترغمه أسباب الحياة إلى الاضطرار إلى مد يده إليه.

ويحدد أحد المتبصرين الحدود بين الكرم واللؤم، وثواب هذا، وعقاب هذا، في قول مختصر مفيد، قال زيد بن أسلم:

«يا ابن آدم أمرك الله أن تكون كريماً وتدخل الجنة، ونهاك أن تكون لئيماً وتدخل النار».[1]

لقد اقتصر على ما لكل من الكريم واللئيم عند الله في الآخرة، أما ما للإثنين في الدنيا فالتوفيق للمحسن، وحجب التوفيق لمن حجب إحسانه، ولم يعط مما أعطاه الله، سواء كان ذلك مالاً أو خلقاً.

وكنا قد حفظنا ونحن صغار بعض الأبيات التي تتصل بحسن الخلق، والتي تحث على الفضائل، والابتعاد عن الرذائل والتي اخترت اختيارًا

(١) المخلاة: ٧٨.

دقيقًا، وكانت تُعطَى لنا في المطالعة، أو في كتب المحفوظات. وكنا نحفظها، ولم نكن نقدرها حق قدرها، ولم تكن عقولنا قد نضجت النضج الكافي، فتقرن ما فيها من أقوال إلى ما في الحياة من أفعال، وإن شرح لنا هذا، وبُيِّن، فإنه لا يتعمق في إدراكنا، ونعجب اليوم من هذه المحفوظات، ونبل مراميها، وشريف القصد منها:

ومن هذه الأبيات بيت حول الكرم واللؤم، يعبر عنهما خير تعبير، وهو حكمة لا يستغني عنها المتمثل فيما يصادفه في هذه الحياة:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا»[1]

وينسب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قوله:

«الناس على أربعة أقسام: كريم وسخي، وبخيل ولئيم؛ فالكريم هو الذي لا يأكل ويعطي،

(١) المخلاة: ١٢٣.

والسخي هو الذي يأكل ويعطي، والبخيل هو الذي يأكل ولا يعطي، واللئيم هو الذي لا يأكل ولا يعطي». [1]

والذي يهمنا هو اللئيم، والذي تبين من المقارنة في هذا القول أنه لا يفيد أحداً، ولا يفيد حتى نفسه، وهذا مأتى رجحان هذه الرذيلة على البخيل وغيره من العيوب.

هذه بعض الأقوال عن اللؤم واللئيم وردت في كتب الأدب والفكر، وهي تمثل رأي السابقين في رذيلةٍ من أبشع الرذائل، تتبعوها في مجتمعهم، ودرسوها، وأصدروا أحكامهم نحوها، وحذروا منها، وصوروها بصورها المزرية، ليبتعد الناس عنها، ولينفروا منها، وهذا فعلهم دائماً مع الرذائل، أملاً في أن يصفو مجتمعهم منها، فتصبح صفحته ناصعة.

وما قالوه في ذلك الزمن في ذلك المجتمع ينطبق

---

(١) المخلاة: ١٧٧.

على زمننا ومجتمعنا، فالخُلق بالأمس هو الخلق اليوم، خاصة إذا كان إطاره من الإسلام وهديه. وقد تكون مجالات التطبيق في زمننا أوسع، وعددها أكثر، لتشعب الحياة اليوم إلى شعب لم تكن بالأمس، نتيجة التقدم في المجالات المختلفة.

وهم حريصون في ذلك الزمن على جعل أي رذيلة هدفاً، يهاجمونه بصور مختلفة، ويسددون إليه أسهم القول، ونشاب الأمثال، وينصبون أقواس الشِّعر، ويسلون سيوف الحكمة، فيحاصرون الرذيلة من كل جانب، فلا يدعون لها ولصاحبها المتلبس بها فرصة الازدهار أو الانتشار.

وهذه خطة اتخذوها، وسياسة اتبعوها، نحن حقيقون أن نتبعهم فيها، ونحذو حذوهم، ونمشي في أثرهم، لأن ما ابتدعوه وطبقوه مجرب مضمون، بلوره مرور الوقت، وحسنته المدة، وتكرار الزمن.

والتراث مَنَاجِمُ ملأى بالمعادن الثمينة، والمدخرات الغالية النافعة، وما علينا إلا أن نتعود على الالتفات

إلى الوراء لنعرف كم تركنا خلفنا مما يصلح لزمننا، ويفيدنا في سيرنا، فالماضي هو الأساس الذي عليه مرتكزنا، وكل أمة تبعد عن تراثها مثل الشجرة التي فصلت منها جذورها، قد تبقى واقفة زمناً، ولكنها بدون ورق وثمر، تلعب بها الرياح، وعوامل الزمن، ولا تبقى طويلاً قبل أن ينخر فيها السوس فتهوي بها الريح.

الإشعاع الخفي[1]

العقل والغريزة أمران يتنازعان منفعة الإنسان والحيوان، فالعقل أحياناً يبرز حين تغيب الغريزة، والغريزة أحياناً تسبق لطبيعتها، ولما خلقها الله عليه من ملازمة من هيئت له. ولا غنى عنهما للإنسان، وبقدر قوتهما عنده تقوى استفادته منهما، وبقدر ما يستفيد يسعد.

والعقل يمتاز عن الغريزة في أن الإنسان يستطيع تطويره، وتقويته، في أي اتجاه يختار، وبالقدر الذي يريد، وكلما زاد في القوة، وتوسع في النضج من زيادة المعلومات والتدريب، زادت قابليته للتطور والتحسن. والمهم في أمره أن يكون هناك خميرة يبدأ بها، وأساس يبنى عليه.

والغريزة والعقل ونفعهما له حدود عند جمهرة الناس، ومستوى يعتبران عنده في حدود العقل

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٢٣٩) في ١٣/ ٣/ ١٤١٥هـ الموافق ٢٠/ ٨/ ١٩٩٤م.

والمتعارف عليه، وتساندهما في رفع الإنسان وانتفاعه منهما لا يلحظ كثيراً لتساوي الناس فيه، ولكن عندما يتميز الإنسان فيهما، خاصة في العقل الذي بيد الإنسان أن يطوره، فإن هذا يلاحظ، ويبارك، وتبقى العين إليه ناظرة، وتستمر إليه متابعة، وبما يأتي من صاحبه معجبة؛ ومن أبرز الأمور في هذا المجال وجود الفراسة عند الإنسان وقوتها؛ فهذه لا تتوافر إلا عند أناس قليلين، وفئة محدودة من البشر، تأتي مبثوثة في المجتمعات، يلمع نجمها، ويشع ضياؤها، ويعتلى لها بناء يراه الراؤون، ويعلو لها صيت ينشره المعجبون، وتكثر عنها القصص يدونها الكتاب والرواة.

ومن أبرز من عُرفوا بالفراسة، واشتهروا فيها بما يدهش ويعجب، إياس بن معاوية، القاضي المعروف، ذائع الصيت، في هذا، وفي القضاء، الذي يعتمد في كثير من جوانبه على الفراسة بجانب

الفقه، وعلوم الدين. وأهمية الفراسة تأتي من أن كثيراً من المتقاضين يحاولون تضليل القاضي عن الحقيقة، ويأتون بأقوال كاذبة متقنة، ويتكلفون مظاهر يلبسونها ليست من طبعهم؛ فتعمُّد البله، والبكاء، وتزوير التعابير، وترقيق نغمة النطق أو تخشينه، حسب مقتضى الحال، والتظاهر بطريقة أو أخرى، كلها أمور يُعرَّض لها القاضي؛ وسلاحه في مقاومتها هي الفراسة، يحقق ما هو حق وحادث، وينفي ما هو مفتعل ومضلل.[1]

وباب الفراسة باب واسع لا أريد أن أطرقه هنا إلا بمقدار ما له من حق في أن يعد من مستلزمات الحديث عن العقل وتميزه؛ لأن التعرض له يدخل في حقل واسع، يكاد لا يرى طرفه، ولا يلحق مداه. وسوف تكون عنايتنا هنا ببعض الدلائل التي تنم عما قد يكون خفي عن النظرة العادية، فجاءت الدلالة من وسيلة أخرى.

(١) قال قاضي القضاة إسماعيل بن اسحاق في بغداد: «من لم تكن له فراسة لم يكن له أن يلي القضاء»، النباهي: ٢، ٣٥.

فمثلاً العين قد تلمح في العين الأخرى ما يدلها على أن من أمامها محب وصديق، أو كاره وعدو، فقد لا يكون في مظهره وتصرفه وتعبيرات وجهه ما يدل على أنه هذا أو ذاك؛ إلا أن أشعاعاً خفياً ينطلق من العين إلى العين بالرسالة الصادقة، ويكشف عن الحقيقة المختبئة، وتكون العين هي مفتاح السر الخفي، وهي تغلغلت إلى الأعماق عن هذا الطريق.

وهناك بيت شعر يعبر بإتقان عن هذا الأمر، حيث يقول الشاعر، ويقال إنه للإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -.

والعين تعلم في عيني محدثها
إن كان من حزبها أو من أعاديها[1]

والعين قد تنيب عنها القلب، أو قد تطل من نافذته، فتخترق السجف الغليظة، وتفتح الحصون المنيعة، المحصنة بوسائل التصنع المتقنة، فتعرف ما

(١) سرح العيون: ٢١٦.

لها وما عليها، وهل من أمامها عدو أو صديق، نافع أو مضر، فالقلب «له على القلب دليل حين يلقاه».

وقد نسب إلى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب قوله:

«اتقوا من تبغضه قلوبكم».[1]

ويبدو أن العين هي النافذة التي بها يطل إلى ما بداخل الناس، لأن ما بداخل الناس أيضاً يتخذ العين نافذة يطل منها على حين غفلة من صاحبها، فيبدي المكنون، ويفضح المخبأ؛ فصاحبها إذا «سها» أو «سرح» أو أخذه تفكير عميق، فعينه تستقر في الغالب على الجالس في المجلس المفكر فيه، فهذه النظرة مع ما قد يصحبها من تعبير على الوجه، وضغط على الشفاه، قد يكشف كثيراً مما هو مخبأ.

وهناك موقف يقرب من هذا رواه ابن قتيبة:

---

(١) الإعجاز والإيجاز: ٢٣.

«قال بعضهم: ما رأيت زياداً كاسراً عينيه، واضعاً إحدى رجليه على الأخرى، يخاطب رجلاً، إلا رحمت المخاطب». [1]

هنا نمّت عين زياد عما يضمره من شّر للرجل الذي أوقفه أمامه يحاسبه، وسيطر عليه ما بداخله، فلم تفضحه عينه، وهي البادئة بذلك، وإنما دخل في الطور الثاني للغضب، وعلامته، كما لاحظ الراوي، أن يضع زيادٌ إحدى رجليه على الأخرى.

كم من الناس الذين يحضرون مجلس زياد، لاحظوا ما لاحظه الراوي؛ إن هذا استقرأ وحكم عقله، وتدبّر ما جاء من زياد من هذه العلامات في عدد من المرات، حتى حكم عليه بهذه اللازمة التي ثبت له أنها من لوازمه عند الغضب، ولهذا كان يرحم من يراه في هذا الموقف.

ورابعة العدوية من النساء الزاهدات العابدات،

(١) عيون الأخبار: ٢/ ١٨٧.

وأَحْرِ بمثلها أن تكون ممن يتدبرن ويتبصرن، قياساً على ما يأتي منهن في ذلك في أمور العبادة، لأنها لم تعشق العبادة إلا بعد تفكير عميق، وتدبر دقيق، وتبصر فائق، كل هذا أوصلها إلى الإنقطاع إلى الله، وعبادته.

لهذا عندما أكثر من يزورها من الزهاد والفقهاء ذم الدنيا عندها، فكرت في حالهم، وتدبرت ما يقولون، فاهتدت إلى حقيقة لا تخطر إلا على بال مفكر مدقق، ولعلها فاجأتهم برأيها، وهو رأي يحمل في طياته موعظة، ولا يخلو من تأنيب:

«تذاكر قوم من الزهاد عند رابعة العدوية، فجعلوا يذمون الدنيا، ويكثرون من ذلك؛ فقالت رابعة: من أحب شيئاً أكثر من ذكره». [1]

إنه لا يغوص على مثل هذه الدرر إلا سبّاح

(١) سَراج الملوك: ٢٧١، البيان والتبيين: ٤/٤٦، وربيع الأبرار: ٥٥١، زاد على النص: «إما بحمد وإما بذم، فإن كانت الدنيا في قلوبكم لا شيء، فلم تذكرون لا شيء؟».

ماهر، وعالم نفس متمكّن، ولو تتبع الإنسان هذه القاعدة التي أطلقتها رابعة لوجدها صحيحة، ولوجد أنها تمر به كثيراً دون أن يلتفت لها؛ أما وقد نبهت إليها، وجلتها، فلم تعد تخفى على أحد، وما على أحدنا إلا أن يتخذها تمريناً له، يراقب على أساسه جلساءه، وسيجد أن الفقير منهم يذم الغِني، وأن صاحب وظيفة متدنية يذم وظيفة عالية، ويقسم أنها بما فيها من متاعب، لو عرضت عليه في صينية من ذهب لأنف منها، أنفة الثعلب الذي عجز عن أن يصل إلى عنقود العنب الناضج، تركه أنفة لأنه، كما ادعى، حصرم حامض!

وهنا من لا يستطيع شراء سيارة من نوع معين، لأن ثمنها غالٍ، أو لأن أهله لا يريدونها، وإذا كان شاباً تُشتَرَى له السيارة، فقد يكون والده يعتبرها مصدر خطر؛ هؤلاء سوف يقدحون في هذه السيارات، ويكون الانتقاد هو تسليتهم،

فقل إذا سمعتَهم قول رابعة: «من أحبّ شيئًا أكثر من ذكره»، ولو بالقدح.

وإلقاء هذه النظرة على الجانب النفسي إهتدى إليه أحد علماء الخلفاء العباسيين، وهو الخليفة المأمون، وتسير ملاحظته مع قطار رابعة على قضيب واحد، ولا يختلف ما قاله عما قالته إلا في المثل، فهي استقته من نبع صاف، وهو استقاه من نبع آخر، وهي تتبّعت هدف قوم في حديثهم، وهو تتبع هدف قوم في حديث آخر، والمنهج واحد، والنتيجة واحدة:

قال المأمون:

«إنما يتكثّر بالذهب والفضة من يقلان عنده».[1]

وقد أثرت هذه الكلمة في عبدالملك بن نواح، الملقب بأبي الفواس، فكان «لا يلبس إلا الثياب البيض، ولا يستعمل مراكب الذهب والفضة»،[2] رُعْبًا من أن تصدق عليه ملاحظة الخليفة المأمون،

(١) آداب الملوك: ٢٠٧.

(٢) اداب الملوك: ٢٠٧.

فصبر عن المظاهر رغم مركزه السلطاني، وبعد التهمة عنه.

هذا الإشعاع الخفي الذي ينبعث من المرئي أو المسموع، ولا يراه الذين ليس لديهم الجهاز الكاشف لهذا الإشعاع وقت انطلاقه من مستقره، إلى عين بعض الرائين أو السامعين المتميزين بميزة الكشف، لم يخطئ معن بن زائدة عندما كشف لأحد جلسائه مقدرته على معرفة عقل الرجل دون أن يسمع كلامه، أو يرى وجهه:

«قال معن بن زائدة: ما رأيت قفا رجل قط إلا عرفت عقله، فقال له الفضيل بن شهاب: فإن رأيت وجهه؟ قال: فذلك حينئذ كتاب أقرؤه».[1]

لا بد أن معن بن زائدة، بعد استقراء ملحف، ومتابعة ملحة، ومقارنة ضافية، وملاحظة دقيقة خرج بقاعدة تأكد من تطبيقها باطمئنان دون خوف الزلل، أو مظنة الخطأ. وليس كل إنسان يستطيع

(١) بهجة المجالس: ١/ ٤٢٢.

إطلاق الشعاع الخفي إلا إذا كان عنده جهاز الإطلاق القادر على ذلك.

ويبدو أن أناساً عرفوا سرّ هذا الفن، ووضعوا لأنفسهم قواعد، منطلقة من الفراسة وقواعدها، والقيافة وأصولها:

«قال بعض بني أسد - والقيافة فيهم -: لا يخطئ الرجل من أبيه خلة من ثلاث: رأسه أو صوته أو مشيته».[1]

وإذا كان الأسدي كشف لنا عن مسقط الإشعاع الذي اختاره، ولا بد أنه قد جربه كثيراً، فهو يبحث عن بغيته في أحد الأماكن التي ذكرها، فإن لم يجدها في أحدها بحث في المكان الثاني أو الثالث. ولكن المَرّي في زماننا لم يكشف لنا عن مسقط الإشعاع عنده، وعند أفراد قبيلته، في قصّ الأثر، وأحياناً لا يكتفون بمعرفة الشخص من هو، وهل هو رجل أم امرأة، ثيّب أو بكر، والرجل أبيض أو

(١) عيون الأخبار: ٤/ ١١٩.

أسود، وإنما يخبرون عن طباعهِ، وما قد يكون لديه من علامات مميزة. وأمر المَرّية محيرٌ، لأنهم لا يفشون سرهم، ولا يبوحون بعلمهم، ولا يطلعون أحداً على القواعد التي يبدو أن الصغير والكبير منهم يعرفها، إما بالتعليم، أو بالتدريب والمشاهدة، ويتقنها بالتجربة، ومع الزمن.

هذه نماذج لنوع من الإشعاع الخفي الذي يمتاز به بعض الناس، لأن الله - سبحانه وتعالى - وهبهم أداته، فتمتعوا بهذه الميزة، وقد يعم - كما رأينا - نفعها مجتمعهم، وتكون أمراً رئيساً فيه، مما يجعل لهؤلاء قيمة كبرى، ويجعلهم لا يعوضون، ووجودهم ملء السمع والبصر لمن حولهم، ويستفيد منهم المجتمع، وفقدهم يحس به، ويعتبر خسارة قد لا تعوض.

ـ[1] ولا يتصور أن يكون هناك إشعاع أقوى من الإشعاع الذي تعرف به الأم طبائع إبنها جيداً،

(١) من هنا يبدأ الجزء الذي لم يكن ضمن ما طبع في صحيفة «عكاظ».

ويزيده ثباتاً، ودقة كثرة تكراره، واختلافه من مرحلة إلى مرحلة، ومن سنٍّ إلى سنٍّ، والعلاقة بين الأب والأم وأبنائهما علاقة ذات تميز في قوة الصلة، وفي رفع الحجب بين الوالدين والأبناء، حتى إن بعض الجوانب الروحية، وما يقال له في الغرب، «التلبثي» وهو أقرب إلى توارد الخواطر لا يظهر واضحاً، ومتكرراً مثلما يحصل ذلك في حالة الأبوين.

ولعله يوماً من الأيام يكتشف السر، فتوضع القواعد لما يشاهد من الاتصال الذي يتم بين أحد الوالدين وابنه وابنته عن طريق إشعاع خفي، ويصبح الاتصال منتظماً، ويتم وقت ما يشاء أحد الجانبين، ومن يعلم فقد يغني عن الهاتف والرنان «البيجر»!!

وللأوقص المخزومي، قاضي مكة، قصة تحكي قصة إشعاع كشف عن أمر، جعل أمه تتدارك أمراً لو أفرط فالله أعلم ماذا كان ينتهي الأمر مع

الأوقص في حياته، وفي معيشته، ولكنها كانت سبباً في تحقيق ما قدره الله، ووسيلة لتنفيذه:

«كان الأوقص المخزومي، قاضي مكة، عفيفًا ظريفًا، فكان يقول:

قالت لي أمي، وكانت عاقلة، يا بني إنك خلقت خلقة لا تصلح معها مجامعة الفتيان، لأنك لا تكون مع أحد إلا تخطتك العيون إليه، فعليك بالدين، فإنه يرفع الخسيسة، ويتم النقيصة؛ فنفعني الله بكلامها». [1]

إنطلق إشعاع إلى الأم من الابن كشف لها أن ابنها، رغم أنه ظريف، إلا أن خَلقه لا يشجع أن يجذب من يجالسهم إلى ظَرفه، لأن العين تتخطاه إلى جمال غيره، وحسن منظرهم، ولكن عفّته تؤهله أن يتصل سببه بالدين، فهو أضمن لتوفيق الله له في معيشته، وأكثر نوراً لمستقبله؛ ولم يقصر الإشعاع عن الهدف، ولا حاد عن المرمى، وإنما

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٨٤٧.

أصاب التوفيق بعينه، والسعد بكامله، فصار قاضياً نابِهًا، له ذكر حسن، يليق بمكة المكرمة، مهبط الوحي، وقبلة المسلمين.

عرف عن ابن عباس فقهه في الدين، وفي عمق الفقه صلة بالفراسة عند التمعن، أليس الفقيه يرى في النص ما لا يراه كثير غيره من العلماء؟ ولهذا كان لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قول يوحي بأن ابن عباس يستقبل أحياناً ما يكشف له ما لا يكشفه لغيره، وذكر علي - رضي الله عنه - ما يدل على قوة الفراسة التي تدله على غير الظاهر قياساً على الظاهر، فكان حدسه بهدي الله يصيب، وكأنه يكشف له عما غاب عن أعين الناس:

«قال علي بن أبي طالب: لله در ابن عباس، إنه لينظر إلى الغيب من ستر رقيق». (١)

ومن هذا النمط في رؤية ما لا يراه إلا القليلون الظن الصائب، ويحدث هنا عندما يعرض أمر على

(١) بهجة المجالس: ١/ ٤١٩.

عقل ثاقب فإنه يجمع أطراف الموضوع، ويفحص الأسباب، ويقوم بما تقتضيه المقارنة، ويعرض ذلك على بوتقة التجربة، ويصيب ذلك كله في قالب الحصيلة بمقدرة وجدارة؛ وفي هذا المجال يلعب العقل دوراً رئيساً:

«سئل بعض العرب عن العقل، فقال:

الإصابة بالظنون، ومعرفة ما لم يكن بما كان». [1]

والألمعية تدخل في هذا الباب، لأن العقل الزاكي يسعفها بإشعاع يكشف نوره ما قد يكون محجوباً بالظلام، فإذا ما تبدد هذا الديجور بدا الأمْر للألمعي، وكأنه يعيش واقعه:

«قال أوس بن حجر:

الألمعي الذي يظن بك الظن
كأن قد رأى وقد سمعا»[2]

(١) بهجة المجالس: ١/ ٤١٩.
(٢) بهجة المجالس: ١/ ٤١٩.

ويحتال الأريب في أن يقدح زندًا، إذا أوقدت ناره، مشى في ضوئها إلى بغيته، وفراسته دلته على هذا، وفراسته جاءته من تجربته واستقرائه للأمور؛ ومنهجه لهذا المسلك دله عليه عقله الوافي.

«عن عمرو بن العلاء قال: قال رجل:
لا أتزوج امرأة حتى أنظر إلى ولدي منها.
قيل له: كيف ذاك؟ قال: أنظر إلى أبيها وأمها، فإنها تجرُّ بأحدهما». (١)

وهذا الباب لا يتم دون عرض بعض نماذج من الفراسة، وهي أصل فيه؛ ويأتي من الفراسة، وفرسانها المبرزين، ما يدعو إلى الدهشة والعجب، وبطل الفراسة عندما يكشف عن الدلائل التي شعت بنورها، فأبانت ما كان خافياً، ومدت يدها، وأزالت الستائر الحاجبة للرؤية العادية، يزول العجب، ويبدو الأمر عادياً، كما هو حال الألغاز، وصعوبة حلها، فإذا ما حلت يكاد بعض

(١) عيون الأخبار: ٤/ ٤.

الناس يصفع نفسه حنقاً عليها في إخفاقها في الإتيان بالحل، الذي يبدو حينئذ بسيطاً، في يد الطفل أن يحله:

«نظر إياس بن معاوية يوماً إلى صدع في الأرض، فقال: في هذا الصدع دابّة، فنظروا، فإذا فيه دابة، فقال: إن الأرض لا تنصدع إلا عن دابة أو نبات». (١)

وفي حادثة أخرى قريبة من هذه، إن لم تكن هي، يتفرس إياس في شيء يدل، عند التمّعن فيه وفي القصة السابقة، على أن فكرهُ يجلس على قاعدة بناها يُجلس عليها ما يمر به من أمثال هذه الأمور:

«نظر إياس بن معاوية، وهو بواسط، في الرحبة إلى آجرة، فقال: تحت هذه الآجرة حيّة، فنزعوا الآجرة، فإذا تحتها حيّة منطوية.

فسئل عن ذلك، فقال:

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٤٢٢.

إني رأيت ما بين الآجرتين نديا من بين تلك الرحبة، فعلمت أن تحتها شيئاً يتنفس». [1]

إياس استفاد من القول الثابت في القيافة: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، ولم يخب ظنه فيما ظن، ولم ينبُ سهمه عندما أطلق.

وإياس، وهو أب الفراسة، لا يكفي أن نعطي عنه مثلاً واحداً، وهناك مثل آخر تجري قصته كالآتي:

«مرّ إياس بن معاوية، ذات يوم، بماء، فقال: أسمع صوت كلب غريب.

قيل له: كيف عرفت ذلك؟

قال: بخضوع صوته، وشدة نباح غيره من الكلاب.

قالوا: فإذا كلب غريب مربوط، والكلاب تنبحه». [2]

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٤٢٢.

(٢) بهجة المجالس: ١/ ٤٢٣.

كم من القوم الذين مع إياس لم يسمعوا نباح الكلب؟ وكم منهم سمعه، ولم يلفت سمعه، وكم منهم من لفت سمعه، ولم يلفت نظره. إنها ملكة الفراسة عند إياس، وهي ملكة يقظة، لا تحتاج إلى من يحركها، لتعمل عملها، وتؤتي أكلها.

والأعراب بيئتهم خالية من تعقيد المدن، وهذا يجعلها غير مزدحمة بما عليها مما هو مصطنع، ويجعل ما عليها يتكرر في مظهره، ويصدق في الدلالة على مخبره، مما مكنهم من القيافة والفراسة، وقد أتقنوها، وعلّمهم ذلك أن يكون من عادتهم دراسة ما يرون بدقة متناهية، وباعتناء تام، ويروي الجاحظ شيئاً يعطي مثلاً من معرفتهم الباطن من أدلة الظاهر:

«قال عمرو بن بحر:

إذا نظر الأعراب إلى موضع منتفخ في أرض مستوية؛ فإذا رآه يتصدع في تهيّل، وكان تفتحه مستوياً، علم أنها كمأة، وإن خلط التصدع

والحركة علم أنه دابة، فاتقى مكانها». [1]

ولنعرف أن سهولة اكتشاف الكمأة في الأرض لا يعني أن الحضري يجدها سهلة، والقصة الآتية عن الكمأة ووجودها تُري أمراً عجيباً، وحدثاً مفاجئًا:

يقول ابن قتيبة:

«بلغني عن فتى من أهل الكُتَّاب أنه قال:

كنا في طريق مكة بالخزيمية، فأتانا أعرابي بكمأة في كساء قدر ما أطاق؛ فقلنا: بكم الكمأة؟

قال: بدرهمين؛ فاشترينا منه، ودفعنا الثمن إليه.

فلما نهض، قال له بعضنا: «في است المغبون عود»؛ قال: بل عودان؛ وضرب الأرض برجله، فإذا نحن على الكمأة». [2]

إن هؤلاء الحضر الجهلة لم يكونوا يعرفون أنهم

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٤٢٢.

(٢) عيون الأخبار: ٣/ ٣٠٥.

قد فرشوا بساطهم على أرض قد نبتت فيها الكمأة، وهي في متناول أيديهم، وتحت أرنبة أنف كل واحد منهم، فهي القريب البعيد.

على أي حال لعل من حسن حظهم، وكمال سلامتهم، أنهم لم يعلموا، ولو علموا لمدوا أيديهم، يجنون نتاجها، دون أن يفرقوا بين منبتها ومستكنّ الحيّة، لأن الحيّة تندس في مكان يشبه ما تنبت فيه الكمأة، ويَحذَرُ العارف أن يخطئ فيخلط بين الموقعين.

وإذا اكتفينا بما ذكرناه عن فراسة إياس وبحثنا عن أمثلة من الفراسة متفرقة وجدنا ما يؤكد وجود الإشعاع الخفي الطريف، إن لم تلتقطه العين، التقطه السمع، والسمع كثيراً ما قدم على البصر في القرآن الكريم:

«سمع الحجاج امرأة من خلف حائط تناغي طفلالها؛ فقال: مجنونة أو أم صبي».[1]

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٢٢٥.

إن الإشعاع أو النغمة التي التقطتها أذن الحجاج واضحة، وكان بإمكان الحجاج أن يجزم بأنها أم تناغي طفلالها، ولكن الحجاج إختار أن يلزم جانب الحذر، فهناك من النساء من لم ترزق بولد تناغيه، فتصاب حينئذ بجنون، تناغي فيه دمية أو مخدة، وتشعر بمناغاتها أنها تناغي طفلاً حقيقياً، فتشبع بذلك عاطفة الأمومة، وتدهده العقدة النفسية التي حدثت عندها، ومركب النقص الذي تشعر به.

وقد يأتي الإشعاع من مكان بعيد، فلا يراه إلا صاحب النظر الثاقب، والعقل الواعي، القادر على التعليل، البصير بطرق الاستنباط والاستنتاج، وهذا ما كان من خالد بن برمك في القصة الآتية:

«ذكر عبدالملك بن صالح الهاشمي أن خالد بن برمك، حين فَصل مع قحطبة من خراسان، بينما هو على سطح بيت في قرية قد نزلاها، وهم يتغدون، نظر إلى الصحراء، فرأى أقاطيع ظباء،

قد أقبلت من جهة الصحاري، حتى كادت تخالط العسكر، فقال لقحطبة:

«أيها الأمير، نادِ في الناس: يا خيل الله اركبي؛ فإن العدو قد نهد إليك وحثّ؛ وغاية أصحابك أن يُسرجوا ويُلجموا قبل أن يروا سرعان الخيل».

فقام قحطبة مذعوراً، فلم ير شيئًا يروعه، ولم يعاين غباراً، فقال لخالد: ما هذا الرأي؟

فقال خالد: «أيها الأمير، لا تتشاغل بي، ونادِ الناس؛ أما ترى أقاطيع الوحش قد أقبلت، وفارقت مواضعها حتى خالطت الناس؟ إن وراءها لجمعًا كثيفًا».

قال: «فوالله ما أسرجوا، ولا ألجموا، حتى رأوا ساطع الغبار؛ فسلموا، ولولا ذلك لكان الجيش قد اصطُلم». [1]

جيش بأكمله لم ير أفراده، ولا قواده ما رآه

---

(١) عيون الأخبار: ١/١٩٦.

خالد، حتى بعد أن بدأ خالد تحذيره لم ينفعه مع قائد الجيش إلا لفت نظره للدليل القاطع، الماثل أمامه، قد أتى مع الخطر العظيم، والهلاك الموشك.

وقد تقوم إشارة الإشعاع بين اثنين بينهما ما يدل على أنهما يعرفان أصولها وأسسها، وما تقوم عليه قواعدها، فاستفادا منها في موقف المكسب من نجاحها فيه، والعرب في تلك الأزمان بينهم مثل ذلك مما يأتي عن طريق ألغاز فعلية مثل هذه، أو ألغاز قولية:[1]

«ذلك أن سعد بن مالك كان عند بعض الملوك: [وهو النعمان الأكبر]، كما في الأغاني:[2]، فأراد الملك أن يبعث رائداً يرتاد له منزلاً ينزله، فبعث بعمرو، فأبطأ عليه؛ فآلى الملك لئن جاء ذامّا أو حامداًليقتلنه، فلما جاء عمرو وسعد عنده قال سعد للملك: أتأذن لي فأكلمه؟ قال إذاً أقطع

(١) انظر لهذا قصة المرأة التي حَملت الرسول رسالة تكشف خيانته فحمل الرسالة دون أن يدري فحواها، وكانت عدتها كلمات أرسلتها معه.
(٢) الأغاني: ١/ ٢٠٧.

لسانك، قال: فأشير إليه، قال: إذاً أقطع يدك، قال: فأومئ إليه، قال: أقطع حنو (حجاج) عينك؛ قال: فأقرع له العصا؛ قال: إقرع.

فأخذ العصا، فضرب بها عن يمينه، ثم ضرب عن شماله، ثم هزها بين يديه، فلَقِنَ عمرو.

فقال: «أبيت اللعن! أتيتك من أرض زائرها واقف، وساكنها خائف، والشبعى بها نائمة، والمهزولة ساهرة جائعة، ولم أر خصبا محلا، ولا جدباً هزلاً». (١)

أراد سعد، عندما لم يُسمح له بالتحدث مع أخيه، أن يرسل إشعاعاً بالإشارة، ثم عرض أن يكون ذلك بالإيماء بالحاجب، ولم يقبل منه إلا قرع العصا، ونحن إلى اليوم لم نعرف كيف استدل عمرو من ثلاث كلمات على المقصود، وركّب عليه هذا الجواب العجيب الذي أزال غضب الملك، وأنجاه من العقاب!

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٢٢٤.

ترى هل لنا الحق في أن ندّعي أن ما قام به سعد هو أصل إشارات الكشّافة اليوم، وهو الأساس في الإشارات الضوئية، والتي بالحركات، بين السفن والبوارج البحرية!!

وقد أخفق مرة رجل في صحة التقاط إشارة جاءته، ففسرها تفسيراً خاطئاً، لم يعد عليه بما يسره:

«قال رجل للأحنف:

تسمع بالمعيدي لا أن تراه».

فقال: ما ذممت مني يا ابن أخي؟ قال: الدمامة وقصر القامة.

قال: لقد عبت عليّ ما لم أؤامر فيه».[1]

ونص آخر أكثر تفصيلاً فيما أردناه عن الأحنف:

«قال عبدالملك بن عمير: قدم علينا الأحنف الكوفة مع المصعب بن الزبير، فما رأيت خصلة

---

(١) عيون الأخبار: ٤/ ٣٦.

تذم إلا وقد رأيتها في الأحنف: كان صعل (صغير) الرأس، متراكب الأسنان، أشدق، مائل الذقن، ناتىء الوجه، غائر العين، خفيف العارض، أحنف الرجل؛ ولكنه إذا تكلم جلا عن نفسه». [1]

لقد كان إشعاع الأحنف في لسانه، فإذا انطلق هذا الإشعاع عشي الناس عن عيوبه؛ إنه إشعاع ولكن تُرى هل هو خفي؟!

(١) عيون الأخبار: ٤/ ٣٦.

العلماء سرج المجتمع[1]

العلماء سرج المجتمع،[2] لأنهم يحملون العلم، والعلم نور، يهدي الناس في الطريق الصحيح إلى أهدافهم الخَيِّرة، ويبصرهم بما فيه نفعهم، ويُنبههم إلى ما قد يكون في طريقهم من ضرر، وليس من يمشي في النور كمن يمشي متخبطاً تائهاً منبوذاً في الظلام، وليس من يمشي على هدى كمن يمشي على غير هدى.

فالعلماء، وهم يحملون العلم، ويتشربونه في أقوالهم ويراعونه في أفعالهم وجميع تصرفاتهم، يأخذونه عن عقل وتفكير، فيفيدهم ذلك في أنفسهم، ويفيدون به غيرهم، وغيرهم عبء على المجتمع بقلة علمه، وتوقع زلله وخطئه، أما هم فهم يحملون العبء، لأنهم، بما وهبهم الله من

---

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٢٤٦) في ٢٠/ ٣/ ١٤١٥هـ الموافق ٢٧/ ٨/ ١٩٩٤م.

(٢) في بعض الحديث المرفوع: «مَثَل العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء»، [عيون الأخبار: ٢/ ١٣١].

علم، أصبحوا مسؤولين عن مجتمعهم، يعضدون صوابه، ويصححون خطأه، ويساعدون على الخير ونشره، وعلى القضاء على ظواهر الشر وبواطنه؛ مسؤوليتهم أمام الله أولاً وأمام مجتمعهم ثانياً، وأمام أنفسهم ثالثاً حتى يكسبوا احترامها، ويشعروا بمردود الرضى في أنهم استغلوا وقتهم في إنتاج ينفع، ويكتب لهم به حسنات، ولم يضيعوا وقتهم سدى، فيصبحوا مثل عامة الناس في عدم إعطاء الوقت قيمة، وعدم صرفه فيما أعطاهم الله الصحة والعافية من أجله.

والعلماء هم لذلك خير من يعرف للحياة قيمتها، ويقدر ما يأتي نافعاً ومفيداً للمجتمع وأبنائه؛ وإذا كان الإنسان العادي يعيش في وقته، ولا ينظر للمستقبل، فيستعد له بما يحتاج إليه قبل أن يهل هلاله، فإن العالم بما أعطاه الله يأخذ من الدلائل الحاضرة ما يفيده لما يأتي مما يحتاج إلى استعداد مبكر.

ولهذا كان الحث على طلب العلم ملازمًا للأمم المتحضرة، تدفع لازدهاره، وانتشاره الغالي، وتستميت في سبيل ذلك، ولا ترضى منه بالقليل، لإن هذه طبيعة العلم، كلما أخذ منه المرء بنصيب زاد شوقه إلى المزيد، والمتزود في متعة دائمة، فالعلم يفتح له نوافذ على رياض غناء، يتمتع بما فيها، ولا يمل قطف ما فيها من أزهار الفوائد، وورود المنافع.

وليس هناك عالم بحق يدّعي أنه نال من العلم منتهاه، ولم يعد في حاجة إلى المزيد؛ والتواضع في العلم الملازم له، يجعل العالم يقر بأنه جاهل يحتاج إلى مزيد من الطلب،[1] ويعلم أنه فوق كل ذي علم عليم، وقد يلهث المتأخر من العلماء خلف السابقين، وقد يبز متأخرٌ سابقًا في علمه، فالله وحده الذي يعطي ويمنع، ويفتح للمرء الباب أو يغلقه، وقد يغطي علم تلميذ على علم معلمه،

(١) «كان يقال: لا يَزَال المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أن قد علم فقد جهل». عيون الأخبار: ٢/ ١٣٤.

وقد يبهر ناشئ الشادين من طلاب العلم.

وإذا كان العقل يلعب دوراً كبيراً في تميز بعض العلماء عن بعض، فإن الجهد الذي يبذل قد يغطي على بعض قصور الذهن، ولكل مجتهد نصيب، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا، ولا بد أن يفيده من جهده واجتهاده.

وفي التراث بعض ما دون حول العلم والعلماء مما يجمل بأبناء هذا العصر دراسته واستقراؤه، ففيه من الفوائد ما يعود على القارئ بالنفع، سواء من حيث الاعتبار، أو من حيث معرفة فكر أجدادنا وتحرك المعلومات في محيطهم.

وصدق أحد العلماء وأجاد عندما وصف العلماء:

«نحن أعلام الهدى، وسرج الظلمة؛ بنا يتحصن الإسلام، ويفرق بين الحلال والحرام، وتنفذ الأحكام، وبنا تقام الفرائض، وتثبت الحقوق، وتحقن الدماء، وتستحل الفروج». [1]

(١) سراج الملوك: ١١٨.

لقد أعطى صورة متكاملة عن دور العالم في المجتمع، فأبان بما عدد أهمية العالم، ووضح بعض الأمور التي تلمس أهم شيء عند الناس، فإذا كانت كلمة أعلام الهدى، وسرج الظلمة، عامة، فإنه لا أحد يجهل الحاجة إلى التفرقة بين الحلال والحرام، ولا أحد لا يعطي أهمية لتنفيذ الأحكام، التي بدون إتمامها ينقلب المجتمع إلى مجتمع غاب، وإقامة الفرائض من لوازم الدين الرئيسة، وتثبيت الحقوق صيانة للمصالح، وحقن الدماء مسعى كل خيرٍّ وعاقل، وحماية الفروج وصيانتها مصدر فخر الأمم واعتزازها.

ورأس العلم وشرفه تعلم القرآن، ولهذا روي عن الشافعي - رحمه الله - قوله:

«من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن تعلم الفقه نبل مقداره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن تعلم اللغة رقّ طبعه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه».[1]

(١) أدب الدنيا والدين: ٤٠.

والشافعي إمام في العلم، وخير من يتحدث عن العلم، ويحث عليه، ويكشف عن فوائده، وقد روي عنه أبيات عن أحد التخصصات في العلم، يقول فيها:

ومنـزلـة السفيـه مـن الفقيـه
كمنـزلـة الفقيـه مـن السفيـه
فهـذا زاهـد في قـرب هـذا
وهـذا أزهـد منـه فيـه
إذا غلـب الشقـاء على سفيـه
تنطـع في مخـالفـة الفقيـه[1]

وقد نظر أحد العلماء إلى العلم من زاوية اختارها لينصح عن طريقها أبناءه، وهم أعزّ من عليه في الدنيا، ويود لهم النفع في ضوء تجربته المديدة، فيبين لهم ما للعلم من فوائد للإنسان نفسه، ولمن حوله، من أقربائه أو غيرهم:

قال بعض العلماء لبنيه:

(١) أدب الدنيا والدين: ٤١.

«يا بني، تعلموا العلم، وإن لم تنالوا به من الدنيا حظًا، فلأن يذم الزمان لكم أحبّ إليّ من أن يذم الزمان بكم». [1]

أجل الزمان هو الزمان، ليل يتبعه نهار، وشمس تطلع ثم تغيب، ويأتي فصل في السنة يتبعه آخر؛ أربعة فصول كل سنة، لا يأتي بينها خامس أو سادس، فالزمان على هذا لا يتغير، ولكن الناس يتغيرون، يتحسنون أو يسوؤون، ولهذا هذا العالم أكد على أبنائه أن يتعلموا، لأنهم بهذا يسلمون من أن يعاب زمانهم بهم.

ويصف أحدهم صحبة العلماء ومجالستهم وفائدتها، وعدد أنواع الخير الذي يأتي منها:

قال ابن زياد النحوي:

كان أشياخنا يقولون:

«جالس العلماء، فإنك إن أصبت حمدوك، وإن أخطأت علموك، وإن جهلت لم يعنفوك؛

(١) أدب الدنيا والدين: ٤٩.

ولا تجالس الجهال، فإنك إن أصبْت لم يحمدوك، وإن أخطأت لم يعلموك، وإن جهلت عنّفوك، وإن شهدوا لك لم ينفعوك». [1]

لقد أحسن ابن زياد رسم صورة مجتمعين متَغايرين متضادّين، أحدهما ساطع النور، والآخر غارق في الظلمة؛ أحدهما مليء بالخير، والآخر لا يعرف طريقه؛ أحدهما يأتي بالخير العميم، والآخر لا يأتي بخير، ولا يأتي منه خير؛ أحدهما يحمل عنك عبئك، والآخر يلقي بثقله عليك؛ أحدهما يدفعك إلى الأمام، والآخر يجرك إلى الخلف؛ أحدهما يرفعك إلى أعلى، والآخر يلقيك في الحضيض؛ أحدهما باسم الوجه صبوحه، والآخر مكشر الأنياب، أغبر الأديم.

ويبعد العلماء في احترام العلم، وإعلاء شأنه، وجلاء صفحته؛ وفي ذكر نصاعة هدفه، ونبل قصده، وفي بعد مرماه، وفي عمق نفعه، وبقاء

(١) تاريخ القضاة: ٣/ ١١٣.

فائدته؛ ويغالي أحدهم مغالاة مقبولة، فيقول:

«زعم بعض الأولين أن صحبة بليد نشأ مع العلماء أحبّ إليهم من صحبة لبيب نشأ مع الجهّال».[1]

والسبب في قول مثل هذا القول الموهم عدم الصحة، أن ما سوف يكسبه البليد من مجالسة العلماء سوف يخفف من بلادته، إذا لم يقض عليها، أما مجالسة اللبيب للجهال فلا تزيد عقله، بل تنقصه بما يأخذه منهم من معلومات ناقصة أو خاطئة، مع تركه لتحريك لبه، وتطوير عقله، وزيادة معلوماته، بإهماله الملكة التي وهبها الله له.

والعلم يرفع الوضيع، مثلما أن الجهل يضع الرفيع، ولا حدود لعدد الأمثلة التي يمكن أن يسوقها الإنسان في هذا المجال؛ وقد قيل:

العلم يرفع بيتاً لا عماد له
والجهل يهدم بيت العز والشرف

(١) الأدب الكبير: ١٣٩.

والقصة التالية تُري كيف جلب العلم لحامله التبجيل:

«أراد زيد بن ثابت أن يركب، فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه، فقال: تنح يا ابن عم رسول الله - ﷺ -» فقال ابن عباس:

«هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا».

قال زيد:

«إدن يدك مني»، فأدناها، فقبلها؛ وقال:

«هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا». (١)

العلم رفع زيدًا، فاستحق أن يأخذ بركابه ابن عم النبي ﷺ والعلم رفع من خلق زيد إذ أعلمه قدر آل البيت، فقدّر ابن عباس مرتين، الأولى لقرابته من رسول الله ﷺ والثانية لتقديره للعلم، الذي جُلُّه ما احتوى عليه القرآن والسنة، ولسمو خلقه الذي هداه لإكرام العلماء، رغم استحقاقه هو للتكريم.

---

(١) البصائر: ١/ ٩٩.

وقصة ثانية تري خطوة أخرى، ولكن الزمن فيها يقفز بِنَا إلى عصر العباسيين:

«دخل محمد بن عبادة على المأمون، فجعل يعمّمه بيده، وجارية على رأسه تبتسم، فقال المأمون:

مِمَّ تضحكين؟

فقال ابن عباد: أنا أخبرك يا أمير المؤمنين، تتعجّب من قبحي وإكرامك لي، فقال:

لا تعجبي، فإن تحت هذه العمة مجداً وكرماً». (١)

أجل إنه مجد العلم وكرمه، وهو الذي جعل المأمون الذي لا تسمح التقاليد والعادات في تلك الأيام من الاقتراب منه، ينزل عن منزلته موضعاً، ويرتفع بها تواضعاً واحتراماً للعلم، ليعمم عالماً، رفعه علمه إلى هذه المنزلة، رغم قبحه الذي اعترف به العالم نفسه، وظن أنه خطر في ذهن الجارية عندما قارنت المنزلة التي اعتاد المأمون أن يكون عليها، والمنزلة التي اختار أن ينتقل إليها.

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٨٤٤.

وخلاف العلم وما يأتي منه من فوائد، وما يجلبه من منافع، وما يعلي من مقام، وما يرفع من شأن، وما يضفي من شرف، الجهل، وما يأتي منه من أضرار، وما يُضيع من فوائد، وما يحرم صاحبه من ميزات، وما يسلبه من شرف، وما يجلبه له من نبذ وتجاهل؛ والقصة الآتية، تعطي مثلاً للاحترام لما ظهر من الشرف والعلم ظاهراً، والاحتقار بعد بعد أن تبيّنت حقيقة الجهل، واتضح خواء الداخل:

«خرج الوليد بن يزيد حاجًّا، ومعه عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر، فكانا ببعض الطريق يلعبان بالشطرنج، فاستأذن عليه رجل من ثقيف، فأذن له، وستر الشطرنج بمنديل، فلما دخل سلم، فسأله حاجته؛ فقال له الوليد:

أقرأت القرآن؟

قال: لا، يا أمير المؤمنين، شغلتني عنه أمور وهنات.

قال: أفتعرف الفقه؟

قال: لا.

قال: أفرويت من الشعر شيئاً؟

قال: لا.

قال: أفعلمت من أيام العرب شيئاً؟

قال: لا.

فكشف المنديل عن الشطرنج وقال: شاهك.

فقال له عبدالله بن معاوية: يا أمير المؤمنين!

قال: اسكت، فما معنا أحد». [1]

لقد غش المظهر الوليد، وقد غره الاسم والنسب، وقد خدعه جهام الرجل وصورته، فأعطى هذا المظهر ما يُعطَى لمثل صاحبه من الاحترام، فإذا سمح الوليد للحاجب بإدخاله، احتراماً لاسمه، فقد نزه عينه عن أن تقع على آلة من آلات اللهو والتسلية، وهو الذي توقع أنه وعاء علم، ولكنه اكتشف من أول سؤال أنه قد لا يكون من العلماء، لأن القرآن هو أول العلم، وأولى بالمعرفة، ولكنه

(١) عيون الأخبار: ١٣٦.

إنصافًا للرجل، وصيانة للحقوق أراد أن يتأكد فسأله عن جانب آخر من الدين، فوجد فؤاد أم موسى عنده منه خاوياً، فسأله عن حلية جيد العربي : الشعر وأيام العرب، فلما تأكد له جهله مدّ أبو حنيفة رجله ولم يبال.

ـ[1] ولعل أوضح دليل على فضل العلم والعلماء ما جاء في كتاب الله العزيز الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[2] فقد قال الله - سبحانه وتعالى - عن العلماء، وما يميزهم من غيرهم: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾.[3]

وقال سبحانه وتعالى في آية أخرى مميزاً لمن أوتي العلم: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾[4] وليس بعد قول الله سبحانه وتعالى قول.

---

(١) من هنا يبدأ الجزء المضاف بعد نشر المقالة في صحيفة «عكاظ».
(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٢.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٨.
(٤) سورة المجادلة، الآية: ١١.

وورد عن رسول الله ﷺ قوله: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» وقيل إن نص الحديث المروي: «كفضل البدر على سائر النجوم».[1]

وفي كتب العلم والأدب نصوص كثيرة للعلماء والمفكرين والحكماء تتكلم عن فضل العلم والعلماء، وتصم الجهل والجهلاء بما يليق بهم.

وقد جاء على ألسنتهم وصف للعلم كما رأوه لائقًا به، فقال أحد المفكرين:

«إعلم أن العلم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجدَّ فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب، لأن شرفه ينم على صاحبه، وفضله ينمى عند طالبه: قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2] فمنع سبحانه المساواة بين العالم والجاهل، لما خص به العالم من فضيلة العلم.

---

(١) المستطرف: ١/ ٤٨.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٩.

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[1] فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمراً أو يفهم منه زجراً.[2]

وقال مصعب بن الزبير لابنه:

«تعلم العلم، فإن يكن لك مال كان لك جمالاً، وإن لم يكن لك مال كان لك مالاً».[3]

ومصعب يؤكد هنا إن العلم يفيد الإنسان، فهو عند الحاجة مال، وعند توافر المال هو حلية تزين الإنسان، وعلى هذا فلا غنى للإنسان عنه.

ولعبدالملك بن مروان قول يرسم فيه صورة العلم في ذهنه لبنيه، ويحدد لهم بعض فوائده:

قال عبدالملك بن مروان لبنيه:

«يا بني، تعلموا العلم فإن كنتم سادة فقتم، وإن كنتم وسطاً سدتم، وإن كنتم سوقة عشتم».[4]

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.
(٢) أدب الدنيا والدين: ٣٣.
(٣) أدب الدنيا والدين: ٣٤.
(٤) أدب الدنيا والدين: ٣٤.

وعبدالملك هنا يؤكد النظرة التي نظرها مصعب في وضع العالم في مجتمعه بسبب العلم، وما يجوز منه.

وقال بعض الحكماء:

«العلم شرف من لا قدر له، والأدب مال لا خوف عليه».[1]

وهو قول يعضد القولين السابقين في تبريح مكان شريف في المجتمع لمن لم يرفعه نسبه، أو لم يُعلِه ماله، أو لم تنفعه قوته.

ومن الحكماء ننتقل إلى البلغاء، وناهيك بهم:

«تعلم العلم، فإنه يقوّمك ويسددك صغيراً، ويقدّمك ويسوّدك كبيراً، ويصلح زيغك وفاسدك، ويرغم عدوك وحاسدك، ويقوم عوجك وميلك، ويصحح همّتك وأملك».[2]

وقد أضَاف هذا البليغ فوائد أخرى إلى ما سبق

(١) أدب الدنيا والدين: ٣٥.
(٢) أدب الدنيا والدين: ٣٥.

أن ذكر من إيجاد مكان مشرف في المجتمع.

وللعلم وسائل يُدرك بها، وطرق يُقتنص بها، تُرِي كيف يتحصل عليه، وأن الأمر يحتاج إلى جهد وعناء ومتابعة:

حدث الرياشي قال: حدثنا الأصمعي، قال:

«قيل لدغفل النسَّابة: بِم أدركت ما أدركت من العلم؟

فقال: بلسان سَؤُول، وقلب عقول، وكنت إذا لقيت عالمًا أخذت منه، وأعطيته». [1]

وللعلم آداب يحتاج إلى معرفتها المتعلم، وإلى التمسك بأهدابها، حتى يكون ممن يليق به العلم وطلبه؛ وحتى يدرك منه بغيته، وهي تضاف إلى ما ذكره الأصمعي عن دغفل، في النص السابق:

قيل لبُزُرْجمِهر:

بِمَ أدركت ما أدركت من العلم؟

فقال: «ببكور كبكور الغراب، وحرص كحرص

(١) عيون الأخبار: ٢/ ١٣٤.

الخنزير، وصبر كصبر الحمار». [1]

هذا ما يخص حسن طلب العلم، أما آداب مجالسة العلماء فقد وردت أقوال في هذا مفيدة، وآراء سديدة:

يروى عن علي - رضي الله عنه -:

«من حق العالم عليك إذا أتيته أن تسلم على القوم عامة، وتخصه بالتحيّة، وأن تجلس قُدّامه، ولا تشيرَ بيدك، ولا تغمز بعينك، ولا تقول قال فلان، خلافاً لقوله، ولا تغتابَ عنده أحداً، ولا تسارّ في مجلسه، ولا تأخذ بثوبه، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تَعْرَض (تضجر) من صحبته لك، فإنما هو بمنزلة النخلة لا يزال يسقط عليك منها شيء». [2]

يرسم هذا النص ما كان القوم يسيرون عليه مع علمائهم، ومعلميهم، وقد سدّ، بعد أن بيّن الأبواب في احترامهم، المنافذ التي يمكن أن يتسرب منها

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ١٣٩.

(٢) عيون الأخبار: ٢/ ١٣٥.

الخطأ، والشيطان يعرفها جيداً، ويثق من نجاحه فيها، إن كان له على المرء نجاح.

هذا عن خلق المتعلم تجاه معلمه العالم، أما العالم فيكفيه علمه يدله على حسن التصرف، ومع هذا فقد قال العلماء حِكَماً في هذا تستحق أن تستقرأ وتتدبر:

«يقال: لا يكون الرجل عالماً حتى يكون فيه ثلاث: لا يحقر من دونه في العلم، ولا يحسد من فوقه، ولا يأخذ على علمه ثمناً».

وقال ابن عيينة:

«يُستحب للعالم إذا علّم ألا يعنف، وإذا عُلِّم ألا يأنف».

وفي كلام لغيلان:

«لا تكن كعلماء زمن الهرج (الفتنة) إن عُلِّموا أَنِفوا، وإن علَّموا عَنَّفُوا».

وفي حكمة لقمان:

«إن العالم الحكيم يدعو الناس إلى علمه بالصمت

والوقار، وإن العالم الأخرق يطرد الناس عن علمه بالهذر والإكثار». [1]

والعلم بحر واسع لا يرى شاطئُه، ولا يبلغ مداه، والمرء يعرف منه بقدر جهده، وما حباه الله من قدرة على الفهم والإدراك.

وقد قيل:

«إعلم أن كل العلوم شريفة، ولكل علم منها فضيلة، والإحاطة بجميعها مُحال».

ولهذا عندما قيل لبعض الحكماء:

من يعرف كل العلوم؟

فقال: «كل الناس». [2]

وقد فُضِّل تعلم العلم والبدء به في الصغر، وقيل إن الرسول ﷺ قال: «مثل الذي يتعلم في صغره كالنقش على الصخر، والذي يتعلم في كبره كالذي يكتب على الماء».

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ١٣٨.

(٢) أدب الدنيا والدين: ٣٧.

وقيل إن الأحنف فسر هذا عندما سمع رجلاً يقول: «التعلم في الصغر كالنقش على الحجر» بأن «الكبير أكثر عقلاً، ولكنه أشغل قلباً». [1]

ولكن الجهل لا يليق بالإنسان، فمن فاته التعليم في الصغر، تداركه في الكبر، فبعض الصغار تقصر بهم وسائل العيش عن أن يوفروا الوقت للعلم، وبعض الصغار يكون عنده عرامة تمنعه من الارتشاف من العلم، إما بسببه هو، أو بسبب سوء العلم، فينقطع المتعلمون أمثال هذا عن طلب المعلم، ويندمون عندما يكبرون ويدركون، وبعضهم يصمم على استدراك ما فات، ويصل إلى أعلى درجات العلم والمعرفة، ويبزّ غيره، وهذا يؤكد تفسير الأحنف السابق الذكر، وقد قيل في التراث قول يخص هذا الجانب:

قال بُزُرْجمِهر: «من صلح له العمر صلح له التعلم».

---

(١) أدب الدنيا والدين: ٥٦.

وقيل لبعض الحكماء: «أيحسن بالرجل أن يتعلم؟»

فقال: «إن كانت الجهالة تقبح به فإن العلم يحسن به». [1]

وقال الأقدمون:

«ربما امتنع الإنسان من طلب العلم لكبر سنه، واستحيائه من تقصيره في صغره أن يتعلم في كبره، فرضي بالجهل أن يكون موسوماً به، وآثره على العلم أن يصير مبتدئاً به، وهذا من خدع الجهل، وغرور الكسل، لأن العلم إذا كان فضيلة فرغبة ذوي الأسنان فيه أولى، والابتداء بالفضيلة فضيلة، ولأن يكون شيخاً متعلماً أولى من أن يكون شيخاً جاهلاً». [2]

وهذا القول لم يدع لمن تردد عن استدراك العلم حجة، فلقد سدّ عليه أبواب التحجج والتهرب، وفتح له أبواب الترغيب والتحبيب، وسهل من

(١) عيون الأخبار: ٢/ ١٤٢.
(٢) أدب الدنيا والدين: ٤٤.

الأمر ما كان عسيراً، وجمّل له ما كان في عينه قبيحاً، وأعانه على نفسه، ودافع عنه كيد الشيطان، إن كيد الشيطان مع علم الإنسان ضعيف.

«حكي أن بعض الحكماء رأى شيخاً كبيراً يحب النظر في العلم ويستحي، فقال له: يا هذا: أتستحي أن تكون في آخر عمرك أفضل مما كنت في أوله». [1]

إن هذه الكلمات المضيئة لم يكن يأتي بها إلا العلم، لقد بدّد هذا الحكيم باشعاع كلماته ديجور الجهل الذي قاد هذا الرجل إلى أن يستحي من طلب العلم، وأن يمسك نفسه عن أن تركض وراء النفع، وتجهد في طلب المصلحة، وتنفض عنها أدران التأخر والركود، وترضى بالأذى، وتقتنع بالنّقص، وتفضّل الخيبة على الفلاح، والخسارة على الكسب.

ولقد قام جدل جميل بين الخليفة العباسي المأمون ابن هارون الرشيد وعمه إبراهيم، فكان في يد المأمون مشعل مضيء، وإبراهيم يتخبط في ظلام

(١) أدب الدنيا والدين: ٤٤.

دامس، وكانت يد المأمون ملأى بالنعمة، ويد إبراهيم مفعمة بالخيبة، وكانت يد المأمون ممتدة بالثقة، ويد إبراهيم مكفوفة بالحيرة:

«ذكر أن إبراهيم بن المهدي دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون في الفقه فقال:

يا عم، ما عندك مما يقول هؤلاء؟

فقال: يا أمير المؤمنين، شغلونا في الصغر، واشتغلنا في الكبر.

فقال: لم لا تتعلمه اليوم؟

قال: أويحسن بمثلي طلب العلم؟

قال: نعم، والله لأن تموت طالباً للعلم خير من أن تعيش قانعاً بالجهل.

قال: وإلى متى يحسن بي طلب العلم؟

قال: ما حسنت بك الحياة، لأن الصغير أعذر، وإن لم يكن في الجهل عذر، لأنه لم تطل به مدة التفريط، ولا استمرت عليه أيام الأهمال». [1]

(١) أدب الدنيا والدين: ٤٤.

والمأمون حكيم في قوله، وأضاف حكمة إلى ما قاله الحكماء السابقون، وحبّب في جدله مع عمه إلى التعلم في الكبر، بأقوال مقنعة إذا لم يعمل بها إبراهيم فسيبقى رنينها في رأسه غصة في حلقه.

والرعب من الجهل، والحد من انتشاره، والقضاء على ما وجد منه، هو شغل العلماء الشاغل، وهدف الحكماء المسيطر، لأنهم أعرف الناس بمضارّه على المجتمع، وأحرص الناس على نشر العلم لرفع مستوى من في محيطهم:

قيل في منثور الحكم:

«جهل الصغير معذور، وعلمه محقور؛ فأما الكبير فالجهل به أقبح، ونقصه عليه أفصح، لأن علو السن إذا لم يكسبه فضلاً، ولم يفده علماً؛ وكانت أيامه في الجهل ماضية، ومن الفضل خالية، كان الصغير أفضل منه؛ لأن الرجاء له أكثر، والأمل فيه أظهر؛ وحسبك نقصاً في رجل

يكون الصغير المساوي له في الجهل أفضل منه». [1]

والحديث في العلم يطول، ولا يكاد كتاب من كتب التراث يخلو من شرح فوائده، وتبجيله والحث عليه، بل إن هناك كتباً خصصت له مثل: «جامع بيان العلم وفضله» تأليف الإمام أبي يوسف بن عبدالبر، وأمامي الآن نسخة مطبوعة بالتصوير، قامت بذلك دار الفكر ببيروت.

ولعل من المناسب أن أختم الحديث بمثل ما بدأت به عن فضل العلم، ورفعة مقام من يحمله، بقصتين لائقتين:

«دخل أبو العالية على ابن عباس، فأقعده معه على السرير، وأقعد رجالاً من قريش تحته، فرأى سوء نظرهم إليه، وحموضة وجوههم، فقال:

ما لكم تنظرون إليّ نظر الشحيح إلى الغريم المفلس؟ هكذا الأدب يشرف الصغير على الكبير، ويرفع المملوك على المولى، ويقعد العبد على الأسرة». [2]

---

(١) أدب الدنيا والدين: ٤٤.

(٢) المخـــلاة: ٢٢.

في هذه القصة أصبح رجال من قريَش، أصحاب قمة النسب في الدرجة الثانية عند أبي العالية، حامل العلم!

وأنقذت شمعة المعرفة بكتاب الله رقبة أحد من كاد السيف يداعب رقبته، وملك الموت يأخذ روحه:

«روي أن الحجاج أخذ أخا قطري بن الفجاءة، وقال:

لأقتلنّك.

قال: لِمَ؟

قال: بخروج أخيك عليّ.

فقال: إن معي كتاب أمير المؤمنين أن لا تأخذني بذنب أخي.

قال: هاته.

قال: فإن معي آكد منه: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.[1]

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

فتعجب من جوابه، وخلّى سبيله». [1]

لقد نفع أخا قطري بن الفجاءة كتاب الله، وعلمه بما فيه، فاتخذه حصنه الذي يحتمي به، ودرعه الذي يتقي به غضب الحجاج الذي أعماه، وهو مدرس القرآن، عن هذه الآية الكريمة؛ فأيقظه الفجائي من رقدته، ونبّهه من غفلته؛ فآب إلى الرشد بعد أن سطع في قلبه نور البرهان السماوي، وبرق فيه ضياء القول الإلٰهي.

ولقد أحسن أخو قطري إذْ قدم الآية على خطاب الخليفة، وهذا حُسن تصرف، ومنتهى التوفيق؛ وهو يعلم مدى خوف الحاكم من مخالفة أوامر الشرع، وهو الذي يحتمي به، ومن تجنب الأخذ بها وهي أداته في الحكم.

ولقد عرف عن الحجاج انقياده لما يذكّر به من تعاليم الدين، خاصة ما فيه نص صريح من القرآن، والحجاج مسؤول عن التذلل لكتاب الله

(١) المخلاة: ١٠٣.

أمام الخليفة في الدنيا، فهو يمثله وينوب عنه، والوكيل لا يخرج عن الخطة التي يرسمها له الخليفة، فالأمر ليس بالسهولة التي قد يظنه المتعجل في الحكم أنه بيد الحجاج، يقدر فيه ما يشاء، فالحجاج في هذا محكوم لا حاكم، لو لم يأخذ بحكم القرآن، وينصع لما ترمي إليه أحكامه، فإنه يحكم حكما يدعي فيه ضمناً أن هذا حكم الخليفة، ولا يجرؤ الخليفة وهو المبايَع من المسلمين على مخالفة حكم الله فيهم.

لهذا فالحجاج العالم لاقى الفجائي العالم، فالتقى اشعاعان مباركان: ألم نقل إن العلم نورٌ.

رياضة فكرية[1]

يحتاج الجسم لينمو وليبقى صحيحاً معافىً إلى الحركة، والحركة رياضة، والرياضة أنواع، منها ما يقصد لذاته، ويزاول بطريقة يُتفق عليها، وعلى فائدتها ووقتها، وتتفاوت مزاولتها بين الصغير والكبير، ومنها ما يأتي عفواً وطبعاً، كالمشي والعمل بأنواعه وحركاته.

وإذا كان للجسم هذه الرياضة، وإذا كان لهذه الرياضة هذه الفائدة، وهي نمو الجسم وصلاحه، فما هو نصيب العقل والذهن من الرياضة حتى ينمو وينشط، ويؤدي العمل الجليل، والدور الخطير الذي هيأه الله له، والذي يعتمد عليه الجسم كله، يتأثر به قوة وضعفاً، وصحةً ومرضًا، وسعادة وشقاء، وراحة وتعباً؟

إن للذهن عدة أنواع من الرياضة، ولعل

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٢٥٣) في ٢٧/ ٣/ ١٤١٥هـ الموافق ٣/ ٩/ ١٩٩٤م.

حصرها صعب، وأقرب لأن يزل الإنسان لو حاوله، أو تصدى له. ولكن هناك أموراً واضحة، ومعروفاً أثرها، وأولها التعليم في إطاره العام، ويدخل ضمن أجزائه فهم المعلومات، والتعمق فيها، ومتابعة زيادتها، والحفظ للنصوص التي يستوجب الأمر ألا يُكتفى بمعناها مثل القرآن الكريم، والحديث، والشعر والخطب، والحكم والأمثال، والمعادلات في الرياضة والعلوم. وقد لوحظ أن من يحفظ القرآن لا يصاب بخرف الشيخوخة، لنشاط الذهن في ترداد القرآن، حتى لا يُنسى، ولنظرة الله - سبحانه وتعالى - إلى هذا الوعاء الخيّر النبّيل، وهو الإنسان الحافظ، الحريص على عدم ضياع شيء من هذه الثروة العظيمة التي حباه الله بها.

ولا يقول قائل إن فائدة الحفظ في هذا يتساوى فيه الشعر والخطب مع القرآن، فكله حفظ، وأداته واحدة هي حيز محدد في العقل. لا، إن الفرق

كبير، في الحفظ نفسه وفي الشعور النفسي؛ فالقرآن يتحتم على الحافظ ترداده في كل مكان طاهر، وحفظه للحافظين متساوٍ وواحد، لا يختلف فيه شخص عن آخر، أما الشعر والخطب فما يعجب منها حافظ قد لا يعجب آخر، وما يعجب المرء اليوم قد يجد أحسن منه غداً، وقد يعجب المرء بنوع من الشعر يختاره من هنا ومن هناك. وفي القرآن ميزة أنك كلما قرأته تبين لك أمر لم يتبين لك من قبل، إما في الصياغة أو في المعنى، أو في نحوه، أو في مبناه، أو في مقارنة بين آية وآية، فذهنك في تجدد معه إلى الأفضل لك، والأفود لدينك وخلقك، والزيادة في إيمانك بربك وبما أنزل.

الأمر النفسي، وهو مهم، هو شعورك في أنك في قراءتك للقرآن، في عبادة، وفي أمل الأجر والثواب، وأنك في تبتل: جالسًا أو سائراً أو مضطجعاً أو راكباً؛ وسواء كنت على الأرض أو طائراً في الجو. وأنت بقدر ما تتحرج من قول

الشعر في المسجد، وصمتك عنه عندما يؤذن المؤذن، فأنت مع القرآن في بهجة وأنت تقرؤه، ولعل قراءتك القرآن وأنت في عمل تنزل البركة فيه، وتنزلها في طعامك وأنت تأكله.

هذه بعض الأمور التي يتمدد معها العقل وينمو، وينشط ويؤدي عمله على الوجه الأكمل في حدود ما هيأ الله لصاحبه، أما بعض الأمور الجزئية التي اختارها بعض المفكرين لرياضة أفكارهم، وتقوية عقولهم، أو اختبارها، ومعرفة مدى ما وصلت إليه، أو محاولة كشف ضعف بعض العقول فهي التي اخترنا نصوصها لهذه المقالة، وبعضها أقرب إلى الألغاز، وليس اللغز ببعيد عن أن يحتل مكانا متقدماً في رياضة الفكر وتحريكه.

ومن النصوص التي لم تقصد لزيادة المعلومات، وإنما جاءت للتّسلية، وتزجية الوقت. والقضاء على الملل، وقد لا يخلو الأمر فيها من إضمار اختبار مقدرة الآخرين في ميدان عكس الجمل؛

وسرعة الرد والبديهة مراعاة في هذا، بل لعلها العنصر المهم، إن لم تكن هي العنصر المقصود أصلاً؛ والمبارزة الآتية قامت بين أديبين فاضلين، لهما باع طويل في الفكر والأدب، ولهما شهرة واسعة في الكتابة والبلاغة:

«كان بين محمد بن محمد، المعروف بالعماد الأصفهاني وبين القاضي الفاضل مراسلات ومحاورات، فمن ذلك أنه لقي القاضي يوماً، وهو راكب على فرس، فقال له:

«سر فلا كبابك الفرس».

فقال له الفاضل:

«دام علا العماد».

وكلا القولين يقرأ عكساً وطرداً». (١)

هذا الترف الفكري لا يمكن أن يتمتع به إلا أديب متمكن، ذو عقلية نادرة، وقد تقل صعوبة الإتيان بمثل هذا إذا أعطي الإنسان وقتاً للتفكير،

(١) معجم الأدباء: ٩/ ١٨.

وفرصة للتجهيز، والمحو والاثبات، وتبديل الصيغ؛ أما أن يأتي القول بمجرد رؤية هذا راكباً فرسًا، فيرد عليه هذا في اللحظة نفسها بهذا الرد المتقن؛ ولم يكن جمال الرد في صورة الكلمة وهي تضمينها اسم العماد المتكلم، وإنما في معناها، وهل أكمل من أن يدعى للإنسان، وهل أجمل من الرد بالدعاء على الدعاء؟!

وفي النص التالي أمر، وفرض لهذا الأمر من كبير إلى من تحته، والأمر محدد، وصعوبة التحديد أنه لا يتناسب مع خطورة التنفيذ:

أمر الحجاج ابن القرّيّة أن يأتي هند بنت أسماء، فيطلقها بكلمتين، ويمتّعها بعشرة آلاف درهم.

فأتاها، فقال لها: إن الحجاج يقول لك: «كنت فبنت، وهذا [كذا] عشرة آلاف متعةً لك».

فقالت: قل له: «كنّا فما حمدنا، وبنّا فما ندمنا، وهذه العشرة الآلاف لك ببشارتك إياي بطلاقي». [1]

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٢٢٨.

لا ندري هل ابن القرّيّة عرض الكلمتين اللتين اختارهما استجابة لأمر أميره على الحجاج، وأخذ موافقته عليهما، أو أنه لم يفعل، واكتفى بحسن اختياره، وبدقة مرمى الكلمتين، وأدائهما الهدف الذي رمى إليه الحجاج.

أما رد هند فمتقن، وقد ركّبت على كل كلمة من الحجاج كلمة منها، فما زادت على قوله إلا بما أضافت مثله من قولها، ردّاً مكافئًا، وفاجأت الاثنين باعطائها مبلغ المتعة للرسول، مكافأة له على تبشيره لها بالطلاق، الذي فرحت به، وسرها وقوعه.

هناك ظل شك على القصة كلها، وهذا إذا تأكد يجعل القصة مبتدعة ومخترعة، قام بوضعها أديب أعطى فكره حصة رياضة، قام بها بتسجيل فكرة طريفة طرأت على باله، أوحاها عداؤه للحجاج، لأن اللطمة قصدت له، والا ففاطمة رابحة بالطلاق من الحجاج الذي لا يُقْبَلُ في نظر الأديب

الناحل جليساً فكيف به يُتزَوّج؛ وابن القرّية رابح؛ لأنه وفق لإيقاع الطلاق بكلمتين اثنتين، ليس بينهما حرف عطف أو جر، وهي، بلا شك، مقدرة من الأديب الذي وضع القصة.

ونحن لا ندري ما هي الحكمة التي أرادها الحجاج من اختصار الكلام في أمر مهم كهذا، وإن كان هدفه منع رسوله من أن يقول ما قد يوحي لها بالاعتذار، أو تأخذ منه رائحة تبجيل أو تقريظ، خاصة إذا أراد ابن القرّيّة أن يتقرب منها على حساب الحجاج، فكان بإمكانه أن يحدّد له القول الذي يؤدي غرضه؛ والحجاج لا يعجزه ذلك، وهو من عرف بالفصاحة، وحسن المنطق، وهو صاحب الخطب الرنانة، والأقوال المؤثرة. لقد نسي صاحب القصة هذا الجانب، ولم يأت بخلده أنه سوف يكون هناك بعد قرون من سيتساءل هذا التساؤل!

وإذا كان الحجاج، لغرض أو آخر، قد أعطى

أمره فعلاً، فإنه قد فكّر فيه طويلاً، وابن القرّيّة مثله كذلك قد أهمه الأمر، فقلبه على جوانبه، حتى وصل إلى الصيغة التي اطمأن أنها تنطبق على ما في ذهن الحجاج، وتؤدي الغرض، لكن هندا أمرها مختلف، فما بالها تزن قولها بميزان الذهب، وهي المرأة المجروحة في هذه اللحظة بالطلاق؛ ودع عنك ما أظهرته، فالطلاق للمرأة أمر عظيم؛ إن الواحدة منهن تحاكم زوجها شهوراً لتحصل على الطلاق، بعد معاناة شديدة، ومكابدة معه متناهية، ولكنها عندما يصدر القاضي حكمه تنفجر باكية بعاصفة من البكاء، وسيل من الدموع؛ لأن كلمة الطلاق أيقظتها من سباتها، ونبهتها إلى وضعها الجديد.

إن ظل الشك الذي بدأ في أول القصة أكده موقف هند هذا، وأن الهدف من القصة أصلاً هو هذا الجزء الذي يؤكد أن الطلاق وهو أبغض الحلال عند الله كان أحب شيء إليها، وألصق

بقلبها لسوء الحجاج، وسوء عشرته، وهو ما حرص القاص على إبرازه، وقد نجح في السبك، فقصته بقيت حيّة تتداول إلى اليوم، ولن يضيرها شكنا فسوف تبقى في التداول ما دام هناك من ينظر إلى الحجاج نظرة عداء.

ويزيد الأمر شكاً أن هذا النسق لازم الحجاج، وجاء كأنه أسلوب اختاره، ونهج اختطّه، ومن يعرف الحجاج وجده يزيد شكه، ويرجح أنه أسلوب الكاتب الذي تميّز بهذا النهج، واتخذه منهجاً يسير فيه، سواء ركبه على الحجاج في طلاقه هند، أو في زواجه بها؛ لأن هناك نصاً قيل إنه عن زواج الحجاج بهند بنت أسماء هذه، استعمل فيه الأسلوب نفسه، ووسّط فيه أيوب بن القرّيّة نفسه، فهو غراب البين في الأولى، وحمامة السلام في الثانية:

قال الحجاج لأيوب بن القرّيّة:

«أخطب عليّ هند بنت أسماء، ولا تزد على ثلاث كلمات».

فأتاهم، فقال:

«أتيتكم من عند من تعلمون، والأمير معطيكم ما تسألون، أفتنكحون أم تردّون؟»

قالوا: «بل أنكحنا وأنعمنا».

فرجع ابن القرّيّة إلى الحجاج فقال:

«أقر الله عينك، وجمع شملك، وأنْبت ربعك؛ على الثبات والنبات، والغنى حتى الممات، جعلها الله ولوداً ودوداً، وجمع بينكما على البركة والخير».[1]

لقد أحاط ناحل القصتين بالأمر من جانبيه، فزوج بثلاث كلمات، وطلق باثنتين، وجاء الإنكاح بثلاث جمل والطلاق بكلمتين فقط، ولعل القاص تمرن فيما بين الوقتين، فأجاد الاختصار بعد التمرين!!

وهب بن منبّه رجل مطلع على كتب الأولين، وكثيراً ما يروي بعض مواعظهم، ويتكلم عن أمثالهم وحكمهم، ويقص آثارهم؛ ومن النص الآتي الذي رواه وهب بن منبه نجد أن رياضة

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٧٨.

الفكر كانت قديمة، ولا يستغرب هذا، فالفكر قديم، ومستلزماته مثله، وقدمه بقدم الإنسان. ومع رياضة الفكر التي جاءت بها صورة النص جاءت الموعظة مجهمة مكبرة، وهذا هو الذي أعطى النص قوته:

«قال وهب بن منبّه:

صحب رجلٌ عالماً سبع مئة فرسخ، ثم سأله عن سبع كلمات:

قال له:

أخبرني عن السماء، وما أثقل منها؟ وعن الأرض، ما أوسع منها؟ وعن الحجر، ما أقسى منه؟ وعن النار، ما أحرّ منها؟ وعن البحر، ما أغنى منه؟ وعن اليتيم، ما أضعف منه؟ وعن الزمهرير، ما أبرد منه؟

فقال الحكيم:

البهتان أثقل من السماوات؛ والحق أوسع من الأرض، وقلب الكافر أقسى من الحجر؛ وقلب

القانع أغنى من البحر، وجشعة [كذا] الحريص أحرّ من النار؛ ونمائم الوشاة أضعف من اليتيم؛ واليأس من القريب أبرد من الزمهرير». [1]

وتأتي رياضة الفكر في النصّ الآتي، سواء صح أو لم يصح، والشك يأتي من إنعدام الهدف من لجوء الخليفة إلى هذا الأسلوب في مخاطبة ولاته، ولا يأتي الإلغاز والرمز إلا في الأمور السرية التي يخشى أن يطلع عليها من أبهمت عنه حتى لا يفهمها فيما لو وقعت في يده، أما مدح عبدالملك للحجاج، وأنه جلدة ما بين العين والأنف، فأمر معروف عن عبدالملك في الحجاج، وليست هذه هي المرة الأولى التي يقولها عبدالملك، وقد أعلنها، وكأنه حريص على نشرها، ولهذا فيستغرب أن يلمز إليها في خطابه للحجاج، مما جعل الحجاج في حيرة، وعبدالملك والحجاج في حاجة إلى وقتهما لمقابلة أمور الملك، ومشاكل الإمارة، لا الركض

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٧٠٣.

وراء حل نصوص مبهمة.

ولو كان الإلغاز في مجلس سمر لقبل، على أنه من جملة ما يقتنص للتسلية، وقتل الوقت، أما أن يبعث من الشام إلى العراق بخطاب يفتح، ويقرؤه الكاتب، ويحفظه الحافظ، فأمر يستبعد:

«كتب عبدالملك بن مروان إلى الحجاج:

أما بعد: فإنك سالم والسلام».

فلم يدر [الحجاج ما القصد]، فنبه على أنه أراد قول عبدالله بن عمر بن سالم:

يديرونني عن سالم وأديرهم

وجلدة بين العين والأنف سالم»[1]

الفكرة طريفة، والملوم في تركيب القصة بهذه الصورة هو البيت؛ فهو الذي أوحى بالفكرة، ونبّه إلى أنه يمكن أن يركب عليه قصة، خاصة وأن هناك قصة تروى عن الوليد عن عبدالملك في أن الحجاج جلدة ما بين عيني عبدالملك.

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٤٥٩.

قال الوليد بن عبدالملك: كان أبي يقول:
«الحجاج جلدة ما بين عينيّ، وأما أنا فأقول:
الحجاج جلدة وجهي كله». (١)

وأن تكون القصة من اختراع أديب، أو ثمرة فكر كاتب، ركبها على عبدالملك والحجاج، فهذا لا يقلل قيمتها عند الحديث عن رياضة الفكر، وكل ما هنالك من اختلاف، أن الرياضة تحولت من الحجاج إلى ذهن مخترعها.

هذه أمثلة لبعض ما أحببت أن أستشهد به على رياضة الفكر في بعض كتب التراث، وهي مظهر من مظاهر الفكر في ذلك الزمن، وهذه النصوص قليل من كثير تطفح منه كتب التاريخ والأدب، ولا تكاد تحصى، وهي متشعبة، وتأخذ جوانب متعددة في رياضة الفكر، فللأدباء قسطهم، وللفقهاء قسطهم، وللنحاة قسطهم، وللشعراء قسطهم، حتى العامة لهم في رياضة الفكر قسط.

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٤٩٧.

سوء فهم[1]

سوء الفهم يأتي أحياناً من خلل في التعبير، وأحياناً من خلل في السمع، وأحياناً من خلل في الإدراك. وقد يأتي سوء الفهم من مظهر عملٍ أخذ على غير ما قصد له، إما لنقص الإشارة، أو لجنوح التفسير.

وقد لا يأتي من سوء الفهم كبير عناء، ولا غاية ألم، ويمر على أنه طرفة، جلبت مرحًا، أو أدت إلى سرور، وأوجبت ابتسامة عريضة، أو بجست ضحكة مجلجة.

وبعض الناس قليلاً ما يحدث منهم، أو لهم، سوء فهم، وبعض الناس يكاد يكون هذا ملازماً له، وقد استُغل هذا ليكون أحياناً مادة ثرة «لفيلم» كامل، أو مسلسل متعدد الحلقات، ومتعدد أنواع الأقوال أو الأفعال التي توجب سوء الفهم، أو

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٢٦٠) في ٥/ ٤/ ١٤١٥هـ الموافق ١٠/ ٩/ ١٩٩٤م.

انغلاق دلائل المقصود. وقد أصبحت مثل هذه القصص و «الأفلام» ذات رواج، وصار عليها من الإقبال ما أوجب الاستمرار فيها، وكان من أبرز هذه الأفلام ما أوقف التمثيل فيه على «لوريل» و «هاردي»، و «بادابوت» و «لوكستلو» و «فرناندل» في الأفلام الغربية، وإسماعيل ياسين، وحسن فايق في الأفلام المصرية.

ومن أحسن الأمثال التي سمعتها عن سوء الفهم، سوء الفهم الذي يحدث بين قط وكلب غريب عنه، فالكلب بوداعةٍ يقترب من القط عارضاً الصداقة، وطريقته، عندما يكون سعيداً أو مستعطفاً، أن يحرك ذيله بحركة دائبة، أما القط فإنه في حالات العداء والتحفز يحرك ذيله، فإذا تقابل الإثنان، وبدأ الكلب يقترب من القط عارضاً الصداقة، ورأى القط الذيل المتحرك، استعد للهجوم والدفاع، فيبدأ بتحريك ذيله، طبيعة وغريزة، فيظن الكلب أن ما عرضه من

الصداقة قد قبل، فيسرع في خطوه، نحو القط، فيسرع القط بالتأهب للهجوم، ظناً أن ساعة الحرب قد اقتربت، وعندما يكون الكلب في متناول قفزة القط يفاجأ به كالسهم منطلقاً إلى وجهه، منشباً أظفاره فيه بسرعة، ثم يهرب، فيقف الكلب محتاراً مندهشاً من هذا التحول المفاجئ، مما لا يجد له تفسيراً، وقد يعيد عرض الصداقة دون أن يؤثر فيه الموقف السابق، ولكن القط في الغالب يكون قد ابتعد، وغنم السلامة من هذا الوحش الذي كان رافعاً خلفه علم العداء يلوح به.

إن هذه صورة من أبرز صور سوء الفهم التي مرت بي، لتوفر العناصر الموجبة لسوء الفهم فيها، وأهميتها تأتي من أنها سوء فهم لفعل، وبين حيوانين وليس إنسانين.

هذا ما يخص الحيوان، فماذا عن الإنسان، وسوء الفهم لديه، وهو أب الفهم وسيده؟

أحياناً تلعب الصدفة دوراً في سوء الفهم؛

واحتمال وقوع مثل هذا رهن بالصدفة، والقصة التالية تبين واحدة من هذه المرّات:

«حكي أن السّراج الورّاق جهّز غلاماً له، ليبتاع له زيتاً طيّبا، ليأكل به لفتاً، فأحضره، وقلبه على اللفت، فوجده زيتاً حاراً، فأنكر على الغلام ذلك؛ وأخذه وجاء إلى البياع، وقال له: لِمَ تفعل مثل هذا؟

فقال: والله يا سيدي ما لي ذنب، لأنه قال لي: إعطني زيتاً للسِّراج». [1]

لا لوم على أحد، فالصدفة في أن اسم المشتري السَّراج، والسِّراج يوقد بالزيت، هي التي أدت إلى إعدام أكلة اللفت بالزيت المحروق بدلاً من الزيت البكر الطيب. والفرق الذي تسبب في هذا كله الشّدّة التي جاءت وهماً في ذهن السامع بائع الزيت، فأدت إلى ما أدت إليه من سوء فهم أدى إلى سوء عمل غير مقصود.

---

(١) ثمرات الأوراق: ٥٤.

وقد لا يكون التعبير أو السمع هو المسؤول عن سوء الفهم، أو الخطأ الذي ينتج بسببه، وإنما وجود أكثر من معنى للكلمة، فينطق المتكلم بها عمّا يهمه، ويفهمها السامع بما يهمه، وقد يكون بين قصد المتكلم وفهم السامع بُعد ما بين المشرقين، والقصة التالية تبين ذلك؛ على أن سوء الفهم الذي حدث لم ينتج عنه - والحمد لله - إصابات!:

مرّ بعض الصوفية ببغداد، وإذا بسوقي ينادي: «الخيار عشرة بدرهم»، فلطم الصوفي وجه نفسه، وقال:

«إذا كان الخيار عشرة بدرهم، فكيف بالشِّرار».[1]

وحق للصوفي الزاهد ألا يأتي في باله خيار الأكل، وأن ينصرف الذهن معه إلى خيار الناس وشرارهم، لأن هذا ما يتكرر على سمعه؛ ولا ندري عن هؤلاء الناس هل هم رقيق أو خدم مستأجرون، في رأي الصوفي!

---

(١) الكشكول: ٢/ ٣٧٩.

وقبل أن تدخل النُّقط في الكتابة العربية كان هناك سوء فهم كثير لقراءة بعض الكلمات التي لا يَحسِم مؤدى الجملة أمرها، ولا بد أنه بقي منها شيء نُقِّط خطأ فيما بعد لهذا السبب. وقد يؤدي الاجتهاد في الكلمات التي لم تنقط إلى خطأ جسيم، قد يلمس حكماً شرعياً؛ وكانت الأحاديث من حسن الحظ محفوظة وتتسلسل من فرد إلى فرد، ومن جيل إلى جيل، مما جعل الكتابة أمراً ثانوياً في بعض الأحيان؛ بل إن بعض العلماء ورواة الحديث يفتخرون أنهم لم يمسكوا قلماً أو ورقة، ومحفوظهم من الحديث مئات الآلاف. وقد ورد هذا في ترجمات بعضهم في بعض الكتب من أمثال كتاب «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي.

وقد فرّ من بين أصابع الضبط جمل محدودة، فأصبحت تذكر للطرافة والتسلية والقصة الآتية إحداها:

ذكر أبو حيّان في كتابه «البصائر»:

«سمعت ابن شاهين المحدّث في جامع المنصور يقول في الحديث:

«نهى النبي ﷺ عن تشقيق الحطب».

فقال قوم من بعض الملاحين:

كيف نعمل والحاجة ماسة إلى الحطب؟

وإنما نهى النبي ﷺ عن «تشقيق الخطب»، كأنه كره للخطيب أن يتكلف؛ والتكلف مكروه، لأنه زائد عما يحتاج إليه، والمنقوص عما يحتاج إليه أخف على النفوس من الزائد، وذلك أن الزيادة على المقدار نقص مكرر، والتقصير عن المقدار نقص غير مكرر». (١)

وهذا التحريف في القول بسبب نقطة واحدة نقل القول إلى معنى بعيد عن المقصود، وكاد أن يحرم الناس من أمر حلل لهم، ولا تستغني عنه حياتهم، لأنه من أكبر الضرورات للمعيشة اليومية، وللحياة بوجه عام.

(١) البصائر: ٦/ ١١٤، ربيع الأبرار: ١/ ٦١٨.

وهذا أمر تدورك قبل أن يأتي منه ضرر، ولكن هناك من الأخطاء الكتابية التي تسببت فيها نقطة واحدة ما أحدثت ضرراً بالغاً بمجموعة من الناس، وهو ضرر لا يمكن إصلاحه بحال من الأحوال:

يقال أنه بلغ أحد خلفاء الأمويين أنه كثر عدد المخنثين في المدينة المنورة، فأحب الخليفة أن يتأكد من عددهم، ليعرف مدى خطورتهم على المجتمع هناك، وهل أصبح الأمر ظاهرة توجب اتخاذ إجراء حاسم، فكتب إلى واليه في المدينة أن «يحصيهم»، فأخطأ الكاتب ووضع نقطة على الحاء فصارت «يخصيهم».

فلما ورد الخطاب على والي المدينة، ولعله كان ممتلئا غيظاً منهم، سارع إلى القبض عليهم، وخصاهم. ومن المؤكد أنه لما تبين اللبس لم يستطع أحد أن يصلح الخطأ، أو يتدارك ما وقع، أو يعيد ما فات. وعملت النقطة عملاً كبيراً لم يكن أحد

يتصوره إلا إذا تذكر الخطاب الذي يقال إن مروان كتبه عن عثمان لوالي مصر: «إذا أتاكم فلان فاقبلوه»، فكتبها «فاقتلوه»، على أن الرواية مهزوزة، ويشك في صحتها، خاصة وأن مؤدى الجملة لا يعني كثيراً بلفظة «فأقبلوه» المرادة أصلاً.

وقد يؤدي سوء الفهم إلى اتخاذ إجراء مؤذ، ولكنه مع الزمن القليل يندمل فيه الجرح، ويزول الأثر، وتعود المياه إلى مجاريها، ويصبح الأمر ذكرى فكهة، تقال في المجالس، وتروى في الكتب، ونأتي نحن ونستطرفها، وننقلها، ونتندر بها، كما حدث في القصة الآتية:

كتب بريد [عين الحاكم هناك في] أصبهان إلى محمد بن عبدالله بن طاهر:

«إن فلاناً يلبس الخرلخيّة (لعلها الثوب المطرز بالذهب) ويجلس للنساء في الطرقات».

فكتب محمد إلى يحيى بن هرثمة، وكان والي أصبهان:

«أشخص إلي فلاناً، وجز لحيته».

فصحف الذي قرأ عليه الكتاب، فقرأ:

«وجزّ لحيته».

فجزّها، وأشخصه آية».[1]

أرادوا شيئًا، وأراد الله شيئًا، فنفذت إرادة الله - سبحانه وتعالى - ولعل للرجل ذنباً لا يعلمه إلا الله، وَقّع عليه جزاءه وفاقاً.

وسوء الفهم أَوقَعَ أذى بالغاً برجل كان على صواب ظن قوم أنه خطأ فادح، ويعتبر عند عدم التحقيق إلحاداً ما بعده إلحاد، فأصبح الجانبان بسبب سوء الفهم متبادلي المكان، صار المخطئ هو المصيب، والمصيب هو المخطئ.

«قال ابن سيّابة: حضرت جنازة بمصر، فقال لي بعض القبط:

«يا كهل، من المتوفِّي؟» قلت: «الله عز وجل».

فضربت حتى مت».[2]

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٣٥.

(٢) البصائر: ١/ ١٥٥.

ابن سيابة صادق في رده حسب ما تقتضيه اللغة العربية، وتستوجبه قواعدها، والناس الذين أنكروا عليه هذا الجواب محقون أيضاً، بحكم الخطأ الشائع بين الناس إلى اليوم، فلا تجد من يقول «المتوفَّ، بفتح الفاء، وإنما دائما بكسرها».

والجهل لا حدود له، فقليل من العامة يفرق بين مثل هذه الأمور الدقيقة الدلالة، المتقاربة الحدود، وهم أحرص على المحافظة على ما يعرفون، وأكثر شكاً وريبة فيما لا يعرفون، وإذا توج هذا سوء ظن بالمتكلم، فإن باب الاستعداد للفهم، وإزالة سوء الفهم، يغلق بمتاريس، لا أمل في فتحها، أو اختراق بابها، أو اجتياز حصونها، أو تجاوز سدودها، والقصة الآتية توضح ذلك:

«سأل المأمون ثمامة: ما جهد البلاء؟

فقال: عالم يجري عليه حكم جاهل.

قال: من أين قلت هذا؟

قال: حبسني الرشيد، ووكل مسروراً (في

تاريخ بغداد: الأبرش بدلاً من مسرور) بي، فضيق عليّ الأنفاس.

ثم قرأ يوماً «والمرسلات»، فقال:

«ويل يومئذ للمكذَّبين».

فقلت: إن المكذَّبين هم الرسل، ويحك!

فقال: كان يقال: «إنك قدري فما صدقت، لا نجوتُ إن نجوتَ» فعانيت الموت يا أمير المؤمنين».[1]

في هذه المرّة نافست الفتحة والكسرة النقطة في الأمثلة السابقة، وكأنها تريد الا تجعل «المتوفى» وحدها في هذا الميدان. والأذى في كلا القصتين أذى بدني، ولكن أحدهما منقطع، جاء دفعة واحدة، والآخر أذى مستمر ومتفنن، واليد المؤذية في كلا الحالتين يد جاهل، ولكن الجاهل في أحدهما مسؤول، أما في الأخرى فغير مسؤول.

وأبو العتاهية عانى بسبب سوء الفهم، فقد أتهم بالزندقة، ولا تزال بعض الكتب التي

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦١٩.

تتحدث في ترجمته عن حياته تورد ذلك، والسبب عجيب، ولكنه لا يخلو من طرافة:

قيل:

كان عَلَى فصّ أبي العتاهية:

«أبا زند تَق».

فكان الناس يتأولونه:

«أنا زنديق».

واسم أبي العتاهية: «زند».[1]

مسكين أبو العتاهية، أتته التهمة من حيث أراد الأجر على حثه نفسه على التقوى، بطريقة مستمرة، لم يجد لها أفضل من فص خاتمه، الذي ينظر إليه في كل لحظة، ولا يتهيأ له أن ينساه، فأصبح تذكرة دائمة لعاذليه، ووسيلة مواتية لشانئيه.

ـ[2] وكان الناس في ذلك الزمان، وإلى وقت قريب، بل بعضهم إلى الآن، يحرصون على إقتناء

(١) البصائر: ٦/ ٧٦.

(٢) من هنا تبدأ إضافة إلى ما نشر في جريدة «عكاظ».

خاتم، ينقشون على فصه جملة، يختارونها بحيث لا يشبهها جملة أخرى، وغالباً ما تكون دينية، وتقوم مقام «الإمضاء» و «التوقيع» في عصرنا الحاضر، وليس أكثر أمانا لحفظه من جعله في الأصبع، بحيث لا يستطيع أحد المساس به، سواء كان صاحبه نائمًا أو متيقظاً.

ولعلنا نذكر قصة الجاحظ التي تروي أن امرأة طلبت منه أن يتبعها، فلما وصلت إلى دكان صائغ، أشارت له إلى الجاحظ، وقالت: «مثل هذا». وبعد أن انصرفت سأل الجاحظ الصائغ عن الأمر، فقال: إنها أحضرت خاتماً لأنقش على فصه صورة الشيطان، فلما قلت لها أني لم أَرَ الشيطان قط، قالت لي: أنا احضره لتراه، فجاءت بك!

فلم تكن فقط الجمل هي التي تنقش، وإنما الصور كذلك، والصور الوهمية أيضاً!

هذه أمور لعبت الأقوال في سوء الفهم فيها دوراً، وجاء بعض التضليل بسببها، واختلّت

بعض الموازين نتيجة لها، وبقي بسببها ضرر مؤقت، أو أذى دائم. وهناك أمور جاء سوء الفهم فيها بصورة فعل، أو سلسلة من الأفعال، وهي أيضاً ذات نتائج مماثلة، وحصاد متشابه؛ والقصة التالية عن الحكم حاكم الأندلس، وزوجته، وقيل في بعض الروايات جاريته:

«ذكر عن بعض الخاصة أن كريمة من كرائم الحكم - رحمه الله - ذكرت أن الحكم قام عنها ليلاً، فساء به ظنها، على ما يتوهم النساء، ويسبق إليهن من وجه الغيرة، قالت:

فقفوت أثره، فوجدته في بعض الأماكن يصلي ويدعو.

قالت: فلما انصرف أعلمته بما ظننت، وبما فعلت، وبما رأيته عليه من الصلاة والدعاء.

قالت، فقال لي: كنت قد قلدت محمد بن بشير القضاء بين المسلمين، فكانت نفسي عليه طيبة، وقلبي به واثقاً، وكنت مستريحاً من أخبار الناس،

وظلاماتهم، لِما علمت من عدله وثقته، حتى أعلمت هذه العشية أنه في السياق، وأن الموت قد حضره، فقلقت لذلك، واغتممت، وقمت في هذه الساعة أدعو الله، وأبتهل إليه، أن يوفق لي رجلاً عوضاً عنه؛ تسكن إليه نفسي، فأوليه القضاء، قضاء المسلمين بعده». (١)

وفي مصدر أندلسي آخر تأتي القصة هكذا، وفيها بعض التفصيل المفيد:

«فلما توفي ذلك القاضي الحكم ابن هشام إكتأب الحكم لمصابه، وجزع على وفاته، فحُكي عن «عجب»، جاريته، قالت:

إني لفي الليلة التي أُعلم فيها بوفاة القاضي عنده بائتة، فلما كان في جوف الليل فقدته عن مضجعه، فخرجت أطلبه، فإذا هو قائم يصلّي في دكان (المصطبّة) الدار، فقعدت فيما يليه أنتظره؛ فسجد سجدة أطالها حتى غلبتني عيناي، ثم

(١) قضاة قرطبة: ٨٧.

انتبهت، فإذا هو ساجد على مثل حالته، ثم غلبتني عيناي، فما راعني إلا وهو يحركني لانصداع الفجر.

فأقبلت عليه أسأله: ما الذي أقلقه عن فراشه؟

قال: خطب عظيم، ومصاب جليل؛ كنت قد تفرجت من أمور الرعية بالقاضي الذي كان الله قد كفاني به ما كفاني، فخشيت ألا أصيب منه خلفاً، فدعوت الله - عز وجل - أن يوفق لي قاضياً مثله، أجعله بيني وبين الناس.

فلما أصبح دعا بوزرائه، ثم قال لهم:

تخيروا للرعية من يتولى الحكم فيهم، واستعين به على ما قُلدتُه من أمورهم، فدله مالك بن عبدالله القرشي على محمد بن بشير». [1]

يبدو أن الرواية الأولى أقرب للصحة في أن المتوفى هو محمد بن بشير، وليس الحكم بن هشام، إلا إذا كانت هذه حادثة وتلك أخرى، وتكرر في

---

(١) أخبار مجموعة: ١١٠.

الثانية ما حدث في الأولى.

هذه القصة جاء فيها سوء الظن من الفعل لا من القول، وهناك قصص يشترك في سوء الظن فيها القول والفعل ومن النماذج في ذلك القصة الآتية:

«كان ابن عباس يقول:

من أهديت إليه هدية، وعنده قوم، فهم شركاؤه فيها، فأهدى إليه صديق ثياباً من ثياب مصر، وعنده أقوام، فأمر برفعها، فقال له رجل:

ألم تخبرنا أن من أهديت له هدية، وعنده قوم فهم شركاؤه فيها، فقال:

إنما ذلك فيما يؤكل ويشرب، ويشم، فأما في ثياب مصر فلا». (١)

لقد أساء جلساء عبدالله بن عباس فهم ما قاله عبدالله، فأبان لهم ما خفي عليهم، وفصّل ما لم يفصله.

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٤٣.

وتماثل هذه القصة في سوء الفهم بالقول مما يتبعه فعل يتأثر به، القصة التالية:

«قال بعض السلف:

كيف أقبل شهادتك، وقد سمعتك تقول لمغنية: أحسنت؟

قال: أليس لم أقل ذلك إلا بعد سكوتها؟

فأجاز شهادته».

لقد أزال المستحسن لغناء المغنية ما جاء في ذهن القاضي من فهم أنه كان يستحسن غناءها، وأوهم أنه إنما استحسن سكوتها عندما سكتت؛ فسوء الفهم أولاً كاد يحرمه من قبوله شاهداً، فكلمته لفظ، وما كاد يقع فعل.

وقد يقصد سوء الفهم أصلاً في التعبير، لهدف معين، قد يكون مؤقتاً مثل ما فعل شريح في القصة الآتية:

«خرج شريح من عند زياد في علته، فسئل عنه، فقال:

تركته يأمر وينهى. فقام الواعية، فقيل له: ألم تقل كذا وكذا؟

قال: تركته يأمر بالوصية، وينهى عن النوح». [1]

وبعد:

فإن الحيل كلها تكاد تستند في نجاحها على اتقان سوء الفهم المتعمد المخطط له جيداً، فالفهم لما يقال أو يعمل في هذه الحيل لا يتم كشفه إلا بعد وقوعه، عندما يكشف المستور، ويبين المخبأ، فالذي يضع في يده حب القمح يغري به طيراً، متظاهراً أنه لإطعام الطائر، ولمصلحته، إنما يخبئ ما لا يظهر، ولا يريده أن يُعلم، فهو يريد أن يصطاد الطير بهذه الحيلة، لمصلحته هو لا لمصلحة الطير، وهكذا كل أمر فيه حيلة.

(١) البصائر: ٥/١٩٢، ربيع الأبرار: ١/٧١٦.

الرشوة في القديم[1]

الرشوة داء اجتماعي خطير، ينخر في استقرار المجتمع وسلامته إذا انتشر، ويقضي على سعادته إذا استفحل، ولا يسهل القضاء عليه إذا أصبح أمراً معتاداً بين الناس، لا تُقضىَ الحوائج إلا به، فلا يأتي النفع إلا عن طريقه، ولا يدفع الضرر إلا بالركوب على مطيته، ولا يوصل إلى الغرض إلا بالجلوس على سرج حصانه الكريه.

ومرحلة عصيانه على العلاج إذا أصبح ارتكابه علنا، وصار فعلاً منبثاً منتشراً، تُتلمس لوجوده الأعذار، وتُفتعل المبررات، ويصبح وهو الخارج على القانون هو القانون، ويصبح وجهه القبيح جميلاً، وفعله الشائن مليحًا، يسبق إليه الكبير قبل الصغير. ورغم أنه انتشر في الزمن القديم في بعض المجتمعات، إلا أن ما سجل عنه كان يبدو فيه

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٢٦٧) في ١٢/ ٤/ ١٤١٥هـ الموافق ١٧/ ٩/ ١٩٩٤م.

الرعب من وجوده، والخوف من انتشاره، والحث على مقاومته، والاجتهاد في التنفير منه.

وهو داء لا ينقطع، ويوجد في كل مجتمع تقريباً، وقياس صحة المجتمع وبراءته منه ليس في عدم وجوده البتة، ولكن في ندرته، وفي نبذه ومقاومته، واحتقار مرتكبه من أي الطرفين الراشي والمرتشي بل والرائش الذي يكون وسيطاً بينهما، يُسهّل ارتكابه، ويمهد السبيل لذلك، ويقلل في أعين من يتصل بهم خطورته أو خطأه؛ إنه يقوم بدور الشيطان نيابة عنه.

وقد حذر منه الدين الإسلامي، وأبان العقاب فيه دنيا وآخره، وكرر القول فيه، وأبان قبح صفحته، وكلاحة وجهه، وجعله من النواقص الاجتماعية التي يجب التنبه لها، والقضاء عليها في مهدها، قبل أن تتمكن عروقها من أرض أخلاق المجتمع، وتستقى بمياه آسنة من نقص الخلق، وعدم خوف الله، وتلاشي الوطنية.

ولا بد أنه وجد منذ القديم، منذ وجد الضعف في النفس البشرية، سواء ممن يصعّب السهلَ حتى يضطر الناس إلى تسهيل الوصول إلى حقوقهم عن طريق تقديم مرهم سلاسة مفاصل ضعيف النفس، أو ممن يريد غير حقه، فيسلك طريقاً ملتوياً ليصل إلى ما يريد، مما هو من حق غيره، سواء في كسب مادة، أو في إسقاط عبء، أو في اختصار وقت أو إطالته.

وتأتي الرشوة أحياناً مباشرة، وبوجهها الطبعي سافرة، وأحياناً تختفي تحت ستار، وتلبس ثوب الهدية، أو الإعانة، أو دعوى استحقاق غير صحيح.

وقد لاحظ الأقدمون أن الهدية أحياناً تكون هي المطية للرشوة، وسرعان ما تضع جانبا البرقع الذي وضعته على وجهها، وتزول أصباغ الهدية الجميلة ليتبين ما كان مزوراً تحتها من وجه قبيح، ولون أسود بالنية السيئة، والقصد المرذول:

يقول الشاعر:

«إذا أتت الهدية دار قوم
تطايرت الأمانة من كواها»[1]

تطير الأمانة وتختفي من الدار التي دخلتها الرشوة، لأن الرشوة خيانة، ولا يجتمع الضدان، وهي لا تنسحب بهدوء، ولا تبتعد بانتظام، ولكنها تتطاير أشلاء من هول الداخل ولؤمه.

وإذا كان هذا هو حكم الشعر، فإن للأمثال حكمًا أيضاً، فالعدو خطير ومخيف، ولا بد من تكاتف وسائل القول حِيَالَه:

في الأمثال: «الهدية تعمي وتصم».[2]

ولم يغب عن رسول الله ﷺ، وهو المعصوم، خطر الهدية للوالي أو العامل من قبل ولي الأمر، فأشار بأصبع واضح إلى نوع من الهدايا، مما يوحي بالبعد عنه:

---

(١) سراج الملوك: ٤٢٤.
(٢) سراج الملوك: ٤٢٤.

«روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ استعمل رجلاً يقال له ابن اللتبية، فلما جاء قال: يا رسول الله هذا لكم، وهذا أهدي لي، قال: فغضب النبي ﷺ وقال: ما بال الرجل نستعمله على عمل من أعمالنا، فيقول: هذا لكم، وهذا أهدي لي، أفلا قعد في بيت أبيه وأمه، فينظر هل يهدى إليه». [1]

والهدية تلين القلب، وتمهد للمراعاة والمحاباة، ولا يستوي من أُهدي له وقَبِل الهدية مع من لم يُهد له أو من لم يقبل الهدية.

ولم ينج من محاولة الرشوة عن طريق الهدية عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - وهو من هو في هيبته وعدله، وصحابيته.

«عن الشعبي أن رجلاً كان يهدي إلى عمر بن الخطاب كل عام رِجل جزور، خاصم إليه يوماً، فقال: يا أمير المؤمنين، إقض بيننا قضاء فصلاً، كما تفصل الرِّجل من سائر الجزور، فقضى عمر

(١) سراج الملوك: ٤٢٣.

عليه، وكتب إلى عماله:

ألا إن الهدايا هي الرشا، فلا تقبلن من أحد هدية». [1]

ويقال إن الذي أهدى هدية رجل الجزور امرأة من قريش، وذكر ذلك ابن قتيبة. [2]

وعمر عندما قبل الهدية كان يسير على سنة رسول الله ﷺ في قبول الهدية، إلا أنه تأكد له، كما ذكر، أن الهدايا هي الرشا بعينها، فحذر من قبولها، فإذا كان الراشي لم يتورع من محاولة رشوة عمر فلن يتورع أصحاب المصالح من رشوة غيره ممن هم أقل منه هيبة وورعاً وصحبة.

هذا والناس في عصر الصحابة، وعصر الصحابة أصفى العصور وأنقاها، ولكن العنصر السيء متوافر في كل مجتمع، ولقد تقررت الحدود في زمن الرسول ﷺ، ونفذت في زمنه، دليل أن الشيطان

(١) أخبار القضاة: ١/ ٥٦، الاشراف: ٢٥١، ٢٥٤، ٢٩٥.
(٢) عيون الأخبار: ١/ ١١٤، البصائر: ٦/ ١٣٩.

يقظ، وله ضحايا حتى في تلك الأيام.

ولو تتبع متتبع أمر الرشوة منذ ذلك الزمن إلى اليوم، لوجد أن نشاطها لم يختف، وأذاها لم ينقطع، وقد دون في الكتب كثير من قصص الرشوة سواء ما كان منها صحيحاً، أو مختلقًا، لتشويه سمعة من لم يجد أعداؤه الطريق للنيل منه إلا باتهامه بأنه يرتشي.

وقد يكون من بين هذه التهم التهمة التي أراد أعداء المغيرة بن عبدالله أن يلصقوها به، فصاغوها صياغة جذابة، وجعلوه يعلق على التهمة بقول منطقي طريف:

«قال اسحاق:

كان الحجاج استعمل المغيرة بن عبدالله الثقفي على الكوفة، فكان يقضي بين الناس، فأَهْدى إليه رجل سراجاً من شَبَهٍ (نحاس أصفر)، وبلغ ذلك خصمه، فبعث إليه ببغلة، فلما اجتمعا عند المغيرة جعل يحمل على صاحب السراج، وجعل صاحب

السراج يقول: «إن أمري أضوأ من السراج»؛ فلما أكثر عليه قال: ويحك إن البغلة رمحت السراج فكسرته». [1]

لعل هذا الجزء الأخير في القصة لطرافته هو الذي أوحى بالقصة بكاملها، وما دام المغيرة من عمال الحجاج ومنصوبيه فاحرِ به أن يقال عنه هذا وما هو أكثر، خاصة من أهل الكوفة الذين أعضلوا بعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وأتعبوه وحيروه في أمر الولاة الذين ينصبهم عليهم، حتى عين المغيرة بن شعبة، ومع هذا فلم يسلم المغيرة من تهمة كبرى، احتكم فيها هو ومتهموه عند عمر، ولم يسلم المغيرة من الحد إلا بنقص شهود الإثبات عن أربعة.

وإذا كان الولاة قد جاء منهم ما جاء في أمر الرشوة فالقضاة أيضاً عرضة لمثل هذا، والقاضي المرتشي أخطر من الحاكم المرتشي، لأن القاضي هو

(١) عيون الأخبار: ١/ ١١٤.

المرجع النهائي في الدنيا للعدل، فبيده أمانة تنفيذ الأحكام الشرعية، على هدي القرآن والسنة. فإذا حاد لم يبق من يلجأ إليه على الأرض، واختلال القضاء خطير، لأنه يركس المجتمع في الحضيض، ويقضي عليه، فلا يتنسم رائحة السعادة، ويؤول به الأمر إلى شريعة الغاب، يفوز بالأحكام من يملك مال الرشوة، ويغالي فيه، ويقال إن الله سبحانه قضى على بني إسرائيل عندما فسد عندهم القضاء:

قال ابن اشوع: «والله ما هلكت بنو إسرائيل حتى طلب فيهم قاض فلم يوجد». [1]

أي أنه لم يوجد شخص بالأمانة والعلم يصلح أن يعين قاضياً ويطمأن إلى حكمه وسيرته.

وتهمة الرشوة لمن يخاف الله مرعبة، لأنها تلمس الأمانة، والأمانة أغلى شيء لدى الإنسان، فإذا خدشت لم يبق شيء، يعتز به، ويطاول به ويفتخر، الإرتشاء برهان على الضعف، والضعف نقيصة

(١) تاريخ القضاة: ٢/ ٢١.

يجفل منها كل ذي عقل وخلق، والرشوة اعتراض على حكم الله - سبحانه وتعالى - لأنها محاولة للكسب خارج الحدود التي شرعها، وهذا يعني عدم الرضى بما سن الله وشرع، وارتضى لخلقه، فعطاؤه لهم بقدر ما هيأه لهم، وهيأهم له؛ والخروج عن الخط المرسوم المحدد الواضع تمرد جهير، يوجب الاحتقار؛ والرشوة خطوة إلى الظلم، وتجاوز العدل، وهذا من أكبر المآخذ، لأن الله - سبحانه وتعالى - حرم الظلم على نفسه، فكيف يقدم عليه فرد ضئيل من خلقه، ظلوم جهول.

لهذا ارتعب شريح لما قيل له إن ابنك يرتشي، وذكّره القائلُ بضعفه، مما أوحى له أنه، إن صَدَق ما قيل عن ابنه، فإنه قد يستغل ابنه هذا الضعف فيؤثر عليه لصالح الراشي، وإن لم يكن القول صادقاً، فإن شريحاً فضل أن يبعد عن التهمة، لأنه:

«قد قيل ما قيل: إن صدقاً وإن كذباً
فما اعتذاراك من قول إذا قيلا»

وسمعة القضاء هشة، وكلمة الزور حيالها تسري وتنتشر، لأن:

نصف الناس أعداء لمن
ولي الأحكام هذا إن عدل

ونصْف المتقاضين محكوم عليهم، ولم يتراجعوا راضين، بل كانوا ساخطين، يعذِّرون لأنفسهم، ويتّهمون القاضي بالغفلة أو التحيّز، أو الوقوع تحت تأثيرٍ ما:

«روي عن شريح قال:

أتاه مرجل فقال: أيها القاضي، «كبرت سنك، ورقّ عظمك، وقلّ فهمك، وارتشى ابنك».

فدخل على الحجاج، فقال: أيها الأمير أعفني، قال: لِمَ؟ قال: كبرت سنّي، ورقّ عظمي، وارتشى ابني.

فعزله وولّى أبا بردة بن أبي موسى، وأقعد معه سعيد بن جبير.[1]

(١) تاريخ القضاة: ٢/٤٠٨.

وما دام في الناس من لا يهمه العدل، وإنما يحرص على المنفعة لنفسه حتى لو كانت اقتطاعاً ظالماً من حقوق الآخرين، فإن إبليس يجد فيهم الأداة الطيعة للإغواء، وقد نجح في مهمته في إحدى الحالات، إذ وجد بغيته فيمن استطاع أن يستجيبَ لدعوته:

«تقدم رجل إلى ابن هبيرة فقال:

«أصلح الله الأمير! إن قاضيك هذا يرتشي».

قال: إرتشى منك؟

قال: نعم.

فدعا ابن هبيرة بِحلّة، فقال:

إرشه هذه، حتى أنظر، يقبلها.

ففعل، وراح ابن العداء [القاضي] على ابن هبيرة فيها، فعزله». (١)

ابن هبيرة يعرف عداوة الناس للقاضي، فلم يرد أن يأخذ الأمر على علاته فيبهته، ولم يرد أن يرد

(١) تاريخ القضاة: ٣/ ٣١٥.

المتَّهَمَ، فقد يكون صادقاً، فلجأ إلى وسيلة ذكية، تليق بابن هبيرة، وجعلها هي المحك لمعرفة الصدق من الكذب، وقد نجح، والوالي إذا صدقت نتيه مع الله، وفقه الله إلى الفعل السليم، وسدد طريقه إلى العمل الناجح المفيد؛ وابن هبيرة لا بد أن أمر القضاء يهمه، لأهميته للحكم، ونجاحه فيه.

ومن أكثر الحكام رعباً من الرشوة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لا لأنه تعرض لها، وبرهنت له التجربة مدى القصد السيء فيها، ولكن لأنه يدرك أنها السوسة النخرة التي تأكل عمل المسؤول، وتقضي على سلامة عمله، وكان يرتعب من ظهور ما قد يدل على أنه من علاماتها، وقد وضع قاعدة لحكمه على عماله، منها ينطلق في بدء الحكم عليهم بخروجهم عن الخط المستقيم المرسوم لهم:

مر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ببناء

يبنى بحجارة وجص، فقال: لمن هذا؟ فذكروا عاملاً له على البحرين، فقال:

«أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها».

وشاطره ماله.

وكان يقول:

«لي على كل خائن أمينان: الماء والطين».[1]

وزمن عمر يمثل مرحلة دقيقة في تاريخ الخلافة الإسلامية، فالفتح الإسلامي في أوله، وقد بدأ الناس يتلامسون مع الحضارات القديمة، وأبرز ما فيها التقدم العمراني، وكثرة المال والجواهر، واللباس الثمين، وقد شعر - رضي الله عنه - أن السيل الجارف آت، وأن العربي الآتي من الصحراء القاحلة قد لا تكون عنده المقاومة لكل هذه الإغراءات.

ولهذا فعمر يرتعب لئلاّ يؤخذ هو والأمة بالرعب الذي يقال إنه ورد في أحد الأحاديث النبوية:

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ١١٦، ربيع الأبرار: ١/ ٣٣٨.

قال عليه السلام:

«ما من قوم ظهر فيهم الرشا إلا أخذوا بالرعب». [1]

ومقياس الوالي الذي يريده عمر كفاية في الحكم، ونزاهة في اليد، وأمانة في الأموال، هو عمير بن سعد، والي حمص، الذي فاجأ عمر بما لم يظن أنه يوجد:

«دخل عمير بن سعد على عمر، لما رجع إليه من ولاية حمص، وليس معه إلا جراب وأداوة وقصعة وعصا. فقال عمر:

ما الذي أرى بك من سوء الحال؟

فقال: أولست تراني صحيح البدن، معي الدنيا بأسرها.

قال: وما معك؟

قال: جرابي أحمل فيه زادي؛ وقصعتي أغسل فيها ثوبي ورأسي؛ وإداوتي فيها ماء سقيتي؛ ومعي

---

(١) تاريخ القضاة: ١/ ٥٠.

عصاي، إن لقيت عدوّاً دافعته بها؛ وما بقي فتبع لما معي.

قال صدقت». [1]

كم من مثل عمير يحتاج عمر، لينام قرير العين. رحم الله عمر رحمة الأبرار، ورضي عنه، فقد كان قلقاً على المسلمين في هذه الفترة التي يشهد فيها بدء تحول في المجتمع بسرعة مذهلة.

(١) محاضرات الأدباء: ٧٢.

بريق الخرافة[1]

عند النظر في أحد المعاجم لتتبع معاني كلمة «خرافة» نجد أنها كما جاء في معجم «الصحاح» اسم رجل من «عذرة» استهوته الجنّ، فكان يحدث بما رأى، فكذّبوه، وقالوا: «حديث خرافة».

ونجد أيضاً أن الخَرَفَ هو فساد العقل من الكِبَر، ويروى عن أبي النجم العِجلي قوله:

أقبلت من عند زياد كالخَرِف
تخط رجلاي بخط مختلف
وتكتبان في الطريق لام ألف

أما نحن اليوم فنعرف الخرافة، إذا قيلت، لأنها قول غير معقول، ولا يسير على منطق، ويخرج عن نطاق ما اعتاد الناس عليه فيما يمكن أن يصدق، ولو بقي الأمر على هذه الصفة، الواضحة لنبذ الناس كلهم الخرافة، وهجروها، وابتعدوا عنها،

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٢٦٢) في ١٩/ ٤/ ١٤١٥هـ الموافق ٢٣/ ٩/ ١٩٩٤م.

ولكسد سوقها، وخبا نورها، ثم اختفت من الوجود، لأنها بضاعة مزجاة، لا مشترىَ لها، ولا طالبَ يبحث عنها، وإن أهديت ما قبلت، ومن يقبل شيئًا من وعاء الجنون، لا يسنده منطق، ولا يعضده عقل.

ولكن الخرافة تحمل في داخلها جاذبية تشد عقل مستقبلها، إذا تلاءمت مع ظروفه، فقد تكون الخرافة على هذا معزّية، وقد تكون مسلية، وقد تحمل في ثناياها بعض الصور الطريفة، أو الأفكار الغريبة. وقد لا تخلو من أمر مفيد، ومعنى سديد، منزو لم تدنسه الخرافة بإطارها العام.

هذه الميزات التي قد تحملها الخرافة، والفوائد التي قد تكون مخبأة في ثناياها، تهيء مهداً دافئًا ناعماً لها في آذان السامعين، مما يسمح ببقائها وروايتها، ويبقيها حية مع الزمن؛ ولما فيها من طرافة أو غرابة، فقد اجتذبت بعض الكتاب، وأغرت بعض الأدباء، فدونوا منها ما أختاروا،

وتناقلوا عنها ما استحسنوا، فأصبح عندنا حصيلة ثرّة، ومجموعة متنوعة، تخلخلت العصور حتى وصلت إلينا.

وبعض هذه الخرافات هو طرح دوحة مجتمعاتنا في العصور المختلفة، وبعضها تسلل إلينا من أمم أخرى، فوصلنا عن طريق النقل كتابة أو مشافهة، وبعضه جاء سليماً كما كان يروى في زمنه وبلاده، وبعضه تأثرت صورته أثناء النقل، خاصة إذا كان الناقل من العامة.

وتأخذ الخرافة، في الغالب، صورة القصة، ولهذا فمن الطبيعي أن تتعرض للتشويه والتحريف، أو الزيادة أو النقص، إلى الحد الذي يخرجها عن صورتها الأصلية، فتصبح لا هي قصة معقولة مقبولة، متماسكة الأجزاء، متناسقة التتابع، ولا هي خرافة ينظر إليها في ضوء أصول الخرافة، فأحياناً ينبتر جزء من الأساس الذي تقوم عليه، فلا يبقى بعد ذلك إلا مظهر مرفوض، يذوي

تدريجياً، ثم يموت مع الزمن، فينسى مثلما حدث مع الخرافة التي كانت في بعض مدن نجد، وهي أنه إذا مرّ شخص من فوق جسم شخص متمدد، فعليه أن يعود مرة أخرى، فيمر من فوقه عكس اتجاه مروره الأول، وكأنه ينقضه؛ فإذا لم يفعل، واكتفى بالمرور الأول فإن النائم أو المتمدد قد يموت.

وعند عرض الأمر على أبسط مقاييس العقل نجده مضحكاً، إذ ما دخل هذه الحركة بموت إنسان أو حياته، ثم إذا كان هناك شيء من هذا القبيل فأولى بالموت أن يتأكد بالحركة الثانية، لأن العمل الذي أوجب الموت قد أعيد وأكّد؛ والمعروف أن الفعل إذا أقدم عليه فله نتيجة، فإذا كرر تكررت النتيجة، وتضاعفت، فالإنسان إذا ضرب شجرة بفأس ضربة فاصلة فإن الجذع يصبح جذعين، فإذا ضربها ضربة أخرى فاصلة، فإن الجذع يصبح ثلاثة؛ وهكذا!

وعلى نسق هذه الخرافة، وإعادة الضربة فيها،

ما كان يقال لنا، في القصص الخرافية، ونحن صغار، من أن غولاً أخذ بنتاً، فتبعه أخوها بعد مدة لينقذها منه، فأعلمته أنه لا يقتل إلا بسيفه هو، وعليه أن لا يضربه أكثر من ضربة واحدة، ولا يعيدها، لأن الضربة الأولى تؤدي إلى قتله، أما الثانية فتوقف موته.

ويبدو أن السيف فيه حلقات أو أجراس، تصدر صوتاً كلما حرك، ولهذا وجد الأخ صعوبة في سلّ السيف فكلما سلّه أصدرت الأجراس صوتاً يوقظ الغول من نومه، وكانت المرأة توهمه بأنها هي التي حركته، لتنظفه، أو ما إلى ذلك، ونجح أخوها في نهاية الأمر من أخذ السيف وسله كاملاً، فضرب به الغول ضربة قوية، فلما طلب منه الغول أن يعيدها فيضرب ضربة ثانية تمسك الأخ بوصية أخته فلم يجبه، وقال: «ما عودتني أمي الردّات»!

وقد وجدت شيئًا في التراث يشير إلى مثل هذا،

ولعل النقل هو الذي أبعد بين الصورة التي ذكرناها وما في التراث، فاختصر الناقل إحدى الصورتين:

«الأعراب والعامة تزعم أن الغول إذا ضربت ضربة ماتت، إلا أن يعيد عليها الضارب، قبل أن تقضي، ضربة أخرى، فإنه إن فعل ذلك تمت». [1]

ولذلك قال شاعرهم:

«فثنيت والمقدار يحرس أهله
فليت يميني قبل ذلك شلت» [2]

والغول والغولة، في حد ذاتهما، خرافة، إذ لا وجود لهما، وخشية من أن يذكر الناس ذلك فيرفضون القصة التي يرد ذكرها فيها، أضيفت لخرافة الغول خرافة إعادة الضربة، ليضمن القاص حسن الاستماع لها بإنصات، وأخذها بالقبول، فالخرافة الثانية إذاً جيء بها لتشد من أزر الأولى، ولتقويها، وتوقفها على قدميها، وهذا

(١) الحيوان: ٦/ ٢٣٣.
(٢) بهجة المجالس: ٣/ ١٧٧.

يضمن له التأثير الذي أراده.

والصحراء وليلها، وما فيها من ظلام ووحشة، وما يأتي به الظلام والخلاء من رعب ساعد على رواج القصص الخرافية، فنفعت في إزجاء الوقت، وأفادت في تعليل بعض الظواهر الطبيعية المبهمة، وساعدت أيضاً على قبول ما تحويه القصص من أمور لا تقف على قدمين عند التدبر والتفكير؛ وفائدتها التي حكمتها البيئة، والحاجة للإمتاع في وقت الراحة والتسلية، جعل لها سوقاً رائجة، تغص بالبائعين والمشترين.

والخرافة أحياناً تبرز للوجود، وتزدهر في بعض المجتمعات، لأنها تعلل لبعض الظواهر التي قد لا يكون لها تعليل سهل ملموس، ومؤكد، وقد تكون القضية المطلوب تفسير الظاهرة فيها لا شيء منها موجود في تلك البيئة، وليس فيها شيء من مادتها، وإنما هي متخيلة عن بيئة أخرى، أجنبية عن ذلك المحيط، فلا تجد الخرافة من يحتج على

مرماها، فتزدهر من أجل ذلك، خد مثلاً القصة الآتية، ففيها من الطرافة والغرابة ما سوف تراه:

«بعد أن أهلك الله رجال فرعون، ولم يبق غير النساء، علق ابن كثير بقوله:

ذكر ابن عبدالحكم في تاريخ مصر:

«أنه من ذلك الزمان تسلط نساء مصر على رجالها، بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجن بمن دونهن من العامة، فكانت لهن السطوة عليهم، واستمرت هذه سنة نساء مصر إلى يومنا هذا». [1]

وهذا القول خرافة من أساسه، فالنساء متماثلات في كل بلد، وفي كل زمان، ومنهن المسيطرة، ومنهن المسيطر عليها، وعلى هذا فليس صحيحاً أن كل نساء مصر مسيطرات على رجالهن، ويغلبنهم على أمرهم، ولم يشهد أحد على ذلك في أوانه، ولم نره نحن الآن؛ وكم من رجل، بين رجال مصر، مثل غيره من رجال البلدان الأخرى، له السيطرة

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير: ٣١٦.

الكاملة على زوجته، وكم من رجل في مصر، مثلما هو في غيرها، متهم بالقسوة والشدة على أهله؛ وكم من امرأة هناك، كما هو في كل مكان من الدنيا، مسالمة مهادنة، ربة بيت مثالية في طاعتها لزوجها، وحسن احترامها له. ومدخل الخطأ يأتي من تصور شيء غير قائم، ثم يتبع بالتعميم، الذي هو دائماً مطية الخطأ.

والغربيات مسيطرات على أزواجهن، ولهن الأولوية، فهل كان لهم فرعون أيضاً غرق مع كبار قومه!!

ولكن هذا القول الخرافي طريف وجذاب، لأنه يجد في كل العصور أناساً يتمتعون بسماعه، ويتناقلونه على أنه معقول في نظرهم، لأنه عن غيرهم، والسوء عند غيرك لا يؤلمك!

وكثير من الخرافات تأتي من الصورة التي اعتاد الناس رسمها في أذهانهم عن الجن، وكل أمر غامض من السهل تعليل سببه إلى الجن، والأمراض

والشرور لا بد، لتهدئة البال تجاهها، وإدخال الطمأنينة على الناس حيالها، من إيجاد خرافة تصغر أو تكبر، تقرب من السخرية، أو تبتعد، والمهم أن يكون فيها بعض التأثير الذي يبقيها حية، وأن تكون دليلاً مقبولاً للاستشهاد، ومجالاً للاقناع، ويساعد على ذلك خيال جامح، وتنميق في الرواية.

والقول الآتي يفسر بعض ما ألمحنا إليه هنا:

«وكان إذا دخل أحدهم قرية خاف من جنّ أهلها، ومن وباء الحاضرة أشد الخوف، إلا أن يقف على باب القرية، فيعشر كما يعشر الحمار في نهيقه، ويعلق عليه كعب أرنب، ولذلك قال قائلهم:

ولا ينفع التعشير في جنب جِرمة
ولا دعدع يغني ولا كعب أرنب»[1]

(والجِرمة: ما جرم وصرم من النخل، ودعدع: كلمة يقولونها عند العثار).

(١) الحيوان: ٦/ ٣٥٨.

والخرافة هنا فرضها الخوف من الجن، والخشية من الأوبئة، ولم تأت تفكها ولا تسلية؛ ويبقى الغموض أمامنا يلف أمر التعشير، وصلته بالجن؛ فهل هناك عقيدة عندهم في أن صوت الحمار المنكّر المقطّع يرعب الجنّ ويخيفهم؟ فإذا كان هناك شيء من هذا، فمن أين جاءت هذه المعلومات لهم؟ وكيف اكتشف الإنسان أن الصوت يزعج الجن كما يزعجنا، هل الأمر أمر قياس؟ ثم ما دخل كعب الأرنب؟

ويبدو أن بعض العظام في الحيوانات الصغيرة لها حظ في أن تلعب دوراً فعالاً في الخرافات، فهناك عظم في الدجاجة في صدرها يشبه القوس، يقال إنه يجلب الحظ في اعتقاد الإنجليز، والحظ عندهم سهل القياد، مطيع لأي خرافة يختارونها، فحذوة الحصان عندهم تجلب الحَظّ، وهي لهذا تعلق على مدخل البيت، وعلى بوابة المزرعة، وأحياناً تربط خلف السيارة، وفي سلسلة المفاتيح؛

ولو كان لهم عمامة لعلقوها عليها!

والقطة السوداء تجلب الحظ، بل إن القطة السوداء، والشخص الأسود، إذا دخل أحدهما في ليلة رأس السنة، دون ترتيب مسبق مع أصحاب البيت، فإنهم يستبشرون، ويتوقعون أن تكون سنتهم بيضاء مزدهرة، وهي عقيدة مضادة لمظهر الأمر، فالسواد حسب عقيدتهم هذه يجلب البياض، ولعل العقول هنا حظوظ أيضًا!

ونثر حبات من الأرز خلف سيارة العروسين، وهما يغادران الكنيسة عادة متمكنة عندهم، وعندهم أنها تجلب الحظ لهما.

والعين حق، إلا أنهم يلحقون بها خرافة، فأنت إذا قلت لأحدهم: إن مرور الزمن لم يؤثر عليك، وإنك تبدو أصغر من سنك بعشرين سنة، قال: «إلمس الخشب»، وراح يضع يده على أقرب شيء مصنوع من الخشب، وكأنه يفرغ شحنة العين في الخشب فلا تصيبه. ورغم تقدمهم في العلم المبني

على العقل، إلا أنه لا يزال عندهم رواسب خرافات من الماضي، يحملونها معهم، ويعبرون بها نهر الزمن، ويتلقفها الخلف من السلف، وتعتبر طرفة من الطرائف أحياناً، وعند الجد يتمردون عليها وعلى بعض أنواعها، مثل الأعرابي الذي كسر الأزلام التي استشارها في أخذه بثأر أبيه، فخرجت كلها تشير عليه أن لا يفعل، فما كان منه إلا أن حطمها وقال: «والله لو كان المقتول أباك لما نهيتني». إلا أن الأمر عند الغربيين أحياناً يأخذ مأخذ الجد، ويجعلهم يقدمون على عمل فيه خطوات أساسية.

فمثلاً: هم يتشاءمون من الرقم (١٣) تشاؤماً عجيباً، ولا بد أن لهذا أصلاً يعود إليه، فالغرفة (١٣) لم يعد لها وجود في كثير من الفنادق، والطابق (١٣) مثلها لا يجد طريقه للولادة أصلاً، ولكن الرقم (١٣) أحياناً مشاغب، ويفرض نفسه، فإذا وقف الشخص في «طابور» ليلتحق

بعمل، أو «ليقطع» تذكرة سفر بالطائرة أو القطار، أو ليدخل المسرح أو السينما، أو ليدلف إلى معرض من المعارض، أو محاضرة أو ندوة، فقد يجد نفسه الثالث عشر في الصف، ولا محيص له من قبول ذلك، لأنه لو انسحب منه لحل غيره محله، فالرقم كما تقول العامة «فيه فيه».

هذه بعض نماذج مما عندهم من الخرافات التي «يعكم» دخانها في مجتمعاتهم، وتخيم غيومها على سماء حياتهم.

ـ[1] وإذا كان تعشير الرجل مثل نهيق الحمار يأتي به ليحميه من الجن، أو المرض، فهناك خرافات يؤتى بها دون هدف واضح إلا الطرافة، وقصد الغرابة، واستثارة الدهشة، مثل بعض القصص التي يسوقها صاحب كتاب قصص الأنبياء، ومنها قوله تعليقاً على الآية: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾.[2]

---

(١) من هنا يبدأ الجزء الذي لم يظهر في صحيفة «عكاظ».

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٢.

«وأن الملك بعث معهم عنباً، كل عنبة تكفي الرجل، وشيئًا من ثمارهم، ليعلموا ضخامة أشكالهم. وهذا ليس بصحيح». [1]

وليس بصحيح أيضاً ما يقال عن عوج بن عنق:

«وذكروا أن عوج بن عنق خرج من عند الجبارين إلى بني إسرائيل ليهلكهم، وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاث مئة وثلاثين ذراعاً.

هذا ذكره البغوي وليس بصحيح - كما قدمنا بيانه عند قوله ﷺ: إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن». [2]

ويزيد الخيال في هذا، ويركب على هذا الطول المفرط لعوج ابن عنق قصص تتناسب مع هذا الطول، فيقال أنه يدخل يده في البحر ويأخذ السمكة بيده، ثم يرفعها تجاه الشمس فيشويها بها، ولا بد أنها حوت أو قرش ضخم، وليس سمكة مما يتناسب معنا.

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير: ٣٢٠.

(٢) قصص الأنبياء: ٣٢٠، البصائر: ٩/ ٥٣.

وقد شرّقت هذه القصة وغربت، وكان من بين البلدان التي وصلت إليها، والمجتمعات التي أدهشتها بلاد ما وراء النهر، حيث يقيم الملك المغولي بركة.

فقد ذكر محيى الدين بن عبدالظاهر في سيرة الملك الظاهر بيبرس عن رسل بيبرس عندما وصلوا إلى «أردو» الملك المغولي المسلم بركة، واستقبلهم فمن جملة ما سأله بعض الأمور المدهشة:

قال محيى الدين وصفاً لاستقبال بركة لرسل بيبرس:

«ولما دخلوا إليه أمر وزيره بقراءة الكتاب، ثم نقلهم عن يساره إلى يمينه، وسألهم عن النيل، وقال: «سمعت أن عظماً لابن آدم ممتداً على النيل يعبر الناس عليه».

فقالوا: «ما رأينا هذا».

قال القاضي محيى الدين، مؤلف السيرة:

نقلت من خط أبي زكريا يزيد بن إياس بن

القاسم صاحب تاريخ الموصل، قال:

قال عبيدالله بن إسحاق:

بلغنا أنه لم ينج من الغرق إلا من كان في السفينة، ورجل يقال له عوج بن عنق، زعموا أن الماء إلى نصف ساقه، ثم أهلكه الله تعالى بعد ذلك فيما يزعمون، في زمن موسى - عليه السلام - ولم يكن له ولد».

وقال محمد بن إسحاق:

إنه كان يضرب بيده، فيأخذ بها الحوت من البحر، فيشويه في حرّ الشمس حتى ينضجه، ثم يأكله، وكان عمره فيما يذكر ثلاثة آلاف سنة وست مئة سنة، وكانت أمه من بنات آدم، فعاش حتى قتله موسى - عليه الصلاة والسلام -.

وذكر في سلامته من الغرق ما ذكره الطلحي:

وكان ارتفاع الماء فيما رُوي عن وهب بن سليمان عن شعيب الجباي قال:

«سبق ماءُ الأرض ماءَ السماء بأربعين يوماً،

وعلا الماء فوق أطول جبل في الأرض مسيرة خمسة أشهر صعداً. وقيل إن الماء علا فوق كل شيء، خمسة عشر ذراعاً.

وقد ذكر أن موسى - عليه السلام - كان طوله سبعة أذرع بذراعه، وقفز عن الأرض سبعة أذرع، فوصل إلى كعبه. وما صح ذلك.

والدليل على أن أطوال الناس متناسبة أنه منذ قيام الدنيا وإلى هذا الوقت، أن الناؤوس، وهو القبر الموجود الآن بالأهرام، ولا خلاف أنه قبر بانيها، وهو على طول الإنسان؛ وكذلك بقية النواويس الموجودة في مصر القديمة وغيرها؛ والأهرام بنيت - فيما ورد - قبل طوفان نوح - عليه الصلاة والسلام - لأن بانيها رأى في علمه أن آفة من الماء تهلك العالم، فبناها وقاية له. والصحيح أنها قبور، والله أعلم». [1]

ومن خرافات الجاهلية التي يبدو أنه أتي بها

(١) الروض الزاهر: ٢١.

للتهويل، وإعطاء الإنسان أكثر مما يمكن أن يكون له، وأغرب مما يتوقع منه، للتسلية أحياناً، وإزجاء الوقت، وشد انتباه السامعين أحياناً أخرى؛ ولعل كل طفل، وكل قليل عقل، يدهش، ويفغر فاه، وهو يستمع لهذه القصة، وأمر وحشية أمثال هؤلاء الشاذين، وأكلهم لحوم البشر مما يروج في بعض المجتمعات، والقصة تروى بهذه الصورة:

«كان على كتف الضحاك بن الأهبوب بن يموج بن طهمورث سلعتان [غدتان]، يحركهما إذا شاء، وادُّعي أنهما حيتان، يهوّل بهما على الضعفاء.

وذُكر أنهما يضربان عليه، فلا يسكنان حتى يطليهما بدماغي إنسانين يذبحان له في كل يوم. وكان له وزير صالح، فكان يستحيي أحدهما، ويضع مكان دماغه دماغ كبش، ويأمر الرجل باللحوق بالجبال، وألاّ يأوي إلى الأمصار، فيقال إن الأكراد من تلك القوم لكردهم إلى الجبال». [1]

(١) سرح العيون: ٧٦.

ولأن الخرافات لا تناقش على أساس المنطق، وما يقتضيه العقل، فلا يحق لنا أن نقول: ما دام أن دماغ الكبش يكفي، فلماذا لا يستعيض هذا الملك بكبشين عن الرجلين؟!

ويبدو أن مما يهم في هذه القصة هو إبراز غريزة الشر عند هذا وغريزة الخير عند ذاك، وليُضْمن حسن الاستماع، ودقة الأنْصَات والمتابعة، جيء بالصورة البشعة، فما هي إلا باب يلج منه القاص إلى هدفه. ولعله أتي بها بهذه الصورة، لأن أمر الغول قد اكتشف من بعض الناس أنه خرافة، فإلى أن تكتشف هذه على أنها خرافة، يفكر القصاصون، وما أغلاهم في مجتمعهم، بخرافة أخرى.

ومظاهر الطبيعة تحير الإنسان وتخيفه، فالرعد والبرق والرياح يغيب عنه تعليل أسبابها، ولا يعقل ما يقف وراءها، ولهذا فهو يتلمس أسباباً هي أقرب لعقله إلى القبول، والخرافة هي إبراز فتح الشهية لهذا القبول، فهي مزلق سهل للدخول

إلى عقول الناس البدائيين، ويأتي في هذا أعاجيب، والبروج وأسماؤها هي أقرب ما يأتي إلى الذهن، والنجوم كذلك، وتغير الأجواء، . ودخول فصل أو خروج آخر، ودخول نجم أو خروج آخر، ميادين واسعة يجول فيها فكرهم، وعربتهم هي الخرافة، وهذه إحدى التأويلات التي يسوقونها عن أيام العجوز، وهي من الأمور التي تلمس حياتهم لما يأتي معها من طقس يؤثر على طريق معيشتهم:

«أيام العجوز:

زعموا أن عجوزاً دهرية كاهنة من العرب كانت تخبر قومها ببرد يقع في آخر الشتاء، يسوء أثره على المواشي، فلم يكترثوا لقولها، وجزوا أغنامهم، واثقين بإقبال الربيع، فإذا هم ببرد شديد، أهلك الزرع والضرع، فقالوا أيام العجوز، وبرد العجوز.

وقيل هي عجوز لها سبع بنين، فسألتهم أن يزوجوها، وألّحت، فقالوا لها:

«أُبرزي للهواء سبع ليال حتى نزوجك».

ففعلت والزمان شتاء، فماتت في السابعة، فنسبت إليها الأيام.

وقيل: هي الأيام السبعة التي أُهلك فيها عاد.

وقيل: الصواب أيام العجز، وهي آخر الشتاء».[1]

وهذا التعليل الصحيح الذي ذكره المؤلف بعد كل الآراء هو الاستنباط المنطقي الذي ينطبق على هذه الأيام، وهو أقرب إلى العقل، ويأتي للذهن مباشرة عند من يعرفون هذه الأيام؛ ولكن الخرافة تأبى إلى أن تحشر نفسها، وتطل برأسها المظلم ليكون كلفا معيباً لوجه الحقيقة المضيء.

وإذا كانت العامة عندنا في بعض المناطق يقولون: «إكسروا شربة» خلف مسافر ثقيل الدم حلّ بدارهم، و «اكسروا زيراً» خلف من هو أثقل دماً، أو من كرر الزيارة المرفوضة، فإن العرب الأوائل:

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٨٧.

«كانوا يوقدون ناراً خلف مسافر لا يحبون رجوعه، وكانوا يقولون:

«أَبعده الله وأسحقه، وأوقد ناراً أثره».

ومنه قول الشاعر:

صحوت وأوقدت للجهل ناراً
ورد عليك الصبا ما استعارا

أي طردت الجهل ورفضته، وعبرّ عن ذلك بإيقاد النار خلفه». [1]

وهناك خرافة اخترقت حصون عقول بعض المسلمين، وتسللت إليها، فقبلتها، وقد خدّر المقاومة في العقول ما قيل من أنها حدثت في مكة، وفي الحرم، وفي المطاف، واعتمد القاص على إيمان الناس بقدرة الله سبحانه وتعالى، فدس هذه الخرافة التي لا يقبلها عقل، ولا تقف أمام الفحص والتشريح، وهذه الخرافة تقول:

«قال ابن أبي زياد:

---

(١) ربيع الأبرار: ١/١٨٤.

جاء ثعبان فحال بين الناس وبين الطواف، فدعا أهل مكة، فجاء طائر أظل نصف مكة حتى اختطف الثعبان فرمى به في البحر!». [1]

أن يأتي ثعبان للمطاف فأمر مقبول، وأن يرعب الناس ويحول دونهم ودون المطاف إلى أن يتدبروا أمرهم، ويأتوا بوسيلة يقضون بها عليه، فأمر يمكن أن يحدث، وأن يدعوا الله فيساعدهم على التخلص من أذاه، والقضاء عليه، فما ذلك على الله بعزيز، وهم عباده، واتجهوا إليه بقلوب واجفة، فنظر إليهم برحمته. أما أن يأتي طائر يغطي ظله نصف مكة، فيأخذ هذا الثعبان فأمر لا يقبله عقل، ولا يقبل أحد اتهام أهل مكة بعجزهم عن ثعبان ضخم، جاء من أين؟ الله أعلم! ولا أظن أن سكان مدينة يصل بهم الجبن إلى الحد الذي يجعلهم لا يعملون أكثر من الدعاء!

ثم كيف عرفوا أن الطائر قد رماه في البحر،

---

(١) البصائر: ٣/١٤٦.

والبحر بعيد، ولكنها الخرافة التي تساهم على شغل ذهن المجتمع فترة، ولعل فيها رحمة للناس، لأنها تنسيهم همومهم، وأحزانهم، ويقال إن الدولة العثمانية، وهي تقاتل في البلقان وغيره، إذا هزمت، وبدأ الناس يتحدثون عن الهزيمة، ويتأسفون على أبنائهم الجنود الموتى شغلوهم بسنّ ضرائب ما أنزل الله بها من سلطان، فيتذمرون ويضجون، والدولة العثمانية يهون عليها التذمر والتضجر، عند نشر الرعب، وجلب الخذلان من جراء الهزائم، فهل قصة الثعبان من هذا النوع من شغل الأذهان؟!

وتروى قصة لا يستطيع الإنسان أن يقبلها لبعدها عما يحتمله العقل، وإن كان الإطار العام مقبولاً، فالشجرة قد تكبر وقد يصبح ساقها متيناً إلى الحد الذي يمكن أن ينخر منه طريق تمر به سيارة، أما أن تظلل فرسخاً، فهنا يبدأ الشك، وتطل الخرافة برأسها:

«كان بقرية «كشمر» من «رستاق بست» سروة من سرو الآزاد من غرس يستاسف، لم ير مثلها في حسنها وطولها وعظمها، وإظلالها فرسخاً، وكانت من مفاخر خراسان، فجرى ذكرها عند المتوكل، فأحب أن يراها، فلما لم يتقدَّر له المسير إليها كتب إلى عبدالله بن طاهر، وأمره بقطعها، وحمل جذعها وأغصانها في اللبود على الجمال، لتنصب بين يديه حتى يبصرها، فأُنكر عليه ذلك، وخُوِّف الطيرة، فلم تنفع السروة شفاعة الشافعين.

وحكي عن أهل تلك الناحية [أنهم] ضمنوا مالاً جليلاً على إعفائها فلم ينفع، فقطعت وعظمت المصيبة، وارتفع الصياح والبكاء عليها، ورثاها الشعراء، وقال علي بن الجهم:

قالوا سرى لسبيله المتوكل
فالسرو يسري والمنية تنزل
ما سربلت إلا لأن إمامنا
بالسيف من أولاده متسربل

فجرى الأمر على ذلك، وقتل المتوكل قبل وصول السروة إليه». [1]

ويبدو أن شؤم السروة أحد مبررات قتل المتوكل، وجزء من تغطية الحقيقة في قتله. ولا يهمنا إلا الضخامة الخرافية، للشجرة، أمَّا قطعها والتعسف في ذلك، وغضب الناس، فهو أمر جائز.

وتأتي الخرافة رمزاً نبيلاً، واضح الهدف، سامي القصد، خلفه نية حسنة، وطيّهُ موعظة بالغة، يتغلغل تأثيرها في النفس، ويلمس شغاف القلب؛ وتأتي صياغته متناسقة متناغمة، تساعد على القبول والتلقي، والقصة الآتية تمثل هذه الخرافات التي تأتي من هذا النوع:

«تشاجر رجلان في قصر، فأنطق الله لبنة من الزاوية، فقالت:

«إعلما أني كنت إنساناً مثلكما ألف سنة، ثم متّ، فكنت رميماً ألف سنة، ثم كنت حِبًّا (زيراً»

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٢٧٢.

ثلاث مئة سنة، ثم كُسرتُ فصرت تراباً، فضربتُ لبنة، فوضعتُ في بناءَ هذا القصر منذ ثلاث مئة سنة؛ فحياءً لكما، بعد ما سمعتما، أن تتشاجرا، وتأخذا بتلابيبكما». [1]

وقد نفاجأ أحياناً بهدم أمرٍ اعتقدناه، وآمنا بوقوعه وصحته، وبنينا عليه أفكاراً ودراسات، ثم يأتي من يأتي ويقول: إنه غير حقيقي، وأن هذه القصص خرافية ومركبة في ذهن أدباء، كما ركب الحريري أشخاص المقامات، بل أكثر:

«ذكر أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني عن عوانة قال:

ثلاثة لم يكونوا قط، ولا عرفوا: ابن أبي العقب، صاحب الملاحم، وابن القرّيّة، ومجنون بني عامر». [2]

وقد دون صاحب كتاب «البصائر» شذرات من

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٣٦٨.
(٢) هامش ربيع الأبرار: ١/ ٤٥٧.

الخرافات التي كانت سائدة، وهي تعطي صوراً مختلفة عن المعتقدات التي تكمن وراءها، وفي كثير منها يبدو الغموض فيما يكون السبب في وجودها، وكيف تغلغلت في المجتمع، حتى أصبحت مقبولة من جميع أفراد المجتمع الذي يؤمن بها، ويتصرف في ضوئها، وإليك بعض منها:

١- «يقولون: إذا دخل الذباب في ثياب أحدهم مرض».

ولعل هذا البلد الذي يسود فيه مثل هذا الرأي بلد قليل الذباب، ولو كان من بلداننا القديمة لما بقي فيها صحيح من كثرة ما يدخل الذباب في ثياب الناس.

٢- «وإذا حكته يده قال: آخذ دراهم».

ولعل حكة الدرهم غير حكة الدينار، وقد لحقتُ على أناس في مجتمعنا يؤمنون بهذا، ولا بد أنها بقية جاهلية تسربت عن المتنبئين في زمن قديم.

٣- «وإذا حكته رجله قال: أمشي إلى مكان بعيد».

وعلى الأقل في هذا القول توافق العمل وأداته، خلافاً لحكة اليد، وإن كانت أيضاً هي أداة الأخذ، والملاحظة ليست على الأخذ وإنما على المأخوذ. وهذا التنافر يتضح أكثر في الخرافة الآتية:

٤- «إذا حكه أنفه قال: آكل لحم [كذا]».

ولعل قائل هذا فقير قَرِم إلى اللحم، ومثله القائل:

٥- «إن حكه وسطه قال: آكل سمك [كذا]».

والقول العجيب في تفصيل الأمر بين حركة جفن العين إلى أعلى أو أسفل:

٦- «وإن اختلجت عينه من فوق قال: أرى إنسانًا لم أره منذ حين، وإذا اختلجت من أسفل، قال سوف أبكي، أسأل الله السلامة».

ويضطرب القول في الخرافة الآتية، فيتنافر طرفاها:

٧- «وإذا وجد ثقلاً في المنام من المِرّة السوداء قال: وقع عليّ بختي، وعض إبهام نفسه»، وقال: «دلني على كنز».

ويتفاوت ذكر الحية، وليس غريباً هذا على مجتمعاتنا، فأنا أذكر - ونحن صغار - كان أهلنا يحذروننا من «الصفير»، لأن الحية تأتي على سماعه في الليل، وينهوننا عن ذكر الحية، فذكرها يتسبب في مجيئها، ولعل هذا انطلاق من القاعدة الخرافية التي تقول إذا ذكرت شخصاً جاء، ويعبرون تعبيرات مختلفة، فمجتمع يقول: «ابْن الحلال عند طاريه» و «الطاري» هو الذكر، ومجتمع آخر يقول: «إذا أطريت الحصان فولّ العنان»، ومجتمع ثالث يقول: «ذكرنا القط جانا ينط»، و «إذا ذكرت الكلب فولّ العصا».

أما ما أورده صاحب البصائر فهو:

٨- «ولا يقولون «حية، ويقولون «طويلة»، وإذا غلط أحدهم فقال: «حية»، قالها ثلاثاً».

وهنا تعود إلينا خرافة إعادة ضرب الغول ضربة واحدة، ويبدو أن الوِتر مهم، فهنا لم يُعد كلمة «الحية» مرتين وإنما ثلاثاً.

٩- «وإذا أشار إلى صاحبه بالسكين غرزها في الأرض، وقال الشيطان يعمل عمله».

١٠- «وإذا كسف القمر ضربوا بالطست، وقالوا: (يا رب خلصه)».

ولا ندري ما في ذهنه عما يكون قد استولى عليه حتى يخلص منه.

١١- «وإذا طنّت أذن أحدهم، قال: ترى من ذكرني؟».

وأمر الأذن وطنينها قائم في مجتمعنا حتى اليوم، وفيه تفصيل ليس هنا، وهو أنه إذا صاحت الأذن اليمنى فصاحبها قد ذكر في تلك اللحظة بخير، وإن كانت اليسرى فالذكر شر.

١٢- «وإذا أراد أحدهم أن يبول بالليل بصق

أولاً ثم بال».

١٣- «وإذا صاح الغراب قالوا: خير خير، وأنت شر طير».

وليس هذا غريباً فالغراب بشير شر عند الناس، ونعيقه مثل صياح البوم مشؤوم، وإذا كانت البومة تسكن الخراب، فلا يفاجأ المرء بالنظرة المتدنية إليها، أما الغراب فلعل نعيقه المزعج هو المنفر منه.

١٤- «وإذا أراد أحدهم أن يشد زرّه إذا انقطع أخذ في فيه تِبْنَةً، وقال: حتى لا يكذب علي أحد».

١٥- «ولا يقولون: «عقرب»، ويزعمون أنها تعرف اسمها فتهرب، ويقولون تمرة».

والمتوقع أن يفرحوا بهربها، إلا إذا كان حرصهم عليها لقتلها، والتخلص منها.

١٦- «وإذا ذكروا الجن بالليل أخذوا بأطراف آذانهم».

ولعل هذا يعني أنهم سوف يؤذّنون، والأذان قد يكون في معتقدهم يطرد الجن، لأن المؤذن يضع يديه على أذنيه عند الأذان عادة، ولعل ذلك لأنه يريد أن يعلو صوته، فلا يؤذي أذنيه، ولهذا نجد هذا الوضع.

١٧- «ويكرهون البول في الميزاب، ويقولون: هي منازل القمر».

أما كره البول في الميزاب ففضيلة، حتى لا يصيب البول عابر سبيل، وهذا أمر متعارف عليه إلى وقت قريب في بيوت الطين، وكان الأطفال أقرب من يفعل ذلك، ويقدمون عليه كسلاً في النهار، وخوفاً من الذهاب إلى المرحاض في الليل للظلام. أما أنها منازل القمر فهذا جانب الخرافة في هذا القول.

١٨- «ويقولون: دية نملة تمرة».

ولو أدى الناس دية كل نملة يدوسون عليها، ويقتلونها بأرجلهم في سيرهم لأفلسوا من التمر، والتمر في تلك الأيام، ولبعض الناس، غالٍ ثمين.

١٩- «ويقولون: في كل رمانة حبتان من الجنة».

ولعل قائل ذلك بائع رمان حتى يُشترى ما عنده.

٢٠- «وإذا مسح أحدهم يده بثوب صاحبه بصق، وقال: حتى لا أبغضه».

ولا ندري ما دام حريصاً على محبة صاحبه ما الذي يدعوه إلى مسح يده في ثوبه.

٢١- «وإذا رش أحدهم على وجه إنسان ماءً قبّل يده، وقال: حتى لا يصير نمش».

ولعل هذا القول يكون وسيلة للاعتذار عما حدث.

٢٢- «وإذا صاحت البومة قالوا: منا السكين ومنك اللحم».

ولا أدري كيف يقبلون اللحم من البومة، وهي لا تصيد إلا القوارض مثل الفئران وغيرها. ومن الغريب أن تكون نظرة هؤلاء إلى البومة رمز الشؤم أقل قسوة من نظرتهم إلى الغراب، كما مر بنا هنا.

٢٣- «وإذا رأوا الخنفساء في ليالي الشتاء قالوا: مباركة ميمونة، وإذا رأوها في ليالي الصيف قالوا: رسول العقرب».

ويقبل قولهم إنها «رسول العقرب»، فهذا ليس غريباً لأنهما يكادان يتلازمان في الصيف، أما أنها ميمونة، فهذا صعب القبول، لبشاعة منظرها، ودناءة نفسها، والأماكن التي تستكن فيها.

٢٤- «وإذا طار الخفاش بالليل، فسمعوا صوته، قالوا: هذه الساحرة تطير»، لا إلٰه إلا الله، كأنما طيرانها ثوب يشق، ويكبون الطست، ويقولون: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.[1]

وأمر الساحرات وطيرانهن خرافة كان لها صورة معينة في نجد، وكان هناك نوع من الطيور يهاجر في الصيف، فإذا مرّ فريق منه، وسمع الناس صوت حفيف أجنحته، قالوا هاته الساحرات، ينتقلن من بلد إلى بلد، وأحياناً يعينون «عمانا»،

(١) سورة الأعراف، الآية: ١١٨.

ويقولون: إنهن يأتين منه. ويزعمون أنهن ينخرن «نبعاً» جذع نخلة، ويدخلن فيه بعد أن يسحرنه، وأنهن شابات جميلات، وإذا أردن من الجذع أن ينهض يقلن له: «طِرْ بين انثوين أو ثلاث» فيطير، ويذهبن للنزهة.

ويركب الناس حكايات عن أنهن يأتين لبعض الغدران في الصحراء فيسبحن، وإن إحداهن أحبت شخصاً على الغدير، وأنها تزوجته سرّاً، وعندما أرادت أن تعود من إحدى هذه الزيارات هي وزميلتها قالتا للنبع: «طر بين انثوين» فلم يطر، فقالت إحداهن للأخرى، أخشى أنك حامل، فقالتا «طر بين انثوين وذكر» فطار.

ويقال إنهن يحملن أحجاراً، وأحقاق زباد وعطور، فإذا مررن بأحد، وطلب منهن زباداً وهن طائرات، فإن أعجبهن رمين إليه بحُق زباد، وإن لم يعجبهن رمين بفهر، حجر كبير، أو يد هاون. ويذهب الخيال بعيداً في بعض قصصهن.

إذاً ليس غريباً أن تكون خرافة السحارات منتشرة ومعروفة منذ زمن مضى.

٢٥- «ويطرحون في حبّ الدقيق جوزة لها ثلاثة خطوط يزعمون فيها بركة».

وما أكثر الأشياء التي يتوهمون أن فيها بركة، بعضها هم محقون فيما يقولون عنها إذا رأينا فوائدها، وبعضها خرافة قد تخدش الاعتقاد.

٢٦- «وإذا طارت من السراج شرارة إلى فوق قالوا: ينقص من أهل البيت واحد، وإذا وقعت إلى أسفل قالوا: يجيء غداً زائر».

والملفت للنظر مثلما سبق هو التفرقة بين ما يذهب إلى أعلى، وما ينزل إلى أسفل!

٢٧- «وإذا غسلت السنورة وجهها قالوا: هدية».

وما أكثر ما يغسل القط وجهه، ولو صدق ما قالوا لامتلأ البيت بالهدايا، والمفروض أن تكون له لا لهم.

٢٨- «وإذا نكس أحدهم في مرضه أخذوا له دهناً من سبع دور، ودهنوا رأسه».

وقد يكون لذلك صلة بالعين، فهو يشبه ما يفعله أهل نجد في زمن قريب مضى، من ملء وعاء بالماء والوقوف عند باب مسجد الحي، لينفث فيه المصلون، بعضهم يأخذها على أنها رقية، وبعضهم يأخذها على أنها دفع للعين.

٢٩- «وإذا أصابت الطفل العين أخذوا له من بول سبعة أنفس، أحدهم حبشي، ماء، وصبوه عليه».

ويبدو أن الهدف هو إفراغ العين حتى تخرج منه، فليس هناك شيء يقزز أقبح من هذا الماء، ولعل النفس تفهم وتدرك، وتعرف و «تقرف» أيضاً، فتشمئز فتخرج!!

٣٠- «وإذا خرج به قوباء خط حولها خاتم سليمان، ومسحه بالتراب، وقال بالغداة: كيف أمسيتِ؟ لا أصبحت، وبالعشي: كيف أصبحت؟ لا أمسيت».

وقد أدركت أناسًا يعالجون القوباء بما يشبه هذا، فهم يضعون حولها دائرة بالفحم، ثم يضعون عليها تراباً، ولكنهم لا يزيدون عن الدعاء بالشفاء. ويظن بعضهم أن للتراب مفعوله فيها.

٣١- «وإذا خرج على لسانه بثرة قال: خبأ لي إنسان شيئًا طيباً وأكله».

وهو تصور عجيب، وفكر غريب، وكيف خطر هذا التفسير البعيد على البال، إلا إذا كان بقية لخرافة أطول، اختصرها الزمان، وقرض منها فلم يبق إلا هذه «النتفة».

٣٢- «وإذا لسعته عقرب، غسلوا الحَصَى، وسقوه ماءه».

وليس في هذا كما يبدو فائدة، إلا أنه نفسياً قد يلعب دوراً كبيراً في تهدئة الملسوع، فهذه الحركات أمامه تلهيه عن ألمه، ثم بعد أن يسقى إياه يبدأ الأمل يرفع من معنويته، ثم يتوهم أنه بدأ مفعوله

يعمل، ومع مرور الوقت يبدأ الجسم يستوعب السم، ويتخلص منه، فيخف الألم.

ولسعة العقرب، تلعب الناحية النفسية دوراً فعالاً فيها، فبعض الناس يحتفظ بحجر كريم يعتقد أنه يمتص سمها، ويكون أحياناً شبه «سبيل» ووقف في الحي أو القرية، يستعيره الناس عند الحاجة.

ويزعم أناس أن النقد من الفضة يفيد في ذلك، وقد يكون للفضة فائدتها، وقد يكون منظر الريال نفسه، وما أغلاه في تلك الأيام، دور في تخفيف الألم، ورفع معنوية الملسوع.

٣٣- «وزعموا أن من أكل لحم سنور أسود لم يعمل فيه السحر».

ولا أدري عن أسباب اختيار القط الأسود، إلا أن السحر له أموره المبهمة التي لا تكشف لغير أرباب المهنة، والقط الأسود له اعتبار خاص دائماً، فالجن لا يعجبهم أن يتلبسوا إلا صورة قط

أسود، ولا أنسى رهبتنا ونحن صغار من القط الأسود، خاصة في الليل عندما ينعكس النور على عينيه، فلا يتبين منه مع الظلمة إلا هُمَا. وكانت القطط في نجد متوحشة، ولا تأنس الناس، فكان هذا مما يزيد الاعتقاد بصلتها بالجن.

ولا أنسى أول قط مستأنس في عنيزة، أحضره أو أحضرها رجل جاء بعد أداء فريضة الحج، فأصبحت هذه القطة المستأنسة فرجة للناس، ينظرون كيف تقف للناس وتتمسح بهم، ولا تنفر منهم.

٣٤- «وزعموا أن عبدالله بن هلال صديق إبليس كان يغوص بالكوفة في الطست، ويخرج من ساعته بتاهرت».

ولا بد أن في هذه الخرافة خدعة، خاصة وأنه لا أحد يستطيع أن يذهب في اللحظة إذا كان قد خرج في تاهرت أو لم يخرج، أما دخوله في الطست، فلعل في هذا، إن صح، سحرًا للعيون.

ويعلق أبو حيان التوحيدي، صاحب البصائر والذخائر، بعد أن عدد هذه الخرافات وغيرها فيقول:

٣٥- «وهذه أبواب خفية، ليس يثبت معها روية، ولا يصح لمن اعتقدها عزم، وربما غلط فيها من هو فوق الناقص الغبي، ودون النحرير الذكي، فيحسبها حقاً». [١]

هذه بعض صور للخرافة، بأنواعها وأشكالها، بعضها قديم انقطع، وبعضها لا يزال حياً، إما كاملاً كما بدأ، أو بقي مع بعض التحريف زيادة أو نقصاً، وكما رأينا، هناك شيء من الخرافة يعرف أصله، وشيء ضاعت معالم بدئه، وشيء بقي له جزء من المنطق رغم وضوح الخرافة فيه، وشيء دخله الغموض فلا يعرف له تعليل.

والخرافة لا ينقطع اختلاقها، ولكل زمن خرافات تنسجم مع الحياة فيه، وما يمكن أن يقبله الناس.

---

(١) البصائر: ٩/ ٥١-٥٥.

هموم وهموم[1]

خلق الله الإنسان وخلق معه الهموم، فهي لازمة له، لا تفارقه، وهو دائمًا ينتقل من هم إلى هم، ويخرج من هم إلى هم، يتغلب على هم ليبرز له هم؛ الهم يناور الإنسان، يأتيه من جهة، فإذا سدّ هذه الجهة، جاءه من جهة أخرى، والهم بارع في المناورة، والمفاجأة والمباغتة، قد يتغلب الإنسان على هم صغير فيطل برأسه عليه هم كبير، وقد يتغلب عليه هم كبير فإذا انتصر عليه فوجئ بهم صغير.

والهم يأتي للصغير والكبير، وللرجل والمرأة، وللغني والفقير، وللقادر والعاجز، وللحضري والبدوي، وللعالم والجاهل، وللحاكم والمحكوم، وللقوي والضعيف، وللعاقل والجاهل، وللذكي والغبي؛ لا ينجو منه أحد، ولا يسلم من ثقله إنسان.

---

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٢٦٩) في ٢٦/ ٤/ ١٤١٥هـ الموافق ٣٠/ ٩/ ١٩٩٤م.

والهم حمل ثقيل، وعبء باهظ سواء كان صغيراً أو كبيراً، لأنه يبدو أن الله - سبحانه وتعالى - قد وضع في ذهن الإنسان حيزاً معيّناً، ليكون وعاء للهموم إذا نزلت، وهذا الإناء يمتلئ بالهم صغر الهم أو كبر؛ إن الهم يملأ هذا الإناء، فإن كان الهمّ كبيراً ضغط نفسه، ليستكمل داخل الحيز، وإذا كان صغيراً انتفخ وملأ الحيز، فبمجرد ما يتبين من الحادث أنه هم يستعد الحيّز لاستقباله، وتبدأ جميع الحواس للعمل عليه، ومن أجله، ويصل صدى عملها إلى أجزاء في الجسم لا دخل لها بالذهن، ولكن تتجاوب معه، لأن الله - سبحانه وتعالى - ربطها به.

فإذا انشغل الذهن بشيء صار التركيز عليه، وجاء في بؤرة التفكير، وانزوت الأمور الأخرى في الهامش، وتراجعت إلى الحاشية، حتى لا يكاد يشعر بها، أو يدري أنها موجودة، وقد تكون في الماضي القريب همّاً ملأ السمع والبصر، وأخذ حيّز

الذهن بكامله، وإذا انشغل الذهن بهمّ ما تصرفت الأعضاء الأخرى والملكات تصرفاً منفصلاً عن المركز والبؤرة، وقد يصل تأثير التفكير إلى بعض أجزاء من الجسم فينبهها التنبيه الضار، لأنه أعملها أكثر من طاقتها، أو أخرجها عن النطاق المسموح لها به.

فعمق التفكير قد يجعل الأيدي والأرجل تتصرف مستقلة عن الذهن، خلافاً للعادة، ولعملها الطبيعي، فقد تسير رجل الإنسان به إلى غير الوجهة التي يريدها، فإذا ركب أداة من أدوات الاتصال والسير وجهته الشرق، فقد يجد نفسه في الغرب، وإذا كان في يده ورقة مهمة فقد يسهو عن التركيز عليها، لأن الهم صرف ذهنه إلى شيء آخر، ثم لا يلبث أن يجد أنه مزّق هذه الورقة، أو مصغها:

أذكر أننا ونحن طلاب في البعثة في مصر، وكان وقت آخر الشهر، وكانت شمس المكافأة، التي

نستلمها، في رؤوس العسبان، كما يقول المثل الدارج، وكان اليوم يوم خميس، وهو يوم العطلة للطلاب في أن يخرجوا للفسحة مساءًا، ويتناولوا عشاءهم خارج دار البعثة، وهو محسوب لهم في المكافأة.

وفسحة مساء الخميس معروف محتواها: عشاء وسينما وفسحة على النيل، والسينما تختار على أساس أن الفيلم جديد، وفي سينما وسط البلد، وهذه تكون غالباً غالية، وعليها ازدحام يحتاج إلى حجز مسبق، ولا يقدم عليه الطالب إلا في أول الشهر، أو مدعواً من قبل قادم من مكة «مقرش»، أو أن الفيلم قديم فاتت رؤيته عندما كان في وسط المدينة، وانتُظر حتى انتقل إلى الضواحي، أو سبق أن رؤى داخل المدينة، واشتيق إلى رؤيته مرة أخرى.

وكنا في ليلة من ليالي الجمع، مساء الخميس، خمسة طلاب، أربعة من القاهرة، وواحد من

الاسكندرية، وهذا الذي من الاسكندرية ضيف وفد علينا، ولا بدّ من إكرامه، كما كان يكرمنا عندما نزوره، وإن كان في الغالب يكرمنا على حسابنا ومن جيوبنا، ويغالطنا في المصاريف، ويظن أننا لا نعلم ونحن نعلم، وإن كان لا يهمه أن نعلم أو لا نعلم، فالمبلغ خارج من جيوبنا خارج، وقد قرأنا عليه السلام، وهمنا الآن في طلب الدفعة الثانية، وإلحاحه عليها.

ومن جملة مغالطاته - حفظه الله - أنه كان يركبنا في الترام في الاسكندرية، ويأخذنا إلى الطابق الأعلى، ويدّعي أنّ هذا هو الدرجة الأولى، والقيمة فيها مضاعفة، وكنا نغمض عيوننا، أملاً في خدمته لنا، وأجرة لضيافته لنا بإسكانه لنا في شقته، وأملاً في السلامة من مقالبه، التي غالباً لا نسكت عليها، ونكيل له الصاع صاعين فيها، وهذه من كثرتها وطرافتها تستحق أن يكتب عنها منفردة.

فكرنا بإكرام ضيفنا الذي تخرج فيما بعد طبيباً،

واستقر الرأي على أن نقضي الأمسية بالذهاب إلى شبرا، لأن هناك فيلماً جميلاً انتقل إليها من داخل المدينة، وبعد السينما نتعشى «سندويتشات» في أحد الأماكن المشهورة بساندويتشات الكِبَد والكلاوي (على الواقف). وهذا يعني أن علينا أن نوفر نقوداً لخمس تذاكر للسينما، وقريشات للعشاء، ومبالغ لتذاكر الذهاب والإياب في الترام. وبعد جهد، لأننا في آخر الشهر، استطعنا أن نوفر المبلغ، ورغم توفره ظاهراً إلا أنه نقص عن أن يوفر تذاكر إلى باب البعثة في العودة، وهذا يقتضي أن نسير كيلين أو ثلاثة على الأقدام في آخر الرحلة، وفي وقت متأخر من الليل.

وذهبنا، ودخلنا السينما، وأكلنا السندويتشات، «وقطعنا» تذاكر العودة، وركبنا الترام، وجعلنا التذاكر مع أحدنا، وهو - رحمه الله - كان طالباً في كلية العلوم، والكلية جادة، وهو جاد أيضاً، وهموم الدراسة تتوالى عليه، فمن هم إلى هم،

ويبدو أن التفكير أخذ منه مأخذاً، استولى فيه على كل حواسه، فأخذ دون شعور منه يقطع التذاكر إرباً إرباً، دون أن يدري ما يفعل، وكنا في غفلة عنه، نرقب عملية سرقة يقوم بها طفل أدخل نفسه في الجانب الأيسر من الترام، تحت أرجل الركاب، كما هي عادة النشالين الصغار، وأخذ يعبث بجيوب ضيفنا كلما وجد الفرصة سانحة، فنبهنا، بحركة خفية، ضيفنا، فتبين أنه متنبه؛ وبمجرد أن وقف الترام ركل الضيف النشال الصغير بقدمه، فهرب مغتنماً السلامة، ولم يدر أنه لم يسلم، فجيوب ضيفنا كانت خاوية على عروشها قبل أن يخرج من البيت، وانتهز ضيفنا فرصة إنشغال اللص الصغير الظريف بتفتيشه، واهتمامه الشديد بذلك، فأخذ الضيف يعبث بجيوب اللص بسلام، وأخذ قريشات و «مطوى»، «مقلمية» مبراة، وغنمها، وسرق المسروق السارق، وكانت حادثة طريفة، وقد فرحنا بهذه الثروة التي

نزلت علينا من سماء جيب النشال.

وفي هذه اللحظة جاء المفتش الذي يتأكد من أن كل راكب معه تذكرته، والتفتنا إلى الذي معه التذاكر، وهو الذي يلي الجهة التي يأتي منها «الكمساري» قاطع التذاكر، والمفتش الذي يتأكد منها، وإذا بأخينا - رحمه الله - يبرز يده لنا، وفيها نثارة كأنها حبات الرز، لقد قطّعها قطعاً صغيرة حتى لم يعد لها صلة بالتذاكر، فاضطررنا أن نستفيد من مال السرقة - غفر الله لنا - ولكنه ثوب شامر، لا يستر العورة، ولا يكفي إلا للمسافة التي قطعنا إلى «ميدان المحطة»، ومشينا بقية المسافة إلى الروضة، أميال وأميال؛ واللوم يُقذف ذات اليمين وذات الشمال، لائم يلقي باللوم على ممزق التذاكر، ولائم يلقيه على مدخل مال الحرام على مال الحلال فأركسه، ومعتذر يلقي اللوم على الذين كانوا يشجعون على «عملية النشل» هذه، والآن يتنصلون منها، ولائم يلوم

نفسه على أنه جاء مع هذه الشلة سيئة الحظ، وآخر يرد بأن يحمد الله فلن يجد أحسن منها، فغيرها لم يحظ بالسينما والسندويتش اللذيذ، وآخر يكابر ويقول «طلع بنكده» بهذا المشوار، الذي أبلى الحذاء، وهذا مهم، وأضاع الوقت، وجلب التعب، وعندما وصلوا دار البعثة منهكين متعبين مجهدين جائعين ناعسين انفجروا ضاحكين، وادخروا ما حدث للذكرى، وها هو يذكر.

استطردنا ونحن نحاول أن نضع صورة لعمل الأعضاء منفردة عن الذهن المركز على همّ من الهموم، وقد رأينا أثر ذلك واضحاً على التذاكر التي مزقت شر ممزق.

وأحيانا تعاني المعدة من جراء الهمّ الذي ينزل بصاحبها، والتفكير الذي يأخذ عليه كل تركيزه؛ فتزيد عصارة المعدة وتؤذي جدرانها، وهي مادة كاوية قد تحدث قرحة يأتي منها أكبرُ هَمٍّ، فيصبح الإنسان في هم متعدد الجوانب.

وأحياناً تتأثر بعض الغدد المفيدة من جراء الهمّ، فلا تقوم بعملها، وتأتي للإنسان بأمراض تكون هماً جديداً، فضعف الغدّة التي تزن حرق السكر تتسبب في داء السكري الذي لا يكاد جزء من الجسم يسلم من أذاه.

وهكذا يصبح حال كل جزء من الجسم يهمل، أو يجار عليه من جراء الهم الذي ينصرف إليه التفكير دون شعور، فيخرج الإنسان من طور إلى طور، ومن حالة إلى حالة، ويصير أحياناً شخصاً آخر غير من يعرفه الناس.

والناس في الهمّ يختلفون فكل همّه بقدر همته ومستواه في الثقافة أو المجتمع، فما يهم شخصاً عادياً قد لا يحرك شعرة في إنسان مثقف، أو ذا منصب وهيئة، وقد يعجب الإنسان من بعض الناس وهمهم، وما يقلقهم مما لا يعتبر عند الرائي أنه يستحق أن يأخذ من تفكير المعاني ما أخذه.

ولدي مثل طريف عن إنسان ربما يوصف بأنه

أقل من العادي، إذ أن تفكيره لم ينم مع جسمه نمواً متناسقاً، فأصبح ذهنه متأخراً عن جسمه. وتعيّن فراشاً في إحدى المدارس، واعتاد أن يزورني، لصلة قديمة لي معه، في يوم معين من الأسبوع، وفي يوم من الأيام اتصل بي هاتفياً، وهو عادة لا يستأذن في المجيء، وإنما يشعرني بعزمه على المجيء، وحدد وقتاً لزيارة كان سيقوم بها لي لأمر مهم؛ وجاء، وهو في حالة غضب متناه، وقص علي القصة، ولم أكد أصدق أن هذا هو ما أهمه وأقلقه، واضطره أن يأتي في منتصف الأسبوع بدلاً من نهايته كالمعتاد:

قال لي إن فلاناً المدرس في المدرسة يزعجني كثيراً، وأريدك أن تفصله حالاً، حتى ارتاح من أذاه، لأنه يحتاج إلى تأديب، ومثل هذا لا يصلح معه إلا الطرد.

فسألته عما فعله، ولدهشتي البالغة أجاب:

«إني عادة أبدأ صبّ الشاي للمدرسين في

غرفتهم أثناء الفسحة، وقبل أن أصل إلى المنتصف يكون هذا المدرّس قد أنهى فنجان الشاي، فلا يصبر إلى أعطي المدرسين الباقين، وإنما يناديني لأملأ فنجانه مرة أخرى، فإذا لم استجب يبدأ يقرع الصينية بالفنجان، ويقلقني ويقلق الآخرين، وقد هددته بأنّي سوف أشكوه لوزير المعارف رأساً، وأنه مطّ شفتيه استهتاراً، وزاد في القرع والأذى، والآن ليس له إلا الطرد.

فأقنعته بأني أستطيع أن أجعله يقلع عن هذه العادة، وأن يعتذر إليه، لأن طرده سوف يضر بأولاده، وهم لم يؤذوه، بل قد يكونون في أذى من والدهم، وأنه يقرع لهم الفنجان مثلما يقرعه لك، وسوف أيضا ننذره «ومن أنذر فقد أعذر».

فهدأ روعه، وقبل الفكرة، وطبعاً اتصلت بالمدرس، ومن حسن الحظ أني أعرفه جيداً، فأسرف في الاعتذار إليه، وأجاد فيما بعد حسن المعاملة، ورضي عنه رضى أزال ما بنفسه، ولكن

همومه لا تنتهي، وكلما انتهى هم بدأ هم؛ حتى لما تقاعد أصبح همه عن بعض ما يسمع عنه أو يراه في التليفزيون، وأحياناً همومه تكبر مع هموم المسلمين في العالم مثل أمور الأفغان أو الصومال أو البوسنة والهرسك، وعنده دائماً الحل على وزن حل مشكلته مع المدرس، حلاً جازماً مستحيلاً!

ـ[1] هذا هم صغير عند بعض الناس ولكنه كان همّا كبيراً عند آخرين:

وهموم الكبار كبار، وفي كتب التراث منها الكثير، وسوف نأتي ببعض أمثلة عنها، فهي توضح الفكرة، وتحدد مستوى الهم.

هم الحاكم نهضة بلده، وحمايتها، ونشر العدل بين رعيته، واستتباب الأمن، وتوفير الرخاء، وتعميم العلم، وتأمين الغذاء والصحة، وإيجاد إزدهار التجارة والزراعة، ورعاية المهن، والاهتمام بأمور الشباب والكهول، والرجال والنساء

(١) من هنا تبدأ الإضافة على ما نشر في صحيفة «عكاظ».

والصغار، ويأتيه الهم عندما يختل جانب من هذه الجوانب، ويكبر الصغير في عينه حتى يعالجه؛ والحاكم أقرب الناس لملازمة الهم له، ومكابدة هجماته، وتوقع نزلاته.

وهناك حاكم من حكام الهند، كان مهتماً بأمور رعيته، يتابعها بنفسه، وينظر إليها بعينه، ويصغي لها بسمعه، هجم عليه هم أقلقه، ولكنه سرعان ما أزاح كلكله عنه:

يقول محمد بن الوليد الطرطوشي:

«ولقد بلغنا أن ملكاً من ملوك الهند نزل به صمم، فأصبح مسترجعاً، مهتماً بأمور المظلومين، وأنه لا يسمع استغاثتهم، فأمر مناديه ألا يلبس أحد في مملكته ثوباً أحمر إلا مظلوم، وقال:

لئن منعت سمعي لم أمنع بصري، فكان من ظُلم لبس ثوباً أحمر، ووقف تحت قصره، فيكشف ظلامته». [1]

---

(١) سراج الملوك: ١٧٤.

هم كبير أزاحه فكر ثاقب، ونية حسنة، وحب لشعبه خالص، فلم يستسلم للنازلة، ولم يتركها تأكل من جدار معدته، أو تصيب رأسه بالصداع، وأخلق بالكبير صاحب الهم الكبير أن يكون حمله كبيراً.

ونية الحاكم مهمة فهي تلعب دوراً كبيراً في نجاح الأعمال، والتغلب على الصعوبات، وقد قيلت في هذا أقوال حكيمة.

قال وهب بن منبه:

«إذا همّ الوالي بالجور، أو عمل به، أدخل الله النقص في أهل مملكته، وفي الأسواق والزرع والضرع، وكل شيء؛ وإذا همّ بالخير والعدل، أو عمل به، أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك». [1]

وهناك قصة في هذا المعنى، قد تكون رمزية، صيغت بهذه الصفة، حتى تؤدي دور الموعظة:

---

(١) سراج الملوك: ١٤٧.

«روي أن أبرويز نزل بامرأة متنكراً، فحلبت بقرة لها، فرأى لبناً كثيراً، فقال للمرأة:

كم يلزمك في السنة لهذه البقرة للسلطان؟

قالت: درهم واحد.

قال: وأين ترتفع؟ وبكم ينتفع منها؟

قالت: ترتفع في أرض السلطان، ولي منها قوتي وقوت عيالي. فتفكر في نفسه وقال:

إن الواجب أن تجعل أتاوة على الأبقار، فلأصحابها نفع عظيم منها.

فما لبث أن قالت المرأة:

أواه، إن سلطاننا همّ بجور.

فقال لها أبرويز: ولم قالت [ذلك].

قالت: إن درّ البقرة انقطع، وإن جور السلطان مقتض لجدب الزمان، كما أن عدله مقتض لخصب الزمان.

فأقلع أبرويز عما همّ به، وتاب مما خطر بقلبه، وكان بعد ذلك يقول:

إذا همّ الإمام بجور ارتفعت البركة». [1]

وقد يأتي هم الحاكم وسط الليل من كلمة سمعها، أو خطرت في باله، فتدبرها، فأقلقه أحد مراميها، وقد يكون ذلك وهماً، ولكن لا بد من تبديده حتى يرتفع أذاه، وينزاح ثقله، وتبرد جمرته، وتخمد صيحته، ويخبو وقوده:

قال يزيد بن مزيد:

«أرسل إليّ الرشيد ليلاً يدعوني، فأوجست منه خيفه؛ فقال:

أنت القائل أنا ركن الدولة، والثائر لها، والضارب أعناق بغاتها؟ لا أمّ لك! أي ركن لك؟ وأي ثائر أنت؟، وهل كان منك إلا نفجة أرنب رعبت [منها] قطاة جثمت بمفحصها؟

قال: قلت: يا أمير المؤمنين، ما قلت هذا، إنما قلت: أنا عبد الدولة، والفائز بها.

فأطرق، وجعل ينحلّ غضبه عن وجهه؛ ثم

(١) محاضرات الأدباء: ٦٧.

ضحك فقلت: أَسَرُّ من هذا قولي:

خلافة الله في هارون ثابتة
وفي بنيه إلى أن ينفخ الصور
إرث النبي لكم من دون غيركمُ
حق من الله في القرآن مسطور

فقال: يا فضل: إعطه مئتي ألف درهم قبل أن يصبح». [1]

كلمات بلغ الرشيد أن أحد رجال دولته النابهين قالها، شم منها رائحة أعطسته، فلم ينم معه همها، بل أحضر صاحبها، فحلّ عُقَد هذا الهم، وزاد بما أوجب إعطاءه إكراماً.

ولكن الهم وإن زال في بعض الأحيان مع الحاكم لا يخلو من ذيول تبقى تسحب خلف الأمر، وقد حدث هذا مع الرشيد أيضاً:

«غضب الرشيد على عبدالله بن مالك، ثم اتضحت له براءته، فعفا عنه. وكان عبدالله يرى

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٧٤٤.

فيه بعض الانقباض، فقيل له:

إن عبدالله يشكو أثراً باقياً من تلك النبوة.

فقال: إنا معشر الملوك إذا غضبنا على أحد من بطانتنا، ثم رضينا عنه، بقي لتلك الغضبة أثر لا يخرجه ليل ولا نهار». (١)

ويكشف زياد بن أبيه عن مصادر الهم عنده فينبه حاجبه إليها، والذي يهمنا من النص الآتي أمران، هما اللذان يمكن أن يأتي الهم والقلق منهما وهما: «صارخ الليل لهمّ دهاه، وصاحب البريد»؛ أما الصلاة والطعام، فتوجبان الاهتمام وليس الهم:

قال زياد لحاجبه:

«وليتك حجابتي، وعزلتك عن أربع:

المؤذن للصلاة، وصاحب الطعام، فإن الطعام إذا أعيد سخنهُ فسد، وصارخ الليل لشر دهاه، وصاحب البريد، فالتهاون بالبريد ساعة يخرم عمل سنة». (٢)

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٧٣٣.

الأمران اللذان اهتم بهما زياد من بين الأربعة لا يأتيان بانتظام، ولا في وقت معين، أقل ما فيهما من الازعاج أنهما يتسببان في إيقاظه من النوم، وقد لا يسمحان له بالعودة إليه من هول ما حملا مما لم يكن يتوقعه.

ونموذج لِهَمٍّ الحاكم عندما يكون ملتفتاً لأمر مهم، فيعترضه معترض، يفسد عليه حماسه، أو بلوغ غايته فيما قصده، وهيأ نفسه لنيله، وهذا يتمثل في القصة الآتية:

وحدّث أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء قال:

خطب ابن الزبير، فاعترض له رجل، فآذاه بكلمة، ثم طأطأ الرجل رأسه؛ فقال ابن الزبير:

أين المتكلم؟ فلم يجبه.

فقال: «قاتله الله ضبح ضبحة الثعلب، وقبع قِبعة القنفذ». [1]

إنه همّ عابر، وإقلاق مؤقت، اضطر ابن الزبير

(١) الحيوان: ٧/ ٥٩.

أن يقطع الخطبة وأن يلتفت إلى صاحب الكلمة، وأن يصفه بالوصف الذي لا بد أنه تمنى أن لم يكن أجبر عليه، لأنه أبدى حياله غضبه، وهو ما يضعف موقف الخطيب، خاصة إذا كان حاكماً.

وهذا الموقف عابر، وهمه صغير، ولكنه أخذ كل حيّز الهمّ عند ابن الزبير، وصرفه عن الخطبة التي هي همه الأساسي في هذا الموقف الجاد.

ويأتي هم آخر منقطع، والجانب الأكبر منه شخصي، ولكنه يلمس في جانب منه الحكم، ويكون في الجانبين الشخصي والدولي همّ وأي هم:

قال أبو الحسن المدائني:

لما شد عبدالملك أسنانه بالذهب قال:

«لولا المنابر والنساء، ما باليت متى ما سقطت».[1]

هذا همّ صغير، ولكنه بغياب غيره كبير، فهو في الهامش عند قيام ثائر، أو حدوث فتنة، أو خروج خارج، أو خبر سيء من الثغور. أما وكل

(١) البيان والتبيين: ١/ ٦٠.

ما حوله هادئ فهذا الهم الصغير يأتي في بؤرة الشعور، وفي مقدمة الذهن في التفكير.

ومن المضايقات التي يتعرض لها الحاكم بعض المواقف الغبية المفاجئة، لأنها تستوجب ظاهراً الصبر، وإطالة البال، والحاكم في داخله يغلي، وما بين الداخل والخارج مرجل همّ يكاد ينفجر.

قالوا:

ومن النوكى ربيعة بن عِسْل، أحد بني عمرو ابن يربوع، وأخوه صبيغ بن عِسل. وفد ربيعة على معاوية، فقال له معاوية:

ما حاجتك؟

قال: زوجني ابنتك.

قال: اسقوا ابن عِسل عسلاً.

فأعاد عليه، فأعاد العسل ثلاثاً، فتركه وقد كاد ينقد بطنه.

قال: فاستعملني على خراسان.

قال: زياد أعلم بثغوره.

قال: فاستعملني على شرطة البصرة.

قال: زياد أعرف بشرطته.

قال: فاكسني قطيفة، أوهب لي مئة ألف جذع لداري.

قال: فدارك في البصرة، أو البصرة في دارك». [1]

إحتاج معاوية إلى صبر أيوب مع هذا الأحمق الذي تدرج في الطلب من طلب يد ابنة الخليفة إلى الإقتناع بالقطيفة، ومن الولاية إلى خشب يسقف به بيته، وطلبه كثير يبنى سقوف بيوت البصرة كلها. ورغم أن معاوية تحمله طول الوقت بسخافاته وحمقه، إلا أن معاوية خابثه بسقيه العسل حتى كاد ينفجر بطنه. وهذا يري مدى حنق معاوية المكتوم، وهمه الثقيل الذي جلبه هذا.

هذه بعض مظاهر الهموم في التراث، اختيرت ممثلة لبعض الجوانب ولم نقترب من الهموم الكبرى للحكام، فهذه لا حصر لها في صفحات التاريخ.

---

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٢٥٩.

در السحاب[1]

الماء فيه عنصر الحياة للإنسان والحيوان والنبات، وله تأثير معين على الجماد، من الطود العظيم إلى حبة الرمل في الأرض، ونسمة الهواء في الجو، جعل الله منه كل شيء حي، ولا غرو أن اهتم به الإنسان، كأساً يشرب، ونبعًا يستقى منه، وبئراً تَمتح منه الدلاء، وشلالاً يتدفق فيُتَلقف، ونهراً يجري فيحيى بإذن الله ما يمر به، ومطراً ينزل فينعش الأنفس، ويتدارك ما أدبر، فيخضر على أثره اليابس، وينتعش الذابل، ويورق الجاف، ويستوي على سوقه ما صوح، أو كاد.

ولهذا ففرحة الناس في البلاد التي يقل فيها المطر لا توصف، فما يرون سحابة تنشأ في الأفق إلا وتتعلق بها القلوب قبل الأبصار، ويرجى ما فيها، فإذا ما بدأت هَمَالِيْلُها، وتتالى وبلها

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٢٨١) في ٢٦/ ٤/ ١٤١٥هـ الموافق ١/ ١٠/ ١٩٩٤م.

وصيبها، غمر الفرح كل نابضة في أجساد الناس، وعمت البهجة، فانعكس هذا على تصرف الناس، وأصبح مظهره حسناً كله، لأنه مطرب للروح وطرب الروح يتغلغل فيما حوله، فيؤثر على المحسوس والمادي، فالتاجر الصعب في تعامله يسهل فيه، والرجل الشديد مع أهله يلين معه، والعاق أقرب إلى أن يكون باراً، والهاجر إلى أن يكون واصلاً؛ والحاكم الجائر إذا طغت روح البهجة على نفسه مال إلى التسامح والعدل، وهكذا خير الله من سمائه لا يأتي منه إلا ما يأتي من الخير من نعمة وصفاء، بل إن الناس قد ينسون ما يأتي أحياناً من هدم وغرق، مقابل ما يأتي من ري وانتعاش؛ فالغبار في السماء يهبط ويتلبد، والشجر يشرب وينظف، والمساكن تغتسل وتتجلى، والآبار تمتلئ.

والبلدان التي تكثر فيها الأمطار لو يقف المطر وقتاً أكثر مما تعودوا لضجوا ولاستغاثوا، إذ

سرعان ما ينسون مللهم منه، ويذكرون ما تؤول إليه أمور حياتهم التي كل ما حولها بني على كثرة المطر، واستمرار تدفقه.

في نهاية الشتاء، وبدء الربيع في هذا العام بدأ السحاب يتلبد على قلة الأمطار في هذا العام؛ فكان الناس يتابعون أمر السحاب والمطر، ولا يكاد يفتتح مجلس أو يختتم الحديث فيه إلا بأخبار المطر، ومواقعه، ونشوء السحاب واتجاه سيره، فمن مؤمل في أن يأتي ما يعوض مما فات من الوقت دون هطول الأمطار كالعام الماضي، ومن يائس لأن الوقت قد مر أكثره، وما هو آت من الوقت فنادراً ما يأتي فيه مطر، إلا مطر قد يفيد الآبار والسدود فقط.

ليس حديث الناس عن السحاب والمطر أمراً جديداً، وليس تفننهم في وصفه، وما يمت إليه بصلة إلا قولاً مكرراً معاداً لما قالته القرون الماضية في الجزيرة العربية، تملي القول التجربة والمشاهدة، وتحفظ الأقوال الأجيال بعد الأجيال.

وسبق أن تحدثت عن المطر، وبعض ما قيل فيه من أقوال رصينة، وحكايات طريفة، في مقال سابق،[1] ولكن الحديث عن السحاب والغيث والمطر لا يمل، وما قيل فيه متعدد لا يكاد يحصى، والتكرار في هذا يجب ألا يمل إلا إذا مُلّ المطر، وهطوله، والسحاب ونشوؤه، والغيث ونزوله، وهو ما لا يخطر على بال ابن الجزيرة العربية.

وسوف أسوق هنا بعض ما جاء عن المطر، ومنه يتبين مدى اهتمام الناس في الزمن القديم به، وما دون في التراث مما أعجب الأدباء والكتاب، مما قيل ارتجالاً، أو حُبِّر تحبيراً. وهذا يُري الجوانب المختلفة التي دخل إليها القائلون إلى عمق الأمر وجذوره، ومدى تأثيره على محيطهم، وعلى حياتهم.

وخالد بن صفوان بن الأهتم لا يعوزه القول عندما يريد أن يقول، ولا يصعب عليه الحديث إذا

---

(١) «عكاظ»، العدد (٩٦١٩) في ١٤١٣/٦/٤هـ، و «إطلالة على التراث» ١٥٢/٢.

تحدث، فاللغة طوع لسانه، والمعاني طوع جنانه، فصيح إذا تكلم، بليغ إذا خطب، يقلب الألفاظ كيف شاء، ويدير المعاني كما يريد، لا تعسر عليه جملة، ولا ينبو أسلوب، يتكلم في الشيء وضده، فلا يخطئ في هذا، ويصيب في ذلك.

لهذا لا يستغرب منه أن يجيد في وصف روض أخضر زاهٍ، ويتقن وصفه حتى لتكاد تظن أنك تراه، وتلمس ثراه؛ قال خالد بن صفوان بن الأهتم:

«أوفدني يوسف بن عمر إلى هشام بن عبدالملك في وفد العراق، فقدمت عليه، وقد خرج، مُبْتَدِيا (أي إلى البادية)، بقرابته وأهله وحاشيته وغاشيته من جلسائه؛ فنزل في أرض قاع صحصح، متنايف أفيح، في عام قد بكر وسميه، وتتابع وليه، وأخذت الأرض فيه زينتها، من اختلاف ألوان نبتها، من نور ربيع مونق، فهو في أحسن منظر، وأحسن مختبر، مستمطر بصعيد كأن ترابه قطع الكافور،

حتى لو أن قطعة لحم ألقيت فيه لم تترب . . » .[1]

هذا وصف لروض زاهٍ بالنبت والزهر، اختاره الخليفة، لتنزهه في برّ بلاده، وصفه خالد بمختار الأقوال، وما كان لهذا الروض أن يخضر لو لم ينزل الله عليه المطر، ولم يكن المطر لينزل لو لم تحمله السحب بإذن الله، وفي وقت اختاره الله له، ولا بد أن هذا الروض قد سقي بسحاب ثقال.

والحجاج بن يوسف، والي العراق للخليفة عبدالملك ثم لابنه الوليد، من المغرمين بتتبع أخبار المطر، وسؤال القادمين من البادية، فالحاكم يقلقه احتباس المطر، لأن هذا يعني القحط والجدب، والجدب يعني لجوء سكان البادية إلى الحاكم ليفك عسرتهم، ويزيل كربتهم، وقد لا تساعده خزائنه على مقابلة الطلب، لكثرة الطالبين لرفده، والمعتمدين على إمداده.

والقول الآتي يعطي صورة رسمها أحد القادمين،

---

(١) الذهب المسبوك: ١٨٣.

أخذها من زاوية اختارها، واختار لها الريشه التي خطها بها، ودقق في إبراز معالمها:

«قال ابن الأعرابي:

سأل الحجاج رجلاً قدم من الحجاز عن المطر، فقال:

تتابعت علينا الأسمية (جمع سماء)، حتى منعت السُّفّار، وتظالمت المعزى، واحتلبت الدرّه بالجرة». [1]

وصف هذا الرجل سنة الخصب وصفاً جميلاً، بكلمات مختصرة، ولكن الصورة التي رسمها وافية واسعة، مدلولها كبير، فهو يقول إن المطر تتابع، حتى أنه منع السابلة، واخضرت الأرض، وأزهرت، وشبعت الماشية، حتى أن المعزى أصبحت تشبع بسرعة، فيكون عندها الوقت والجهد لأن ينطح بعضها بعضاً، فلم يعد يشغلها المرعى، وتتبع وريقات النجيل الأخضر المبعثر

(١) البيان والتبيين: ٢/ ١٦٢.

كما هي عليه الأمور وقت الجدب، إنها الآن تشبع - كما يقول المثل العامي - وهي رابضة، فكل شيء قريب منها، المرعى وافر تحت قدميها، والغدران قريبة منها، وطغيان النعمة عليها جعلها تتفرغ للتناطح، وظلم القوية منها للضعيفة. والماشية أيام القحط والجدب لا تحلب إلا إذا أتي لها بما تأكله، مع قلة لبنها أما الآن، والدنيا مخصبة، فإنها تحلب وهي تجتر ما سبق أن أكلت وخزنت.

ولا بد أن الحجاج أعجب بفصاحة الأعرابي، وهو الرجل الفصيح، المعروف بخطبه الرنانة، وأقواله البليغة، ولعل الأعرابي عمد إلى هذا الوصف البديع لمعرفته بحب الحجاج لمثل هذا القول البديع.

ولعل مثل هذا الوصف متعارف عليه بينهم في ذلك الزمن، ولا يستبعد هذا، لأننا نرى أن أقوالاً بعينها تردد في زمننا على ألسنة البادية، والحاضرة

المتصلين بهم؛ وإن لم يكن الأمر كذلك فلعل الرواية التي سوف نسوقها الآن هي صيغة مبدلة تسبب في تغييرها تداول الرواة لها، وتعّرضها في ضوء حالة ذاكرة الراوي إلى ما جعلها تحمل المعنى نفسه، مع تغيير في بعض الألفاظ.

«قال لقيط:

دخل رجل على الحجاج فسأله عن المطر، فقال:

ما أصابني من مطر، ولكني سمعت رائداً يقول:

هَلُمّ أظعنكم إلى محلة تطفأ فيها النيران، وتتنافس فيها المعزى، وتبقى بها الجِرَّة حتى تنزل الدرة». [1]

زاد في هذه القصة عن سابقتها أن النيران تطفأ في هذا الروض لهطول المطر واستمراره، ولنداوة الأرض، وكثافة النبت فيها.

---

(١) البيان والتبيين: ٢/ ١٦٢.

وقصة أخرى عن الحجاج وسؤاله عن المطر، وهي تحتاج إلى فحص دقيق لمعرفة ما إذا كانت وقعت حقيقة، أو أنها مؤلفة من قبل أديب جمع لها المفردات الغريبة، وسبكها بهذه الصفة، فلما رأى أنه قد يظهر أمره للقارئ، وقد يكشف زيفه، سارع إلى تعديل ما مال منها بما ألحقه من تساؤل الحجاج عن معانيها، وأظهر أنها غريبة حتى على الحجاج نفسه.

إلا أن هناك زاوية قد ينظر منها لصالح القصة، ووقوعها فعلاً، فإذا كان الوافدون عرفوا غرام الحجاج بأخبار المطر، واهتمامه بالوصف المختار، بكلمات منتقاه، وجمل رصينة، فسارعوا يُعِدون القول، ويختارون الجمل، ويتصيدون الألفاظ، ويُغربون في البحث، أملاً في أن يعجبه قولهم، ويحظون بالقبول، وقد يؤوبون بالجائزة، ويعودون بالمكافأة، فينصرفون غانمين، والثمن زهيد، فالقول من مخزونهم، والصور من بيئتهم، لم يدفعوا فيها

ثمناً، ولم يقايضوا تاجراً:

قال العتبي:

حدثني أبي قال:

خرج الحجاج إلى ظهرنا هذا، فلقي أعرابا قد انحدروا للميرة، فقال: كيف تركتم السماء وراءكم؟

فقال متكلمهم:

«أصابتنا السماء بالمثل (موضع بنجد) مثل القوائم (جبال لهذيل) حيث انقطع الرمث، بضرب فيه تفتير (الضرب مطر فوق الديمة)، وهو على ذلك يعضّد ويرسّغ؛ ثم أصابتنا سماء أميثل منها، تُسيل الدماث (الأرض السهلة)، والتلعة الزهيدة، فلما كنا حذاء الحفر، أصابنا ضرس جَود (الضرس المطر هاهنا وهاهنا)، ملأ الإخاذ (الحفر).

فأقبل الحجاج على زياد بن عمر العتكي، فقال: ما يقول هذا الأعرابي؟

قال: ما أنا وما يقول، إنما أنا صاحب رمح وسيف.

قال: بل أنت صاحب مجداف وقلس (الحبل الغليظ من حبال السفن)؛ إسْبَح.

فجعل (زياد) يفحص الثرى ويقول:

لقد رأيتني وإن المصعب ليعطيني مئة ألف، وها أنذا أسبح بين يدي الحجاج». (١)

وللحجاج سؤال آخر أدى إلى جواب عن المطر، وكأن أخبار المطر مغرمة بالحجاج مثلما هو مغرم بها، فهو لم يسأل هذه المرة عن المطر، ولكن الجواب جاءه عن المطر، أو لعل ما يقرب من نصفه عن المطر:

«قال الأصمعي:

قدم رسول على الحجاج، فلما قرأ كتابه قال:

ما أبطأك؟

قال: البَرْد.

قال: ما بلغ من شدته؟

قال: صحو الليل، وغيم النهار، وقطرُ مطرٍ تتبعه الشمال.

---

(١) مجالس ثعلب: ١/ ٢٨٦.

قال الحجاج: هذا - وأبيك-[1] البرد حقّا». [2]

والتشبيه في وصف المطر، والحرص على رسم صورة محسوسة أمر يلجأ إليه البلغاء، ويعمدون إليه ويفضلونه، وفي القصة الآتية يتضح هذا النهج:

«كف بصر حمار البارقي، فسمع يوماً صوتَ راعدٍ، ومعه بنت تقوده، فقال لها:

ما ترين؟

فقالت: أرى سحماء عقاقة، كأنها حولاء[3] ناقة.

فقال لها: وائلي بي إلى جانب قفلة، فإنها لا تنبت إلا بمنجاة من السيل». [4]

---

(١) هذا التعبير يأتي عرضاً دون أن يفكر فيه الحجاج، ولعله من بقايا ما تعودت عليه ألسنتهم في الجاهلية، ولو فكروا في هذا التعبير لتنبهوا إلى أن الحلف بغير الله شرك، وإن الله لا يغفر أن يشرك به. وعادة ينبه العالم منهم الجاهل، إذا أخطأ في هذا:
قال رجل من بني مجاشع: جاء الحسن في دم كان بيننا، فخطب فأجابه رجل بأن قال: «قد تركت ذلك لله ولوجوهكم». فقال الحسن: «لا تقل هكذا، بل قل: لله ثم لوجوهكم؛ وآجرك الله» [البيان والتبيين: ١/ ٢٦١].

(٢) البصائر: ٥/ ١٧٣.

(٣) الحولاء للناقة كالمشيمة للمرأة.

(٤) ربيع الأبرار: ١/ ١٣٦.

ـ[1] ويأتي من يصف الغيث، ولعله أديب أخذ قلمه ومحبرته وأوراقه، وجلس في قعر داره يتصور سحاباً تراكم، ومطراً هطل، ورعداً زمجر، وبرقاً لمع، وروضاً ميتاً دب فيه الحيا والنبت، وخضرة أينعت وأزهاراً تفتحت، وماشية رتعت؛ فجاء من ذلك بوصف متناسق، وتحديد للغيث وما يأتي منه متكامل، فأحاط بما لم يحط به الآخرون، وإن في قوله لقوة، وإن في نسجه لإحكام، وما فيه مما يبدو من انتقاء كلمات، لم يصل إلى حد الغريب المبهم، ولا الصعب المغلق:

«غثنا ما شئنا، فشبعنا وروينا، قد أرخت السماء عزاليها، واثعنجرت بصوب مآقيها؛ فغمر الماء الزُّبى، ونقع من الصدى؛ ولبست الأرض قناعها الأخضر، ونضت شعارها الأغبر، وعاضنا الغض العميم، من المصوح الهشيم، وجزانا بالرطب المخضرم، من اليابس المقضوم؛

(١) من هنا يبدأ جزء مضاف إلى ما سبق أن نشر بصحيفة «عكاظ».

فعاشت العاملة والماشية، وهاجت الآبية والعاشية؛ وارتجعت رذايا المطايا، ما أخذت منها المخارم والثنايا؛ وأنشأت تسترد بمشافرها ما سلبها جذاب البري بمناخرها؛ سائمة في العميم الكث، من الطباق والشث؛ وسارحة في المراح الفسيح، من القيصوم والشيح؛ فنحن في سوابغ من النعم، نرتع فيها رتعة النعم؛ قد عزّ عندنا أن يستضيف ضيفا كريم، واستغنى أن يسترضع لئيم، وأترعت الجفان رذماً، واستحال القرم بشماً؛ وحالت البطنة دون الفطنة، ومنع الطعام عن تراجع الكلام؛ فلو أن قسا بيننا لخرس، أو دغفلاً لأبلس، وكأن الشاعر أرادنا بقوله:

أتانا وما داناه سحبان وائل
بياناً وعلماً بالذي هو قائل
فما زال عنه اللقم حتى كأنه
من العيّ لما أن تكلم باقل»[1]

(١) ربيع الأبرار: ١/ ١٤٠.

صاحب هذا الوصف البديع أديب متمكن من اللغة العربية، استجدى مقدرته فيها فجادت عليه، واستدعاها فاستجابت له؛ فجاء وصفه بليغاً في لفظه، معبراً في صوره؛ وقد أحاط بأمور المطر، وعدد تأثيره؛ ولولا أنه تمسك بالسجع، وأصر عليه، لكان حمده متكاملاً، ومدحه وافياً، إلا أن السجع أدخل عليه صفة الصنعة، وهي صفة منتقدة في الأدب وغيره.

ونعود إلى ما يروى أن الأعراب قالته في المطر، وما يجلبه من خير للأرض والعشب والشجر، وقد يصح أن يقول أعرابي مثل هذا القول، إلا أنه يأتي أحياناً من يضيف إليه، فيأتي المتدبر في هذه الزيادة، فيحكم على الحديث كله بالانتحال والتحبير من قبل كاتب نصب نفسه لهذا الوصف، وسنّ قلمه للإجادة فيه، مستعملاً كل ما لديه من معرفة باللغة، وإتقان لأساليبها، ليضع ضمن النص ما يجعله كأنه جزء أصيل فيه، فطول نفس

الأعرابي هنا هو الذي قد يثير الشك، والعودة إلى معنى انتهى منه يوجب التردد في القبول:

قال ابن الأعرابي:

قال أبو المجيب - وكان أعرابياً من بني ربيعة ابن مالك:

«لقد رأيتنا في أرض عجفاء، وشجر أعشم، في قف غليظ؛ وجادة غبراء، فبينا نحن كذلك، إذا أنشأ الله غيثاً من السماء، مستكفاً نشوؤه، مسيلة عزاليه، عظاماً قطره، جواداً صوبه، زاكياً هطله؛ أنزله الله رزقاً لنا، فنعش به أموالنا، ووصل طرقنا؛ وإنا لبنوطةٍ، بعيدةٍ ما بين الأرجاء، فاهْرمَّع مطر، حتى رأيتنا وما نرى غير السماء والماء، وصهوات الطلح؛ فضرب السيل النعاف، وملأ الأودية وزعبها، فما لبثنا إلا عشراً، حتى رأيتها روضة تندى». [1]

ولسيف الدولة أبيات يصف فيها ما رأى،

(١) ربيع الأبرار: ١/ ١٤٣، مجالس ثعلب: ١/ ٢٩٤.

وفيها من الرسم الجميل والصورة البديعة ما يليق بسيف الدولة، ملفي الأدباء، ومشجع الشعراء:

وقد نسجت أيدي الجنوب مطارفا
على الأرض دكنا والحواشي على الأرض
وطرزها قوس السحاب بأصفر
إلى أحمر في أخضر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل
مصبغة والبعض أقصر من بعض[1]

وبهجة السحب التي تسبق المطر أو تصاحبه أو تعقبه، تدخل السرور على الإنسان، والشاعر ينفعل بمرآها، فيتفنن طرباً في وصفها، فهي علامة الخير، وبشرى النعمة، خاصة إذا كان الناظر إليها حاكماً مثل سيف الدولة، يفكر بخراج مطرها، بعد ري البلاد، وغوث العباد. وسيف الدولة كان على ثغور كثيرة السحاب والمطر.

وفرحة قائد الأمة بالمطر تتمثل خير تمثيل فيما

(١) ربيع الأبرار: ١/ ١٤٥.

فعله الرسول ﷺ عند نزول المطر، وهو خير من يقدر نعمة الله، وغوث الله لعباده، وهو خير من يرجو للناس النعمة والبركة، وهو خير من يفرح بآلاء الله ورضاه على عباده.

قال أنس:

«أصابنا، ونحن مع رسول الله ﷺ مطر، فخرج، فحسر ثوبه حتى أصابه.

فقلنا: يا رسول الله: لم صنعت هذا؟

فقال: لأنه حديث عهد بربه». [1]

وفي استغاثة تنسب لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بعد أن أمسك المطر، وصف جميل دقيق لحالة الجدب، وما يؤمل في الخصب، وهي تضيف إضافة ثمينة إلى ما ذكرناه في هذا الباب، وهي ملائمة في أسلوبها لمناجاة الله - سبحانه وتعالى - واستعطافه:

قال الخليفة الراشد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -:

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ١٤٧.

«اللهم خرجنا إليك حين اعتكرت علينا حدائر السنين، وأخلفتنا مخايل الجود؛ فكنت الرجاء للمستيئس، والبلاغ للملتمس؛ ندعوك حين قنط الأنام، ومنع الغمام، وهلك السوام، فانشر علينا رحمتك بالسحاب المنبعق، والربيع المغدق، والنَّبَات المونق.

اللهم سقياً منك تعشب بها نجادنا، وتجري بها وهادنا، وأنزل علينا سماء مخضلة مدراراً، يدافع الودق منها الودق، ويحفز منها القطر». (١)

ولا تمنع نسبتها لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - من أن يتأكد من أصالة كل جملة، فبعض الجمل قد تكون أضيفت إلى النص الأصلي، ليشرف المضاف بما أضيف إليه، وليُبهج قبولُ الناس له، على أنه أصيل، واضِعَه، خاصة وأن خطبة الاستغاثة التي خطبها الرسول ﷺ أصبحت هي القدوة فيما يقال، وليس فيها من التكلف ما يوجب الشك

(١) ربيع الأبرار: ١/ ١٥٠.

فيها، أو اختيار غيرها.

وتروي عائشة عن الرسول ﷺ فتقول:

إنه خرج حين بدا حاجب الشمس، فصعد المنبر، وكبر وحمد الله، ثم قال:

إنكم شكوتم جدب دياركم، واستئخار المطر عن إبان زمانه، وقد أمركم الله أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم. ثم قال:

«اللهم أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل الغيث، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغاً إلى حين».

فأنشأ الله سحاباً، فرعدت وبرقت، ثم امطرت بإذن الله؛ فلم يأت مسجده حتى سالت السيول. فلما رأى سرعتهم إلى الكن، ضحك حتى بدت نواجذه، وقال:

أشهد أن الله على كل شيء قدير، وأني عبد الله ورسوله». [1]

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ١٣٣.

هذه الكلمات المختصرة الصادقة النابعة من القلب هي ما اختاره الرسول ﷺ، لمناجاة ربه، وطلب العون منه والغوث، فاستجاب الله لدعائه، وما خلف الدعاء من إيمان صادق، ونية مخلصة، وعزم ثابت على التقوى والطاعة.

واستغاثة العباس بن عبدالمطلب - رضي الله عنه - مشهورة، وقد جاءت خالية من التكلف، دالة على صدقه فيها - رضي الله عنه -، وصحة توجهه إلى ربه:

قال العباس:

«اللهم أنت الراعي لا تهمل الضالة، ولا تدع الكسير بدار مضيعة، فقد ضرع الصغير، ورق الكبير، وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السر وأخفى؛ اللهم فأغثهم بغثيانك من قبل أن يقنطوا فيهلكوا فإنه لا ييأس إلا القوم الكافرون».

ويقول الراوي:

«فنشأت طريدة من سحاب، وقال الناس:

«ترون ترون!»، ثم تلامت واستتمت، ومشت فيها ريح، ثم هوت، ودرّت، فوالله ما برحوا حتى اعتلقوا الحذاء، وقلصوا المئزر». [1]

هذه صور عن المطر جاءت عن طريق دعاء الاستغاثة، وهي معبرة خير تعبير عن المطر، وعن فرحة الناس به، واشتياقهم له، وحزنهم على امساكه واحتباسه، وعودتهم إلى الله في طلب الرضى والرحمة.

ولعل أقصر وصف للمطر وأوفاه، وأصدقه وأبهاه، ما تلفَّظت به جارية سئلت فأجابت فأحسنت وأفادت:

«قال ذو الرمة:

قاتل الله أمة بني فلان ما كان أفصحها! سألتها:

كيف كان المطر عندكم؟

فقالت: غثنا ما شئنا». [2]

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ١٣٤.

(٢) ربيع الأبرار: ١/ ١٣٥، مجالس ثعلب: ١/ ٢٨٨.

وامرأة أخرى أجابت جواباً فصيحاً، وقالت قولاً بليغاً:

«قيل لجمعة: أي السحاب أحسن؟

قالت: سحاب ملتف أسحم، رجّاف مسفّ، يمسّه من قام بالكف». [1]

لقد اختصرت ووفت.

وشارك الشعر في الوصف المختصر، والقول المفيد، مع صور بيانية بديعة في:

قال أعرابي:

«سحابة صادقة الأنواء
تجر حضينها على البطحاء
بدت بنار وثنت بماء
تثني بها الأرض على السماء» [2]

ومن الأقوال المختصرة في المطر قول أعرابي سئل عن المطر، فأجاب مختصراً، والمختصر أقرب إلى

(١) ربيع الأبرار: ١/ ١٣٦.
(٢) ربيع الأبرار: ١/ ١٣٧.

الصحة، وأولى بالقبول، وأحرى بالأعراب، وأقرب لطبيعتهم، وألصق بها:

سئل أعرابي عن المطر فقال:

«مطرنا بِعَراقيّ الدلاء، وهي ملاء». [1]

وأعرابي آخر قال عندما سئل عن المطر:

«أصابنا مطر نقع في الأرض؛ فشربت منه الغنم، فحسنت أصواتها، ولانت أصوافها». [2]

وسأل سليمان بن عبدالملك أعرابياً عن المطر فقال:

«أصابنا مطر انعَقد منه الثرى، واستؤصل منه العرق، ولم تر وادياً دارئاً». [3]

وقال أعرابي من طيء:

«بعث قوم رائداً، فقالوا: ما وراءك؟

فقال: عشب وتعاشيب، وكمأة متفرقة شيب،

---

(١) مجالس ثعلب: ١/ ٢٨٢.

(٢) مجالس ثعلب: ١/ ٢٨٢.

(٣) مجالس ثعلب: ١/ ٢٨٢.

تقلعها بأخفافها النيب». [1]

ومن الأقوال التي يأتي بها الأعراب مختصرة، ولكنها وافية، قول أحدهم عندما قيل له:

«كيف كلأ أرضك؟

قال: أصابتنا ديمة بعد ديمة، على عهادٍ غير قديمة، فالنَّاب تشبع قبل العظيمة». [2]

وسئل أعرابي: «هل أصابكم مطر؟»

فقال: «نعم موّر (جعلها تسيح) الأكمة، وسيّل الطريق». [3]

وأحياناً يكون السؤال ملحّاً، أو الأسئلة متتالية متوالية، وهذا يذكرنا بما عليه رجال البادية عندنا في استقصائهم عن أخبار المطر ومواقعه:

«قال أبو صالح التميمي:

إن رجلاً من الأعراب سأل رجلين أعرابيين فقال:

---

(١) مجالس ثعلب: ١/ ٢٨٣.

(٢) مجالس ثعلب: ١/ ٢٨٤.

(٣) مجالس ثعلب: ١/ ٢٨٩.

أَنَّى مطرتما؟

قالا: مطرنا بمكان كذا وكذا.

قال: فماذا أصابكما من المطر؟

قالا: حاجتنا.

قال: فماذا سيّل عليكم؟

قالا: ملنا لوادي كذا وكذا، فوجدناه مكسّراً، وملنا لوادي كذا وكذا، فوجدناه قد سالت مُعنانه، وملنا لوادي كذا وكذا، فوجدناه مشطئًا.

قال: فما وجدتما أرض بني فلان؟

قالا: وجدناها ممطورة، قد أَلَسَّ غميرها، وأخوص شجرها، وأدلس نصيّها، وألبث سخبرها، وأخلس حليّها، ونبت عجلتها». [1]

«وقال رجل لرجل:

كيف وجدت أرض بني فلان؟

قال: وجدتها أرضاً شبعت قلوحها، ونُسِيت شاتها.

---

(١) مجالس ثعلب: ١/ ٢٩٣.

قال: فهل مع ذلك خوصة؟

قال: شيء قليل.

قال: والله ما أحمدت، وإن كان القوم لصالحين». [1]

وسنورد مسألة عن المطر عجيبة تورد عن الحجاج، وتحتاج إلى تأنّ في التحقق من صحة وقوعها، أو ترجيح تأليفها، ففيها ما قد يدل على هذا أو ذاك:

«قال عبدالملك بن عمير:

كنت عند الحجاج بن يوسف، فقال لرجل من أهل الشام:

هل أصابك مطر؟

قال: نعم، أصابني مطر أسال الإكام، وأدحض التلاع، وخرق الرجع (الغدير)، فجئتك في مثل مجرّ الضبع.

ثم سأل رجلاً من أهل الحجاز:

---

(١) مجالس ثعلب: ١/ ٢٩٤.

هل أصابك مطر؟

فقال: نعم. سقتني الأسمية، فغُيبت الشِّفار، وأطفئت النار، وتشكت النساء، وتظالمت المعزى، واحتُلبت الدِّرة بالجِرّة.

ثم سأل رجلاً من أهل فارس:

فقال: نعم، ولا أُحسن كما قال هؤلاء، إلا أني لم أزل في ماء وطين، حتى وصلت إليك». [1]

ويبدو أن هذه القصة مركبة من عدة قصص، وأضيف إليها القول السهل الذي أدلى الفارسي به، لتكمل الصورة التي أراد لها الأديب الكاتب أن تأتي بهذه الصيغة.

هذه بعض الأقوال في السحاب والمطر، والرياض والوديان والشعاب، والخصب والنماء، ولم نأت إلا بالقليل، القريب المتناول، مع تنوع يُري الزوايا المختلفة، التي اختارها المتكلمون، وكما رأينا يختلف قائل عن قائل، وواصف عن واصف،

(١) مجالس ثعلب: ١/ ٢٨١.

فمخبر يختار أمراً، وآخر يختار غيره، ومتحدث يتحدث على سجيته، وآخر يحبّر ويتكلف، ويعد ويهيء.

ويبقى المطر منتهى أمل أهل الجزيرة لوارف الحياة عندهم، يتطلعون إليه، ويشتاقون لمجيئه، ويتألمون لحبسه، وإبطائه عنهم؛ السحاب يؤملهم، والرعد والبرق يبشرهم، والمطر يبل الريق، وينعش الحياة، ويدخل السرور على القلوب والأرواح.

جواهر الكلمات[1]

العقل الرزين يدل صاحبه على الصالح ليتبعه، ويكشف لصاحبه الطالح، ليبتعد عن طريقه، وليحذر الوقوع في براثينه، أو السقوط في زبية من زباه؛ ومن عادة العقل السليم اليقظة الدائمة، فهو ديدبان لا يغفل عن العمل الذي خلق من أجله، والحراسة التي وكلت إليه؛ فهو لا ينتظر إلى أن يطلب منه الرأي، أو يُستدعَى لِمُهّم؛ فهو الذي يبدأ القول لصاحبه، وينبهه إلى ما قد يقع، ويهديه إلى طريق الخروج مما قد يكون فُوجئ به من موقف، وما وُضع فيه من مأزق.

والعقل السليم يتدبر الحوادث التي تمر به، والأقوال التي تقع لغير صاحبه، فيعيها، ويصنفها، ويضع لها قواعد، يجعلها معدة، للاستفادة منها، والانتفاع بما تدعو إليه، وما تنصح به. وقيمتها

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٢٨٨) في ٣/ ٥/ ١٤١٥هـ الموافق ٨/ ١٠/ ١٩٩٤م.

أنها نتيجة تجارب، هيئت في صور تسهل الاستفادة منها.

والعقول تتفاوت، وحصيلتها تتفاوت مثلها، إلا أن العائد واحد، جواهر ثمينة من النصائح، وعقود لؤلؤ منظوم مثقوب من الإرشاد، والتنبيه، والتوجيه، وما على العاقل إلا أن يزور روضها، ويتنزه في بستانها، ويقطف من ثمرها وأزهارها، غذاء هضيمًا، ورائحة زكية، وينظر إلى منظر يسر الناظرين.

والتراث مليء بهذا الجَنَى، غاص بهذه الثمار، ليس فيها إلا ما هو مغذ لجانب من جوانب الفكر، نافع لجانب من جوانب حياة الإنسان. لم يترك الأولون أمراً إلا دونوا عنه حصيلة تجربتهم، وعصارة ما تعرضوا له في حياتهم، إن كان نجاحًا أشادوا به، ودعوا إلى اعتناقه، وإن كان إخفاقًا حذروا منه وأنذورا.

حرصوا على تدوين كل شيء، وجاءوا عنه

بالحكمة وفصل الخطاب، وتناقلته الأجيال المتتالية؛ فسجلوا عمن بلغ العقل عنده منتهاه، فاستفاد منه الفائدة الكاملة، ودونوا عمن نقص عقله، فلم يستفد منه إلا التسلية، ثم آب أمره إلى الإهمال. وهذا الحرص على التدوين يعود إلى عمق الحضارة في كل عصر من العصور المتتالية.

لقد دونوا الحكمة، وجوهر الكلم عن الأمور العسكرية، وعن الحروب، وما عانوه منها، وما خرجوا به منها، فلم يتركوا شيئًا لمستزيد، بل جاءوا بما لم يخطر على البال، وتحدثوا في هذا في أدق أموره، وأضيق صوره، وتكلموا في المال، ودونوا حصيلتهم عنه، وسجلوا علمهم عن الاقتصاد، وما توصلوا إليه؛ وتعمقوا في المجتمع بممراته المختلفة، المضيء منها والمظلم. وجاءت النصوص واضحة، وهي لسان حالهم عن أنفسهم؛ أهدونا إياها في نصوص سبكوها خير سبك، وأمّلوا أن نأخذها من حيث انتهوا، فلا نعاني ما عانوا، ولا نكابد ما

كابدوا، فالعمر قصير، والعجلة تدور سريعة.

وفي النصوص الآتية سوف نمر بالروض، ونمسحه سريعًا بجناح طائر، فنقف عند بعض ما يمسك النظر، ويحبس العين، ثم نعود في مسحة مغايرة، فقد نرى في اتجاه ما لم نره في الاتجاه الأول، فللأمور وجه مقبل، ولها قفًا مدبر.

وأول ما يلفت نظرنا في هذا الروض المخضر، هذا القول الصادق:

«وما أحسن ما قال بعض السلف:

إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند حلول الشهوات».[1]

ما يحبه الله جاء لأن الله عندما منّ على الإنسان بهذا العقل الثمين، أراد له أن يستفيد منه الفائدة الكاملة، فلا يترك من طاقته شيئًا، ولا يهدر جزءاً واحداً من أجزاء نشاطه الذي لا يكاد يعرف حده، ولا إلى أي مبلغ يمكنه أن يبلغ. فالبصر النافذ

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير: ٣٦٨.

يتعمق في الأمور، خاصة عند ورود الشبهات، وهو وقت قمة الحاجة إليه؛ فلا تقبل منه النظرة العابرة، ولا الفكرة التي تستقر على السطح، أو على الجلد، أو التي ترقب من بعيد؛ ولكن المتوقع منه أن يلبس ثوب الغوص، فينزل إلى الأعماق، فيعرف كنهَ الأمور، ودخائل الحوادث، حتى يفضح الشبهة، بمعرفة مواقف الضعف فيها، فيجهز عليها إجهاز الواثق بما يفعل، لأنه أعد خطته، وبنى سيره على نور؛ ولو أن كل شبهة قوبلت بمثل ذلك، لخسر مبرزو الشُّبَه، وخاب أملهم، وانحسر مدهم، وأفسد قصدهم.

والعقل الكامل مطلوب عندما يأتي طوفان الشهوات، وهو طوفان قوي، يسبقه ما يمهد له الطريق، ويسهل له السبل؛ فالشهوات لها جيش خفي من العواطف، يهيء لها الأمر، ولا صخرة صلبة أمامها إلا العقل الكامل، ولا حصن منيعًا إلا هو، وضعه الله لذلك، وهيأه بقدرته -

سبحانه وتعالى - فكان نعم الحامي، ونعم الواقي بإذنه.

والشهوات خطيرة، إذا تبع المرء واحدة قادته إلى أخرى، ويبقى في سلسلة منها، لا يعرف طرفها، ولا يدرك مداها، والشهوات مذاقها حلو، وإغراؤها طاغ، لا يرى الواقع فيها إلا الجانب الضاحك الممتع، أما الوجه الكريه العابس، فلا يأتي إلا في وقت يكون المرء قطع مرحلة في صحراء، الاستمرار فيها قاتل، والرجوع منها مهلك، ويندم الإنسان، ولات حين مندم.

لهذا اعتبر هذا القول جوهرة من جواهر الكلم، يخفى وراءه شيئًا كثيراً من التجارب، عن حوادث حصلت، عانى منها من عانى، وسلم من سلمه الله - تبارك وتعالى.

ومن الكلمات الساطعة المدلول، الناصعة المعنى، المسعدة للمتبع، كلمات جاءت على لسان الأصمعي، أحد من عرفوا بالعلم والمعرفة، وسعة

الرؤية، لأمور الفكر واللغة؛ وحقول تجربته في الحياة واسعة، فكان صاحب فكر منير ونظرة صائبة، في اختلاطه بالحاضرة والبادية، وبعلماء مجتمعه، وبعامة الناس. والنص يُروى عنه هكذا:

«قال الأصمعي:

ست يضنين بل يقتلن: انتظار المائدة، ودمدمة الخادم، والسراج المظلم، والوكف من أول الليل إلى آخره، وخلاف من تحبه، والنظر إلى بخيل». [1]

لا عاقل يمر بهذه الجُمل إلا يقول للأصمعي: صدقت، لا فض فوك، فكل واحدة من هذه الكلمات سراج منير، وقنديل مضيء، يهدي إلى حق، وينطق بالصدق.

لم يجد الأصمعي أنهن يضنين فقط، بل تدارك، وأكد أنهن يقتلن، لقوة ما فيهن من الأذى، وما تحتوي كل واحدة منهن من أثر على أعصاب الإنسان، وهي من أكثر ما في الإنسان إحساسًا،

(١) البخلاء، للبغدادي: ٧٦.

وسرعة تأثر وانفعال.

فانتظار المائدة، مع طارق الجوع، وناقوس المعدة، عناء كبير، ولهذا قال العامة: «مُقَابَلُ الجَيْشْ وَلاَ مُقَابَلُ العَيْشْ». فهان الغزو والقتال في ميدان الحرب، عن المصابرة والمعاناة على السفرة والمائدة، وقد قالوا: إن الجوع كافر، لأنه لا يرحم صاحبه، فقد يخرجه من طوره فيرتكب صاحبه ما يدخله قسراً منطقة الكفر؛ لأن الجوع يعمي البصر والبصيرة. وكم من قَتْلٍ أدى إليه جوع، وكم من موبقات ارتكبت كان وراءها الجوع.

ودمدمة الخادم أقرب معنى لها مرفوض من الخادم ما جاء في المعجم، فهي إما غضب الخادم، أو ما يأتي منه مما يغضب، أو ما يخفيه، ويغمغم عنه؛ وأي أمر من هذه الأمور يقلق المتعامل مع الخادم، فالمتوقع من الخادم الطاعة والامتثال، والغضب يهدم هذا؛ والمنتظر من الخادم ألا يأتي بما يغضب مخدومه، فإن أتى بشيء من هذا خالف ما

أمل فيه، وإن لم يقل الصدق، ولجأ إلى المناورة في القول، والتضليل عما سئل عنه، ارتكب المحذور، وأقدم على الخطأ؛ وانتزعت منه الثقة.

فهو في كل هذه الأحوال يكون متعباً لمخدومه، والمطلوب أن يريحه، وأن يحمل عنه مكابدة جزء كبير من العمل، وأن لا يشغل باله بأمور تصرفه عما هو أهم، وأكثر إنتاجاً.

والسراج المظلم، جسم بلا فائدة، فإذا فَقَد السراج الإضاءة أزعج صاحبه، الذي أمل فيه أن يكون هاديه في الظلام، الذي هو عدو الإنسان اللدود في الليل، فالسراج الساطعُ النورِ يقلب ليل صاحبه نهاراً، فيسير في أموره على بصيرة، براحة بال، وهدوء نفس، يختار ما يعمل، ويختار ما يترك، أما إذا فقد السراج نوره، فقد معه الإنسان راحته وهدوءه، وأُنهكت أعصابه، وربما فقد مع هذا إنجاز عمل كان عليه أن يعمله؛ وفي حياتنا اليوم يمكن أن نتصور إنطفاء السراج، والطبيب في

وسط إجرائه عملية جراحية رئيسة، ينطفئ عليه النور، ولا نور آخر عنده يرفده، فقد يموت المريض، كما توقع الأصمعي.

ويمكننا أن نتصور هذا الشعور الغامر بالألم عن انعدام النور، بما مر علينا من حالات انطفأ فيها النور، وكيف كنا نتلمس شمعة صغيرة، نحسبها بفائدة الشمس في فرحتنا بها، ونراها على صغرها جيشًا عرعرمًا يبدد الظلام.

والوكف من أول الليل إلى آخره، مطرقة منتظمة الطرق على أعصاب السامع، لا يمكن أن ينام وناقط المطر ينزل نقطة نقطة بطريقة منتظمة، ذات صوت هادم للأعصاب، مقلق للراحة؛ هذا مع انشغال فكر ببحيرات الماء التي سوف تتجمع في البيت، فتودي بأساسه إن كان طيناً، وتقضي على الفرش والمؤن، وقد تؤدي إذا تجمعت على أساس المبنى أن ينهار، فهي موسيقى نشاز رتيبة مقلقة.

والخلاف مع من يحبه الإنسان من قريب أو صديق أو صهر، مقلق لراحة المرء، لأنه لا يجتمع حب وخلاف، فقطاراهما لا يسيران متجاورين، بل متعارضين، مما يقرب خطر الاصطدام المخيف، بعد أن بدت بوادره، ولاحت مبادئه، وبرقت أوائله، ولم يبق إلا أن يهطل مطر عذابه، ويعج ريحه، أو يثور غباره.

والحبيب أيّاً كان يَتَوَقَّعُ منه الحب أن يتنازل عن حقه لمن يحب، والمتحابان يتسابقان إلى ذلك، فإذا لم يفعلا بدأت الثقة في الحب تفقد بين الحبيبين. وهذا مصدر القلق القاتل عند الأصمعي.

والنظر إلى بخيل نَظَرٌ إلى شيء بشع، فالظاهر منه يذكر بسوء فعله، وما ينبذه المجتمع منه، فكل نظرة إليه تذكر بحادثة من حوادث أعماله السيئة، وشحه المقيت.

ـ[1] وكل حركة حسنة تُؤَوَّل بقبيح، وتوحي بأمر

(١) من هنا يبدأ الجزء المضاف لما نشر في صحيفة «عكاظ».

ممقوت، وكل حركة سيئة تؤكد الرأي المتدني فيه، وتذكر بشحه وبخله. وكره البخل يأتي من أنه مظهر أَثَرةٍ، وحبٍّ للنفس، فهذا الإنسان الذي استفاد من مجتمعه، وجمع ثروته منه، بتعاون معه، يشحّ بماله أو جاهه عند الحاجة الحقة، ولا يذكر حينئذ إلا نفسه، ومنفعتها، وقد يأتي بخله مُرَكَّبا، فينتهز فرصة حاجة غيره إليه، أو إلى غيره، فيستغله، مستفيداً من الحاجة التي هو فيها، ومغتنماً الفرصة التي قد لا تتكرر، فتسنح في المستقبل.

ولهذا كله اعتبرت كلمات الأصمعي جواهر من الكلام، لأن كل واحدة صادقة في موقعها، وهي وأخواتها يمثلن عقداً جميلاً من اللؤلؤ، المتناسق في حجمه، وفي تجاوره، وفي صفائه وتلألئه.

وننتقل إلى جوهرة ثمينة، وجدت في بحر زاخر بالخيرات، وهو صدر الخليفة، عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وعمر كان ذا فكر ثاقب، وبصيرة نافذة، ولهذا استفاد من التجارب التي مرت به،

فصاغ منها في ذهنه أنظمة ثابتة، منها ينطلق في حكمه على الأمور، وبها يستعين على ما يقابله من مشاكل، ومن بينها يستخرج ما يوائم الخلافة، التي بدأت تتسع أطرافها، وتنداح جوانبها، فانضمت إليها ممالك، ودخلت فيها أقطار، وجاء معها أمم غريبة، وشعوب متباينة، وبدأت تؤثر في المجتمع الإسلامي تأثيراً يحتاج إلى رأي عمر في توجيهه، وإلى حزمه في تهذيبه وتنفيذه، حتى لا تتراكم المشاكل، وتتداعى الصعوبات.

وعندما يقول عمر قوله الآتي، فقد غَلَى مرجل طبخ هذا الرأي في صدره، وقلّبه على وجوهه، وربما جربه على أناس، وساس به من احتاج إلى ذلك:

قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -:

«الرجال ثلاثة:

فرجل عاقل إذا أقبلت الأمور، واشتبهت، يأمر فيها أمره، وينزل عند رأيه.

وآخر ينزل به الأمر فلا يعرفه، فيأتي ذوي الرأي، فينزل عند رأيهم.

وآخر حائر لا يأتمر رشداً ولا يطيع مرشداً». (١)

هذا مظهر من مظاهر تفكير عمر بن الخطاب الناضج، وهذه صورة تمثل نموذجاً لما يدور فيه، وما يقلبه عمر فيه من أمور على وجوهها المختلفة، وما يتدبره عنها؛ هذه زبدة الخض الذي أجراه، وتعب عليه، جاءت صادقة جامعة مانعة؛ لم يترك شيئًا لوصف الرجال إلا شملته هذه الجمل الثلاث، قَيَّدَ أَوَابِدَها فيه، وأحاطها بسياج، لا يخرج منها شيء، ولا يدخل إليها زيادة؛ فهنا رجلان ما يأتي منهما إلا مضيء، لأن أحدهما فكره يهديه، والثاني إن شك، استنار برأي منير، وأخذ به، وأتكأ على متكإٍ قوي، وجدار مكين.

أما الثالث، فلا عقل يهديه إلى معالجة الأمر أمامه، والتغلب على مشكله، ولا في عقله من

(١) العقل وفضله: ٦٦.

الهدى والبصيرة ما يجعله يستشير، فالرأي قد يكون تحت صخرة عاتية، لا يستطيع زحزحتها إلا المهيأ لهذا، فتأكل خير ما فيه الأمور المشتبهة، ويبوء بالخسران.

وكأن عمر بما قال يصف نفسه ومن حوله، فهو عاقل يبت في الأمر إن تبين الرشد فيه، ويستشير من حوله، ممن هو أهل أن يستشار، فيأخذ بالرأي يلمح فيه الصواب، وهو النابه الفطن. ولا بدّ أنه رأى من لم يكن مثله عقلاً، ولا شبيهه حزمًا.

ولسفيان بن عيينة، وهو من الرعيل الأول، أهل الفضل، ومحط الثقة، قول مأثور، يقف المرء أمامه متمتعاً بصدقه فيما يقع عنه؛ وهو قول مختصر، ولكنه قول جامع، ورأي سديد، يثبت عند الحك، ويصدق عند التطبيق؛ وهو قول نبيل، لأن مرماه نبيل، ومؤداه شريف:

روي عن سفيان بن عيينة أنه قال:

«لا تنظروا إلى عقل الرجل في كلامه، ولكن انظروا إلى عقله في مخارج أموره». [1]

صدق سفيان، فقد يكون المتكلم أميناً صادقاً، يفعل ما يقول، ويأتي ما يأمر الناس أن يأتوا به، وعلى هذا فهو متبع، ومتبعه ممدوح، والسائر في ظل كلامه محترم، وسيره في نور القول الصادق لا بدّ أن يوصله إلى النجاح، ويؤدي به إلى الفلاح.

وقد يكون المتكلم يستسهل القول، يرميه على عواهنه، ولم يجرب عملاً ما يقوله نطقاً، فيغش الناس، عندما يغترون بكلامه، ويظنونه يتكلم عن تجربة، وفعل قام به، فيثقون بمن هو ليس أهلاً للثقة، ويصدقون من لا يستحق التصديق.

والاختبار الذي دعا إليه الحسن دعا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إليه في أمر مماثل، وذلك عندما امتُدحَ أمامه شخص، فسأل عمر المادح إن كان سافر معه، وعمر يعرف أن السفر

(١) العقل وفضله: ٥١.

محك أمين على كشف الناس، وفضح تزويرهم، فعندما أجاب المسؤول أنه لم يسافر معه، قال عمر: لعلك رأيته ساجداً قائماً في المسجد، وعمر يعرف أن هذا أحياناً من خير حبائل إبليس ينصبها أتباعه، ليصطادوا الناس، الذين ليسوا بنباهة عمر، وخبرته، وبصيرته.

والحسن البصري، وهو باقة تجمعت فيها زهور مختلفة من نظرات الخير، والفقه في الدين، مع رجاحة عقل، وجرأة في الحق، وصراحة فيما يحمي الدين، ويصون العقيدة، ويحصن الخلق؛ وله بصيرة بالناس، وما ينحاك في صدورهم، إن خيراً وإن خلافه، فهو يعرف طبيعة البشر، ولهذا جاء قوله صدقًا، ورأيه صائبًا، وله قول في وزن القول مع الفعل:

«قال الحسن:

فضل المقال على الفعال منقصة، وفضل الفعال على المقال مكرمة». [1]

---

(١) العقل وفضله: ٦٠.

وهو قول يصدق على كثير من جوانب الحياة، ولو أردنا أن نحصي المواقف التي يمكن أن نرى انطباق هذا القول عليها، لما استطعنا؛ فالمدعي الكرم، المتزود القول به، المتشدق بما يربو على الحقيقة، إذا وجد فعله أقل من قوله، سقط مقامه، وضاع احترامه، ولم يعد لقوله قيمة أو وزن. ومدعي الشجاعة إذا كان قوله يفيض وعاؤه عما يتسع له فعله، خاب مسعاه في تأثيره على سامع أقواله؛ وربما جاء يوم اعتمد السامعون على قوله، ولم يتنبهوا على زيادته عن فعله، فجاءه هذا بكارثة، لا قبل له بها، أرأيت متشدقاً يدعي أنه يصارع الأسود، ولا يخشى بأسها، لو تعرض لأسد، مما لم ير من معه من السامعين مساعدته، أو الوقوف بجانبه، ما هو مصيره؟

والأمثال لا تحصى عمن يزيد قوله عن فعله، ويتعدى في القول الحدود، ويقصر في الفعل عن مرحلة الإجْزاء. وهكذا يصبح هذا منقصة، وهذا

محمدة كما قال الحسن، لأن الصامت الذي لا يأتي منه إلا الفعل يفاجئ الناس عند الحاجة، إذ يجدونه خيراً ممن ظنوا، قياسًا على قلة حديثه عن نفسه، وهي صفة الصادق في فعله.

والكلمة الصادقة لا تفوت النابه، بل توقظ النائم، وتنبه الغافل، فهي مضيئة بنور الحقيقة، الذي يجري خلفه كل عاقل، ويطلبه كل سليم القلب والحواس؛ ولا يهم مصدر الكلمة المشعة، فالحكمة ضالة المؤمن أين وجدها التقطها، وهذا الحسن البصري يلحظ كلمة في خطبة الحجاج، على بعد ما بينهما في السَّير في طريق الحياة، فيتمسك بها، وتشغل باله لصدقها، وتحوز تفكيره، فتسيطر عليه، يفتح لها أبواب قلبه، ويضع لها مفارش ذهنه، تقبلها نفسه، فتتشبع بها، وكأنها درة ثمينة أهديت إليه، وجوهرة حُبِيَ بها:

قال الحسن:

لقد وقدتني (أمرضته أو أهمته) كلمة سمعتها

من الحجاج.

قيل، وإنّ كلام الحجاج ليقذك!؟

قال: نعم، سمعته يقول على هذه الأعواد:

«إن امرأ ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لحري أن يطول عليها حزنه». (١)

لقد نطق الحجاج بكلمة منيرة، سطع نورها في قلب الحسن، الناقد الكفيء في فهم معاني الكلمات، ومرامي الأقوال، يعرف جواهر الكلم، ولآلئ الأفكار، ولقد ولجت هذه الكلمة إلى سويداء قلبه؛ لأن فيها إيماناً حقًا، وطاعة متناهية، تغلغلت في داخل نفس الحسن، فتقابلت مع إشعاع الإيمان فيها، فاصطحبتا، وأخذت هذه الوافدة الجديدة مكانها، من صدر رجل طالما ألقى الوعظ، وأرشد الناس، فهو مُهْدِي أمثالِ هذه الجواهر، ولهذا كان خبيراً بما يأتي منها، واقفًا نفسه عليها.

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٨.

والحسن خيّر يحب الخيرين، والطيور على أشباهها تقع، وقد أهدى الحسنُ يوماً رأيا لصديق، أمل فيه خيراً، فعرض عليه الصديق رداً على رأيه ظن أنه جوهرة أصيلة، فأراه الحسن أن المظهر لا يكفي، وأن هناك مطعناً في داخل ردّه، وخللاً في ثناياه لم يتنبه له صديقه، إذ أُخِذ بأول فكرة خيّرة خطرت بباله؛ وأحياناً يكمن الخطر في الفكرة الأولى الطارئة، ولهذا يقولون دع الرأي يختمر، فإنه حينئذ ينكشف فيه مؤخراً، ما لم يتبين أولاً. وللفكرة الأولى بريق، لأنها تأتي، وصفحة الفكر بيضاء، فتملؤها، ولا تدع لأخرى مكاناً، ما لم يتنبه المرء فيتدخل، ويحدد الحيّز لكل فكرة يقلبها في ذهنه.

ولهذا فالحسن أظهر لصديقه أن خلف البريق زيفاً أعشى عينيه أن ترى الحقيقة، والقصة كما يلي:

«قال الحسن البصري لمطرف بن عبدالله بن الشخير:

«عِظْ أصحابك».

فقال: أخاف أن أقول ما لا أفعل.

فقال الحسن: يرحمك الله، وأينا يفعل ما يقول. يود الشيطان أنه ظفر بهذه منكم، فلم يأمر أحد بمعروف، ولم ينه عن منكر».[1]

إن فيما قاله مطرف وجهاً جميلاً عند أول نظرة، وإنه لسلاح مقنع في يد الشيطان أرضخ به قلب هذا الزاهد؛ ولكن نور الله الهادي شع في قلب الحسن، فرأى في القول ختم الشيطان، وهو عدو له، وهو خير من يعرفه وطرقه، وتلبيسه، فلفظ بدرر القول، وصادق الرأي، فأزال الظلمة التي حدثت من قول مطرف.

ليس هناك من لا يلمسه التقصير في عمله، ولكن هذا لا يمنع المرء أن يبث الخير، فلعل الله يرى في عمله من الإخلاص، وصفاء النية، ما يساعده به على نفسه، فيفعل بدقة ما كان يدعو

(١) ربيع الأبرار: ٢/١٣٨.

الناس إليه من الخير، فإن كان حرم في أول الأمر من أجر العمل بما يقول، فقد يتداركه الله بلطفه، ويستعيد لاحقاً ما افتقده سابقاً.

والحكمة: لا يحملها إلا مستحقها، مثل البذرة الجيدة، لا تنبت نباتاً حسنًا إلا في الأرض الخصبة الصالحة لها؛ فالحكماء كلامهم ثمرة أفكارهم النيرة، لا يأتي إلا بعد تفكير وتمعن، وإذا قالوا الحكمة قالوها بأقل الكلمات، وأوضح الأساليب، ولهذا فهي تبقى مع الزمن، تبرز من بين الأقوال، وقد قال أحد الحكماء قولاً عندما يوزن بالواقع، وما يحدث من الأمور الطبيعية، التي تمشي مع نظام الكون الذي أوجد الله - سبحانه وتعالى، يتبين أنه صادق، والقول هو كما يلي:

«قال بعض الحكماء لأخ له:

يا أخي عقلك لا يتسع لكل شيء، ففرغه لأول المهم من أمرك، وكرامتك لا تسع الناس، فخص بها أولى الناس بك؛ وليلك ونهارك لا يستوعبان

حوائجك، فاسقط عنك ما لك منه بد؛ وليس من العقل أن تذر من الخير ما لا بدّ منه، ولا تمدح من لا تخبر إحسانه». [1]

هذا الحكيم أعطاه الله عقلاً قادراً على التنظيم والترتيب، وقد أدرك أن طاقة عقل الإنسان محدودة في الحدود التي وهبها الله له، ولا تتسع لكل شيء يعرض للإنسان، أو يتطلع إليه طموحه، ومن حمل من العبء ما لا يطيقه ظهره كسر هذا الظهر، وفقد القدرة على حمل أقل الأثقال وزنًا؛ وما دام الأمر بهذه الصورة فلا بدّ للإنسان أن يقدم الأهم على المهم، ويبدأ بما يخشى عليه لو أخر أن يفوت وقته، أو يأتي من ذلك ضرر.

والمعروف يسدى، والإحسان يعطى، والصداقة تمنح، وهذه أمور لا تستوعب في حيزها جميع الناس، ولا بدّ من التصفية، وتقديم الأولى، وترك من ليس كذلك، وفي هذا حكمة وعقل، لا يجادل

(١) العقل وفضله: ٦٩.

فيهما إلا مكابر.

والليل والنهار يتعاقبان في حيز من الوقت لا يتعديانه؛ وفيهما من الواجبات الثابتة ما يأخذ منهما الكثير، وما يبقى فعلى الإنسان أن يبدأ بما لا بدّ منه؛ لأنه ليس من العقل أن لا يبدأ بما هو مقدم في الأهمية، ويؤجل غيره، فإن اتسع الوقت، وإلا فلا يتسبب في ضياع ما هو أهم منه.

وتأتي الكلمة الختامية لهذه الحكم وهو عدم مدح من لا يأتي منه خير على المدح؛ لأن الإنسان يكون مثل من يضرب في حديد بارد، أو يغرس في أرض سبخة، وحينئذ لا يناله من جهده إلا النصب.

وللحكماء أيضًا أقوال أخرى رصينة، تصيب كبد الحقيقة؛ فائدتها كبرى، وعائدها لا يستغنى عنه؛ لأن في ما احتوت عليه من النفع ما لا يقدر بثمن، فهي حقًا جواهر كلم؛ مراعاتها تجنب الإنسان صعوبات جمّه، وفيها مقياس لوزن الأمور بميزان دقيق؛ ولو عَرَضْت أخطاء الناس، وما

يلاقونه من تعب من جراء هذا، لوجدت أن ذلك بسبب الجهل بهذه الأمور، التي هي أنوار على الطريق تهدي السالك، وترشد الضال:

«قيل لبعض الحكماء: أوصنا.

قال: احفظوا وعوا، إنه ليس من أحد إلا ومعه قاضيان باطنان، أحدهما ناصح، والآخر غاش. فأما الناصح فالعقل؛ وأما الغاش فالهوى، وهما ضدان، فأيهما ملت معه وَهَى الآخر». (١)

والعاطفة غالباً يتغشاها الهوى، وهي قوية فإذا لم يرجح عليها العقل قادت صاحبها إلى ضرر أكثر مما كان يتصوره لو كان اتبع العقل، وإن كان في اتباع العقل بعض التعب، فإنسان نصحه الطبيب بقطع رجله، للغرغرينا التي أصابتها فجعلته العاطفة لا ينصت لصوت العقل، وجاراها في الحفاظ على رجله، لا يلبث أن يجد الداء استشرى، وقضى على المرء، ويقاس على كل هذا ما جانب

(١) العقل وفضله: ٦٩.

العقل من هوى أو عاطفة أو غرض أو ميل مجحف.

ونذهب لنسمع قولاً صائبًا، ورأيًا سديداً من أنوشروان، وهو من عرف بالعدل في زمنه، والعدل لا يأتيه إلا من أعطاه الله عقلاً رزينا، وفهمًا عميقًا، وذهنًا صافيًا؛ حتى يرى فوائد العدل، ويتمسك بها، وتصبح هي التي تقوده إلى عدم التفريط في هذه الفضيلة، التي فيها راحة الرعية، وسرور الراعي، فاستطاع أن يجعل من نفسه مطيعًا لفضيلة العدل كما تفعل الرعية في ولائها له بإعطائه ما هو أهل له منه:

«قال أنوشروان:

الناس ثلاث طبقات، تسوسهم ثلاث سياسات:

طبقة من خاصة الأحرار، تسوسهم باللين واللطف.

وطبقة من خاصة الأشرار، تسوسهم بالشدة والعنف.

وطبقة هم العامة، تسوسهم باللين والشدة، لئلا تخرجهم الشدة، ولا يبطرهم اللين». [1]

(١) تسهيل النظر: ١٣٠.

كسرى أنوشروان من ملوك الفرس، وبيته بيت ملك عريق، لم يقض عليه إلا الإسلام؛ وقد اشتهر بالعدل؛ وحري بملك يقسم الناس هذه الأقسام - التي تدل على فكر وعقل، لا يستطيع أحد أن يزيد عليها، أو ينقص منها، أو يخلف ترتيبها المتقن هذا - أن يُعرف عنه العدل، وقد فعل ما سبق أن قال، فطابق فعله قوله، والحر يكفيه أن يحكم باللين واللطف، والعرب تقول:

العبد يضرب بالعصا والحر تكفيه الإشارة

وليست هذه السياسة وقفاً على الناس، بل إن الحيوان له نصيب منها، فصاحب الحمار يلهب جسمه بالسياط، ليسير على النهج الذي يريده له سائقه، أما الحصان، فيكفيه لمسة خفيفة من اللجام؛ أما الضرب فيجرحه، ويؤذي شعوره، ولا يأتي منه على أثره خير، وإن ظَنَّ ذلك ظانّ فهو وهم، أدى إليه الجهل بالخيل ونفوسها، وبعاداتها، وهي أقرب للإنسان في الشعور.

والطبقة الثانية من الأشرار، وهؤلاء لا يَنفع معهم اللين، ولا يفيد فيهم اللطف، لأنه يتنافى مع طبائعهم الشريرة، فهم يؤلون اللين بالضعف، واللطف بالخوف، فيغريهم هذا بزيادة الشّر، والمداومة على العنف والأذى؛ وليس لهم إلا الحزم، بالأخذ على يدهم بالشدة، وأن تزيد هذه القوى على العمل السيء الذي ارتكبوه، والأذى الذي سببوه، فيثبت في ذهنهم ألم العقاب، فيذكرونه عند كل نية، على الإقدام على الشر؛ وفي معاقبتهم العقاب الصارم تأديب لهم، وإرضاء لمن نزل به أذاهم، وعبرة لأمثالهم.

أما العامة فيحتاجون إلى ميزان دقيق، يستطيع به الحاكم التمييز بين من يحتاج إلى المعاملة باللين، أو الشدة، حتى لا يوضع الشيء في غير موضعه، لأن القسوة، وزيادة الشدة، تدفع المعاقب للخروج عن الطاعة، وتضطره إلى تفضيل ذلك على الهدوء والسكينة، لأنه يشعر أن ذلك الخروج لن يأتيه

بعقاب أكثر مما جاءه. واللينْ مع من لا يناسبه اللين، والعطف مع من لا يستحق العطف، يجعل الناس يبطرون، ويخرجون على النعمة، ومن أكبر ما يؤدي بالمجتمع إلى الخلل هو البطر، ونكران النعمة، وعدم شكرها؛ وحينئذ ينقلب الخيّر شريراً، والهادئ مزعجًا.

والإطار المتقن، الذي حصر هذه القواعد الثلاث، يشبه الإطار الذي وصفه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في رأيه السابق في الرجل العاقل.

والخيّرون من الرجال يهبهم الله البصيرة، يخرجون بآراء يفاجأ بها الناس، لأن المرء عندما يسمعها للمرة الأولى، وقبل أن يمحصها، يظنها تجانب المتعارف عليه من الكلمات ومدلولها، وما تعارف الناس عليه في ذلك، ولكن صحتها، وغلبتها لما يخالفها، تتبين عند التدبر والتمعن، وهي تزيد من احترام قائلها، وتدفع قدره إلى الصفوف الأولى عند السامعين، وفضيل بن عياض أحد الرجال

الزاهدين، المقر لهم بالفضل، وسداد الرأي، والتبحر في الدين، وله أقوال يتلقفها العارفون بقدر تلقف الظمآن إلى إناء الماء، ومن أقواله الحكيمة القول الآتي:

«لأن يصحبني فاجر حسن الخلق، أحب إليّ من أن يصحبني عابد سيء الخلق». [1]

هذه نظرة عميقة لا يصل إلى عمق بحرها إلا رجل وصل سببه بالله - سبحانه وتعالى - وجعل كده له، واتبع المنير من السبل الموصلة إلى رضاه، فالفاجر عليه فجوره، ولمصاحبه معاملته الحسنة، فمصاحبه مثل من يأخذ من الوردة رائحتها، ويتجنب أن يصله أذى شوكها. والصحبة تتطلب حسن الخلق، من احترام المصاحب، ومراعاته صاحبه، فلا حرج ولا أذى؛ بل يؤدي حق الصحبة على الوجه الأكمل، أما سيره الخاص، فلن تحرق ناره إلا نفس صاحبها، والمصاحب في منجى منها.

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ١٤.

أما العابد فخير عبادته لنفسه، وسوء خلقه لصاحبه، وبئست الصحبة، التي تنغص الصلة بين المتصاحبين، وترمي بثقل على المصاحب، فهو لم يصاحب إلا ليفيد ويستفيد، أما إذا جاءت الصحبة بأذى، فقد انتفت فائدتها، وحل محلها ضرر مستديم ما دامت الصحبة، ولو تصورنا أن العابد المصاحب كانت صحبته في سفر، وهو الحال التي يتبين فيها المصاحب، ومدى نفعه لصاحبه، لتحمل بعض أعباء الطريق، من نصب خيمة، وجمع حطب، وجلب ماء، وإعداد طعام، والمساهمة الحقة في التحري عن الطريق، وأقرب مسالكه وأسهلها، فإذا كان المصاحب سيء الخلق عند كل أمر من هذه الأمور صارت الرحلة رحلة عذاب.

والرسول - عليه الصلاة والسلام - قال عن المؤمن إنه هين لين، وهذا الوصف ينافى الخلق السيء الذي قد لا يستطيع العابد مع عبادته أن

يتخلص منه، أو يقلع عن رذيلته، هذا إذا عرف أنه فيه.

وحديث الرسول ﷺ صيغته الكاملة كما يلي:

«المؤمنون هينون لينون كالجمل الأنف إن قيد انقاد، وإن أنيخ على صخرة استناخ».[1]

ومن المواقف التي جاء فيها قول مضيء موقف يتكرر كثيراً، بسبب رأي خاطئ سار عليه كثير من الناس، وظنوا أنه الحق، لما فيه من بريق العاطفة الجذاب؛ فتجد أحدهم يأنف من تحمل إهانة عابرة، رغم أن هذه الإهانة قد تعفيه في الغالب من سلسلة من الإهانات وعدد من المواقف المذلة، الجارحة للكرامة، ولكنه، في حماسه لرفض الإهانة الأولى لا يفكر فيما هو أبعد منها؛ لأن ما ثبت في ذهنه عنها هو ما تعارف عليه الناس في زمنه، ولهذا فهو يفاجأ إذا ما اعترض عليه معترض، وحاول نقض هذا الاعتقاد الراسخ، واجتثاثه من

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ١٣.

جذوره؛ ويصاب هو ومن يرى رأيه بالدهشة والاستغراب، فتوقظه هذه المفاجأة من نومه، وتبين له أن للأمر جانبًا آخر لم يفطن له.

إن النور الساطع الذي أتى مع الفكرة الجديدة سوف يبدد ظلام الفكرة القديمة التي كانت مخيّمة في ذهنه، وكم من أنفة زائفة، وعزة ساذجة، أدى إليهما اعتقاد خاطئ، لقي الناس منهما عناء كبيراً ونصبًا مقيمًا.

لقد ترسبت هذه العقيدة المهتزة مع الزمن، وتسلسلت مع الوقت من الآباء إلى الأبناء، فأصبحت إرثاً متمكنا، غطى على عيونهم فلا يرون العيوب التي تأتي منه، وهي واضحة للمتدبر، مقلقة للمتبصر.

فهناك أناس مثلاً يأنفون من التواضع لعظيم، فيؤدي بهم العوز إلى طرق باب حقير؛ ويترفع أناس عن الاستعانة بقريب، فيلجئهم هذا إلى التذلل لبعيد؛ ويشمئز أحدهم من عمل يرى أنه

أقل من مستواه الاجتماعي، أو منزلته العائلية، فيبعد في البحث عن الرزق، ويتغرب في البلاد، ويقبل من الأعمال ما هو أكثر ضعة مما هرب منه.

والترفع عن بعض الصناعات المهيْنَة، رغم الحاجة، سمة لبعض المجتمعات مما يجعل المتهربين يتعرضون بسبب ذلك إلى إهانات أكثر، واحتقار أشد.

وتأتي الحكمة عن هذه الحال التي هرب منها صاحبها من الذلة على لسان أعرابي شاعر، رآه من رآه، قاعداً منتظراً الأذن على باب حاكم، فلامه على انتظاره، واذلال نفسه، فألقى بالدرة الثمينة الآتية:

أهين لهم نفسي لأكرمها بهم
ولن يكرم النفس الذي لا يهينها[1]

أراد الشاعر أن يهين نفسه مرة لدى رجل شريف، حتى لا يحتاج فيهينها عند وضيع، وربما

(١) بهجة المجالس: ١/ ٢٦٤.

كانت الإهانات متعددة. فالشاعر الأعرابي هذا حكّم عقله، فأوصله إلى هذه الفكرة المنيرة، ولو أطاع عاطفته، وما تعارف عليه الناس من وحي العاطفة، لأدت به إلى ما سينتهي بندامته، وإن بدا ظاهراً من يقع في هذه الحفرة، سعيداً بأنفته الساذجة.

ونعود مرة أخرى في نص آخر يوهم عند النظرة الأولى أنه خطأ، لأنه يسير خلافاً لما تعود عليه الناس، وهو في الحقيقة يسير في الطريق السليم، وقائله يدل على أنه نابه، أدرك ما لم يدركه كثيرون، وتنبه لما لم يتنبهوا له، واستطاع أن يصوغ من فكره حكمة يضيء نور الحقيقة منها، فيهدي المستهدي إلى ما يفيده.

«قال بعض البلغاء:

أضعف الحيلة خير من أقوى الشدة، وأقل التأني أجدى من أكثر العجلة». [1]

---

(١) تسهيل النظر: ٢٢٧.

وهو قول صادق، لا أظن أن أحداً لم يمر به موقف ينطبق عليه هذا، فكثير من الأمور يسهل عسيرها بأخذها بالحيلة، ولو عولجت بالقوة والشدة استعصت. وتبدأ الأمور في هذا من أصغر المسائل، ولا تنتهي إلا عند أعظمها، فالطفل مياسرته تأتي بالثمرة المرجوة، والحيوان كذلك، والحرب التي قد تحتاج إلى جيش عرمرم، قد تكسب بحيلة صغيرة، يطرحها فِكْرٌ نَيِّر، وينفذها نَابِهٌ فذ؛ واللين والحيلة الضعيفة، المستهان بها، تطفئ ناراً، لا يطفئها قوة وشدة، يظن أن فيهما الدواء، وقد تزيدان الداء حدة.

والأمور التي قد يغفل عنها الفكر العادي، يغوص على درر وصفها، ورسم صور صادقة لها، الفكر الناضج، فيأتي حيالها بالدرر الفرائد، والجواهر المكنونة، أداة ذلك بلاغة ومنطق، وحسن أداء في القول والأسلوب، والقول الآتي من هذا النوع:

«من أبطرته النعمة وقَّره زوالها» .[1]

السلطة نعمة، والمال نعمة، والصحة نعمة، فمن أبطرته هذه النعم، مثل صاحب السلطة، فطغى وبغى، اعتماداً على مقدرته، استيقظ من هذا الخطأ، عندما يفقد السلطة، ويصبح متسلطاً عليه، فيحس حينئذ بما كان يسببه لمن يرعاه من جهد وعناء وبلاء، حينئذ ينزل من أعلى الصرح إلى أسفله، ويهدأ ضجيجه، ويثقل تصرفه، ويبدأ يفكر في الأمر بتؤدة وتأنٍّ، بعد أن كان لا يلتفت إلى هذا، ولا يلتفت لغير الرأي الذي يريحه هو، غير آبه لما يسببه للآخرين.

وصاحب المال الوافر لا يفكر في موجبات النعمة، ولا يعطي الآخرين رعاية أو عناية، ويظلمهم، ويظلم نفسه فيما يوجبه الدين، وما يقتضيه واجبه تجاه مجتمعه؛ ولا يتنبه لمن حوله، وما حوله، إلا بعد أن يفقد المال، ويقف في

(١) تسهيل النظر: ٢٦٩.

الصف مع الفقراء، يرى ما يرون، ويحس بما يحسون، ويؤمل ما يؤملون، ويحلم بما يحلمون، إنه لم يركسه ليتبصر ويتدبر إلا زوال النعمة، لقد علّمه ذلك الوقار، لما كان المال استخفه به، والنعمة أبطرته فيه.

والصحة وتاجها، والعافية ودثارها، والشباب وزهرته، أحياناً تبطر من ليس لعقله جذورٌ ترسيه، فيقوى بعافيته على الضعفاء، وبشبابه على الشيوخ، وتُسْدره الغفلة، وتلهيه الكبرياء والعنجهية، فلا يُبقى قدميه على الأرض، وإنما يحلق بهما في سمائه، الوهمية، يرى الناس تحته، هو يطير وهم على الأرض، وهو يركض وهم يمشون، فإذا أفل نجم الشباب، وكسفت شمس الفتوة، وغاب قمر القوة، نزل من سمائه، وهجر علياءه، ومشى مشياً وئيداً، يشارك من هم في ضعفهم محل الرعاية، وفي سقمهم مسقط العناية؛ ويرى اليوم من الأمور الواضحة، ما لم يره أمس؛ لأن عينه

كانت في السابق مرفوعة إلى أعلى، فلا يرى الأدنى، واليوم تسايره الحقيقة، ويمشي بجانبه واقع الحياة، فلا زيف، ولا تدليس، ولا خيال ولا تزويق.

وتلمح جوهرة في قول صادق مكين، يصف واقعاً يغفل الناس عنه، ولو تبصروا لوجدوا أن هذا يتكرر في حياتهم، وان مجتمعهم يعاني منه:

«قيل من كثر تعدّيه، كثر أعاديه».[1]

وهذا من السنن التي تسير عليها المجتمعات، لأن الفعل يجلب الفعل، ولو تغاضى واحد على الخطأ والتعدي، لما تغاضى الآخر، والشرير يستمرئ العداء والتعدي، ويجد فيه إشباعًا لرغبة داخلية تصرخ، ولا تسكت حتى تشبع صراخها، وإنما يسكت بالتعدى والأذى للآخرين؛ فهي مثل الجوع والعطش في الإنسان، لا يطفئُه إلا الماء وازدراد الطعام.

---

(١) تسهيل النظر: ٢٢٤.

ويأتي قول مشع من شاعر توغل بمنظاره إلى عمق التجارب في المجتمع، وقد وصفها في البيت الآتي:

«قال أبو زيد الطائي - المنذر بن حرملة:

الخـــير لا يـــأتيـــك مجتمعـــاً
والشر يسبـق سيلَـه مطـرُه»[1]

والخير يحرص عليه الناس لأنفسهم؛ ولرغبتهم لنيله، وحرصهم عليه، يشعرون أن مجيئه متقطعاً لا يشفي غليلهم ولا يطفئ ظمأهم إليه، فمهما كثر فنظرة الناس تستقله.

أما الشر فقليله عندهم كثير، ويرون أنه لا وقت بين إنذاره ووقوعه، فهو لا يعطيهم بإنذاره القصير الوقت الكافي للاتقاء؛ واندفاعه، وسرعة تتابعه ملحوظ، لا يُغفل عنه، ولا يُفلِت من الملاحظة.

وتأتي الحكمة جوهرة مضيئة في القول الآتي:

---

(١) تسهيل النظر: ٢٣٣.

«لا يعاقب بالظن حتى يستيقن الذنب، فإن أكثر الظنون كاذبة». [1]

هذا تحرز في مكانه، وحذر مصيب كبد الحقيقة، وسبقه مما هو أحكم منه، وأوثق، قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾. [2]

ويبدو أن السبب في أن أكثر الظنون كاذبة، أن الإنسان ينساق خلف المظهر الموهم، خاصة وأن البريء في أغلب الأحيان لا يتحرز في عمله، لأنه لم يخطر في باله أن ما يعمله قد يدخل على نفسه الشبهة؛ والمذنب الحقيقي هو الذي يحسب لكل خطوة حسابها، فلا يثير لذلك الشبهة فيما يعمل، وينجو على هذا المذنب، ويقع في المساءلة البريء، الغافل عن المظاهر التي أوقعته، والحِمَى الذي دخله دون أن يدري.

ولهذا قيل لمن بيده الأمر أن يتأنى فلا يسارع إلى

---

(١) تسهيل النظر: ٢٨١.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

العقاب، اعتماداً على ظن لم يصل إلى مرحلة اليقين، وشك لم يصل إلى حد الاعتقاد، والتأني فيه السلامة، والاستعجال فيه الندامة، لأنه في مثل هذا الأمر لا يُرَدّ ما فات، ولا يستدرك ما وقع. والعاقل من يبعد عن مواقع الندم. وبهذا تضيء سماء المجتمعات التي يحلق فوقها طائر الخير وحبه.

هذه بعض جواهر الكلم، ولآلىء الأفكار، جئنا بنماذج منها، تعطي فكرة عن بعض جوانب الفكر الصافي، والنظرة الصائبة عن بعض أمور الناس في مجتمعاتهم، وكل جانب من الجوانب التي لمسناها فيه من النصوص ما يملأ النفس بهجة، لما كان عليه آباؤنا في ثقافتهم وفكرهم، ونظرتهم للحياة، وعنايتهم بما ينير العقول، ويوسع المدارك. وكل كتاب شامل من كتب التراث فيه أضعاف أضعاف ما أجملناه، وما هذه إلا لمحة تطعم ولا تشبع، وتسقي ولا تروي، ومن أراد أن يعب في مائها فالغدران ملأى بالماء النمير.

الفهـارس

(١) فهرس المواضيع حسب ورودها ٣٩٢
(٢) فهرس المواضيع حسب حروف الهجاء ٣٩٣
(٣) فهرس الأسماء ٣٩٤
(٤) فهرس الأماكن ٣٩٩
(٥) فهرس المراجع والمصادر ٤٠٠
(٦) فهرس الأبيات الشعرية ٤٠٦

(١)

فهرس المواضيع
حسب ورودها

* المقـــدمـة ٥
* أحـــلام وأحـــلام ١١
* الإنســـان والـزمـــان ٥٢
* اســـتدراك ولحـــن ٩٢
* حـــدود اللـــؤم ١١٦
* الإشـــعاع الخفـي ١٤٣
* العلماء سرج المجتمع ١٧١
* رياضـة فكـرية ٢٠١
* ســـوء فهـــم ٢١٦
* الرشوة في القديم ٢٣٦
* بـريـق الخـــرافـة ٢٥٢
* همـــوم وهمـــوم ٢٩٥
* در الســـحاب ٣١٨
* جـواهـر الكلمـات ٣٤٨

***

(٢)

فهرس المواضيع
حسب حروف الهجاء

* المقـــدمـة ٥
* أحـــلام وأحـــلام ١١
* اســـتدراك ولحـــن ٩٢
* الإشـــعاع الخفـي ١٤٣
* الإنســـان والـزمـــان ٥٢
* بـريـق الخـــرافـة ٢٥٢
* جـواهـر الكلمـات ٣٤٨
* حـــدود اللـــؤم ١١٦
* در الســـحاب ٣١٨
* الرشوة في القديم ٢٣٦
* رياضـة فكـرية ٢٠١
* ســـوء فهـــم ٢١٦
* العلماء سرج المجتمع ١٧١
* همـــوم وهمـــوم ٢٩٥

***

(٣) فهرس الأسماء

(أ)

إبراهيم المهدي: ١٩٤، ١٩٥
إبراهيم النخعي: ٦٨
الأبرش: ٢٢٧
أبرويز: ٣١
إبليس: ٤٤٧، ٢٩٣
الأحنف بن قيس: ١٦٩، ١٩٢
آدم: ٢٦٦، ٢٦٨
إسحاق: ٢٤٢
بنو إسرائيل: ٢٤٤، ٢٦٦
بنو أسد: ١٥٣
أسماء بنت عبيد بن مخارق الضبيعي: ٥٨
إسماعيل بن إسحاق: ١٤٥هـ
ابن أشوع: ٢٤٤
الأصمعي: ١٠٧، ١٠٨، ١٨٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٥٤، ٣٥٧، ٣٥٩
ابن الأعرابي: ٣٢٤، ٣٣٤
الأعمش: ١٠٣
الأمويون: ٢٣٣
العهد الأموي: ٥٧
انجليزي: ٨٢، ٢٦٢
أنوشروان: ٣٧٤
الأهرام: ٢٦٩
أوس بن حجر: ١٥٨
الأوقص المخزومي: ١٥٥، ١٥٦
إياس بن معاوية: ١٤٤، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢

(ب)

البخاري: ٢٤٠
بردة بن أبي موسى: ٢٤٦
بركة: ٢٦٧
بزرجمهر: ١٨٨، ١٩٢
أبو بكر الصديق: ٣٦، ٦٠، ٦١، ٩٢، ٩٥، ٩٦

(ث)

ثمامة: ٢٢٦

(ج)

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: ١٦٢، ٢٢٩
جعفر: ٧٩
جمعة (امرأة): ٣٤١
الجن: ٢٦٠، ٢٦١

(ح)

الحجاج بن نمر التنوخي: ٨٧
الحجاج بن يوسف الثقفي: ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣٣، ٧٠، ٧١، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٢٩، ١٣٠، ١٦٤، ١٦٥، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٦، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٤٥، ٣٦٧

الحسن البصري: ٥٧، ٩٩، ٣٣٠هـ ٣٦٤، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩
حصين بن عبدالرحمن: ٢٣١، ٢٣٢
حمار البارقي: ٣٢٠
أبو حمزة: ٦٨
أبو حنيفة: ٤٤، ٤٥
أبو حيان التوحيدي: ٦٣، ٢٢١، ٢٩٤

(خ)

خالد بن برمك: ١٦٥
خالد بن صفوان بن الأهتم: ٣٢١، ٣٣٢
الخطيب البغدادي: ٢٢١
خلف بن إسماعيل: ٧٤
الخلفاء الراشدون: ٥٧

(ر)

رابعة العدوية: ١٤٨
ربيعة: ٣١٦
ربيعة بن مالك: ٣٣٤
ربيعة بن عسل: ٣١٦
الرسول ﷺ: ١٢، ٣٧، ٤٠، ٤٤، ٥٦، ٥٧، ٩٢، ٩٤، ١٨٠، ١٨٥، ١٩١، ٢٢٢، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٥٠، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٧٩، ٣٨٠
هارون الرشيد: ٢٢٦، ٣١١، ٣١٢
ذو الرمة: ٣٤٠
الرياشي: ١٨٨

(ز)

زياد بن أبيه: ١١٩، ١٢١، ١٤٨، ٢٣٤، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٧
ابن أبي زياد: ٢٧٤
زياد بن عمر العتكي: ٣٢٨، ٣٢٩
ابن زياد النحوي: ١٧٧
زيد بن أسلم: ١٣٨
زيد بن ثابت: ١٨٠
أبو زيد الطائي (المنذر بن حرملة): ٣٨٨

(س)

السراج الوراق: ٢١٩
سعد بن مالك: ١٦٧، ١٦٨
سعيد بن جبير: ١٠١، ٢٤٦
سعيد بن المسيب: ٢٥
سفيان: ٧٤، ٧٥
سفيان بن عيينة: ٣٦٢، ٣٦٣
سقراط: ٧٦، ٧٧
سليمان بن عبدالملك: ١١٠
ابن سيار: ٢٢٥، ٢٢٦
ابن سيرين: ١٣، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ١٢٥

(ش)

الشافعي: ١٧٥، ١٧٦
ابن شاهين: ٢٢٢
شريح: ٢٣٤، ٢٤٥، ٢٤٦
الشعبي: ٢٤٠
شعيب الجباي: ٢٦٨
أبو جعفر الشيباني: ٨٥
الشيطان: ٢٢٩، ٣٧٩

(ص)

الصاحب بن عباد: ٩٨

الإمام الصادق: ٢٢
صالح التميمي: ٣٤٣
صبيغ بن عسل: ٣١٦
الصلتان السعدي: ٦٦

(ض)

الضحاك بن الأهبوب بن يموج بن طهمورث: ٢٧٠

(ط)

طيء: ٣٤٢

(ع)

عائشة: ٣٦، ٦٣
عـاد: ٦٣
أبو العالية: ١٩٧
عبادة: ٧٥، ٧٦
العباسيون: ٥٧، ١٥١، ١٨١
العباس بن عبدالمطلب: ٣٣٩
عبدالله بن الزبير: ٣١٤، ٣١٥
عبدالملك بن صالح الهاشمي: ١٦٥
عبدالله بن طاهر: ٢٦٧
عبـدالله بـن عبـاس: ٦٣، ٨٧، ١٥٧، ١٨٠، ١٩٧، ٢٣٣، ٣١٤، ٣١٥
عبدالله بن عبدالرحمن: ١١٣
عبدالله بن علي: ٤٨
عبدالله بن عمر بن سالم: ٢١٤
عبدالله بن مالك: ٣١٢، ٣١٣
عبدالله بن معاوية بن جعفر: ١٨٢، ١٨٣
عبدالله بن هلال: ٢٩٣
عبدالملك بن عمير: ١٦٩، ٣٤٥
عبدالملك بن مروان: ٢٥، ٦٠، ٧٠، ٧١، ١٠٩، ١٨٦، ١٨٧، ٣١٥، ٣٢٣
عبدالملك بن نواح (أبو الفوارس): ١٥١
عبيدالله بن إسحاق: ٢٦٨
ابن أبي العقب: ٢٧٩
عكاظ: ٥
كلية العلوم: ٣٠٠
علي بن الجهم: ٢٧٧
علي بن الحسين: ٤٩
علي بن أبي طالب: ٢٥، ٢٦، ٣٨، ٤٠، ١٣٩، ١٤٦، ١٥٧، ١٨٩
عمر بن الخطاب: ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٢، ٦٠، ٦١، ٧٨، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ١٤٧، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣
عمرو بن العاص: ٤١، ٤٢، ٤٣
عمر بن عبدالعزيز: ١١٢
عمرو بن مالك: ١٦٧، ١٦٨
عمرو بن العلاء: ١٠٦، ١٥٩
أبو عمرو بن العلاء: ٣١٤
بنو عمرو بن يربوع: ٣١٦
عمير بن سعد: ٢٥٠، ٢٥١

(غ)

غيـلان: ١٩٠

(ف)

فارس: ١١١، ١٠٤
القاضي الفاضل: ٢٠٥
أبو الفرج الأصفهاني: ٢٧٩

فرعون: ١٣، ٢٥٩
فضل: ٣١٢
فضل بن عياض: ٣٧٧

(ق)

القيظ: ٢٢٥
قتادة: ٣٢، ٣٣
ابن قتيبة: ١٤٧، ١٦٣
قحطبة: ١٦٥
أبو جعفر القرشي: ٨٤، ٨٥
قرة بن خالد السدوسي: ٣٢
قريش: ١٩٨
ابن القَرِّيَة: ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢٧٩
قطري بن الفجاءة: ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠

(ك)

ذو الكلاع: ٧١

(ل)

لبيد: ٦٣
لقيط: ٣٢٦

(م)

مالك بن أحمد بن سوار الطائي: ١٣٥
مالك بن دينار: ٧٢
المأمون: ٩٧، ١١٤، ١١٥، ١٥١، ١٨١، ١٨١، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ٢٢٦
المبرد: ٩٧
المتوكل: ٢٦٧، ٢٦٨
مجا
شع: ٩٩، ٣٣٠هـ
مجنون بني عامر: ٢٧٩
أبو المجيب: ٣٣٤
محارب بن [illegible]: ٣٧
محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر الشاشي أبو بكر: ٤٣
محمد بن أحمد أبو الندى الغندجاني: ١١١
محمد بن إسحاق: ٢٦٨
محمد بن بشير: ٢٣٠، ٢٣٢
محمد بن الحجاج بن يوسف: ٢٨
محمد بن عبادة: ١٨١
محمد بن عبدالله بن الحسن: ٢٠، ٢١
محمد بن عبدالله بن طاهر: ٢٢٤
محمد بن عبدالوهاب: ١٠٠
محمد بن محمد العماد الأصفهاني: ٢٠٥، ٢٠٦
محمد بن الوليد الطرطوشي: ٢٠٨
محمد بن يوسف الثقفي: ٢٨
محيي الدين بن عبدالظاهر: ٢٦٧
أبو الحسن المدائني: ٣١٥
مروان بن الحكم: ١٣٥، ٢٢٤
مسرور: ٢٢٦، ٢٢٧
أبو مسلم الخراساني: ٦١
أبو مسلم الخولاني: ٤٨
مسلمة بن عبدالملك: ١١٢
مصعب بن الزبير: ١٧٠، ١٨٦، ٣٢٩
مطرف: ٥٨
مطرف بن عبدالله الشخير: ٣٦٨، ٣٦٩
معاوية: ٢٩، ٤١، ٤٢، ٤٣و ٦٧، ٣١٦، ٣١٧
معاذ: ٤٠
معن بن زائدة: ١٥٢

المعيدي: ١٦٩
المغيرة بن شعبة: ٢٤٣
المغيرة بن عبدالله الثقفي: ٢٤٢
المنصور: ٢٠، ٢١
أبو موسى الأشعري: ٩٣، ٩٤
موسى عليه السلام: ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٦٩
مولى: ٣٤
أبو مياس الشاعر: ٨٥

(ن)

النبط: ٢٩، ٣٠، ٣٣
ابن النجار: ٤٣
أبو النجم العجلي: ٢٥٢
النضر بن شميل: ١١٤
النعمان الأكبر: ١٦٧
نوح: ٢٦٩

(هـ)

هارون: ٥٠
ابن هبيرة: ٢٤٧، ٢٤٨
هذيل: ٣٢٨
هشام بن عبدالملك: ٣٣٢
هشام بن عروة: ٦٣
هشيم: ١١٤
همدان: ٧١
هند بنت اسماء بن خارجة: ٢٨، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٩
هند بنت المهلب: ٢٨

(و)

الواثق: ٧٥
الوليد بن عبدالملك: ١٠٩، ١١٠، ٢١٤، ٢١٥، ٣٢٣
الوليد بن يزيد: ١٨٢، ١٨٣
وهب بن سليمان: ٢٦٨
وهب بن منبه: ٢١١، ٢١٢، ٣٠٩

(ي)

يحيى بن أكثم: ٩٧
يحيى بن المبارك اليزيدي: ٩٧، ٩٨هـ
يحيى بن هرثمة: ٣٢٤
أبو زكريا يزيد بن إياس بن القاسم: ٢٦٧
يزيد بن مزيد: ٣١١
يعقوب عليه السلام: ١٣
يوسف عليه السلام: ١٦
يوسف بن عمر: ٣٣٢
يونس بن ميسرة: ٦١

(٤) فهرس الأماكن

(أ)

الأردو: ٢٦٧
الآزاد: ٢٦٧
الإسكندرية: ٢٩٩
أصبهان: ٢٢٤

(ب)

البحرين: ٢٤٩
البصرة: ١٠٢، ١٠٦، ٣١٧
بغداد: ٣٥، ٤٣، ١٤٥هـ ٢٢٠، ٢٢٧
البلقان: ٢٧٦

(ح)

الحجاز: ٣٢٤، ٣٤٥
حمص: ٧٢، ٢٥٠

(خ)

خراسان: ١٦٥، ٣١٦
الخزيمية: ١٦٣

(د)

دمشق: ٣٧، ٤٠

(ر)

رستاق بست: ٢٦٧

(ش)

الشام: ٣٤٥

(ع)

العراق: ٢١٤، ٣٢٢، ٣٢٣
عنيزة: ٢٩٣
فارس: ٣٤٦
فرنسا: ٨٤

(ق)

القاهرة: ٨٤، ٢٩٨

(ك)

كشمر: ٢٧٧
الكوفة: ١٠٢، ١٠٤، ١٧٠، ٢٤٣

(م)

مصر: ١٣، ٤١، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣٣، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٩، ٢٩٧
المدينة: ٢٢٣
مكة: ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٣، ٢٧٥، ٢٩٨
الموصل: ٢٦٨

(ن)

نجد: ٢٠، ٢٩٣، ٣٢٨

(هـ)

الهند: ٣٠٨

(ي)

يستاف: ٢٦٧
اليمن: ٦٣

(٥) فهرس المراجع والمصادر

١ - **أخبار القضاة**

لوكيع - محمد بن خلف بن حيان
عالم الكتب - بيروت

٢ - **أخبار مجموعة في فتح الأندلس**

وذكر أمرائها:
تحقيق : إبراهيم الإيباري
دار الكتب المصرية، ١٩٩٠م

٣ - **أدب الدنيا والدين**

لأبي الحسن الماوردي
شرح وتعليق: محمد كريم راجح
دار إقرأ - بيروت

٤ - **الأدب الكبير**

لعبدالله بن المقفع
دار الجيل - بيروت

٥ - **آداب الملوك**

لأبي منصور عبدالملك الثعالبي
تحقيق الدكتور جليل العطية
دار المغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م

٦ - **الإشراف في منازل الأشراف**

لأبي بكر عبدالله بن محمد بن أبي الدنيا
تحقيق الدكتور: نجم عبدالرحمن خليفة
مكتبة الراشد، الرياض، الطبعة الأولى - ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م

٧ - الإعجاز والإيجاز
لأبي منصور عبدالملك الثعالبي
تخريج وحواشي: محمد ألتونجي
دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م

٨ - كتاب الأغاني
لأبي الفرج الأصفهاني
تحقيق: لجنة من الأدباء
دار الثقافة - بيروت
الطبعة السادسة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م

٩ - البخـــلاء
لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي
تحقيق: محمد إبراهيم سليم
مكتبة ابن سينا، مصر الجديدة - القاهرة

١٠- البصائر والذخائر
لأبي حيان التوحيدي
تحقيق: الدكتورة وداد القاضي
توزيع دار الجيل - بيروت، دار صادر
الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

١١- بهجة المجالس، وشحذ الذهن والهاجس
لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر القرطبي
تحقيق: محمد مرسي الخولي
دار الكتب العلمية - بيروت

١٢- البيـــان والتبيين
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق: عبدالسلام هارون
الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣- **تأديب الناشئين بأدب الدنيا والدين**
لأحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي
تحقيق: محمد إبراهيم سليم - مكتبة القرآن

١٤- **تاريخ بغداد ومعه: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد**
لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي
دار الكتب العلمية - بيروت

١٥- **تسهيل النظر، وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، وسياسة الملك**
لأبي حسن علي بن محمد الماوردي
تحقيق: محيى هلال السرحان والدكتور حسن الساعاتي
دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت، ١٩٨١م

١٦- **تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون**
لخليل أيبك الصفدي
تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم
المكتبة العصرية - صيدا - بيروت

١٧- **تنبيه الألباب على فضائل الأعراب**
لأبي بكر محمد بن عبدالملك الشنتريني
تحقيق: الدكتور معيض بن مساعد العوفي
الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

١٨- **ثمرات الأوراق**
لتقي الدين أبي بكر ابن حجة الحموي
تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم
الطبعة الأولى: مكتبة الخانجي: ١٩٧١م

١٩- **الحيـــوان**
لأبي عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق: عبدالسلام هارون
دار إحياء التراث - الطبعة الثالثة - ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م

٢٠- الذهب المسبوك في وعظ الملوك
لأبي عبدالله محمد بن نصر الحميدي
تحقيق: أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري
والدكتور عبدالحليم عويس
عالم الكتب - الطبعة الأولى - ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م

٢١- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار
لمحمد عمر الزمخشري
تحقيق الدكتور: سليم البعيمي

٢٢- الروض الزاهر، في سيرة الملك الظاهر
لمحيى الدين بن عبدالظاهر
تحقيق ونشر: الدكتور عبدالعزيز الخويطر
الطبعة الأولى - ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م

٢٣- سراج الملوك
لمحمد الوليد الطرطوشي
تحقيق: جعفر البياتي
نشر: رياض الريس للكتب والنشر

٢٤- سرح العيون، في شرح رسالة ابن زيدون
لجمال الدين بن نباتة المصري
تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم
المكتبة العصرية - صيدا، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

٢٥- صحيح البخاري
لمحمد إسماعيل البخاري
استانبول - تركيا - ١٩٧٩م

٢٦- عقلاء المجانين
لأبي القاسم الحسن محمد بن الحسن بن حبيب النيسابوري
دار البصائر - الطبعة الثالثة - ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م

٢٧- العقل وفضله
لأبي بكر عبدالله بن محمد بن أبي الدنيا
حققه وعلق عليه: لطفي محمد الصغير

٢٨- عيون الأخبار
لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدنيوري
دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٩- قصص الأنبياء
لأبي الفداء إسماعيل بن كثير
تحقيق: محمد أحمد عبدالعزيز
دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

٣٠- قضاة قرطبة
للخشني القردي
تحقيق: إبراهيم الأبياري
دار الكتاب المصري - ودار الكتاب اللبناني
(المكتبة الأندلسية) الطبعة الثانية - ١٤١٠هـ/١٩٨٩م

٣١- الكشكول
لبهاء الدين العاملي
تحقيق: الطاهر الزاوي
دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه)

٣٢- لطائف اللطف
أبو منصور عبدالملك الثعالبي
تحقيق الدكتور: عمر الأسعد
دار المسيرة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م

٣٣- مجالس ثعلب
لأبي العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب
تحقيق: عبد السلام هارون - دار المعارف، الطبعة الخامسة

٣٤- المحاسن والمساوىء
لإبراهيم بن محمد البيهقي
دار صادر - بيروت، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م

٣٥- محاضرات الأدباء، ومحاورات الشعراء والبلغاء
للراغب الأصفهاني
اختصار: إبراهيم زيدان
دار الآثار - بيروت

٣٦- المخـــــلاة
لبهاء الدين محمد بن حسين العاملي
تحقيق: محمد خليل الباشا
عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م

٣٧- المراح في المزاح
لبدر الدين أبو البركات محمد الغزي
(ضمن مجموعة الرسائل الكمالية «١٢»)
مكتبة المعارف - الطائف

٣٨- المستطرف في كل فن مستظرف
لشهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي
تحقيق الدكتور: مفيد محمد قميحة
دار الكتب العلمية - بيروت
الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

٣٩- معجم الأدباء
لأبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي
دار إحياء التراث العربي - بيروت

(٦) فهرس الأبيات الشعرية

(أ)

سحابة صادقة الأنواء ..... البطحاء ٣٤١

(ب)

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ..... الأجرب ٦٣

وقد تقلب الأيام حالات أهلها ..... الثعالب ٨٧

(ت)

فثنيت والمقدار يحرس أهله ..... شلت ٢٥٧

(د)

فهل لي إلى أجيال هند بذي اللوى ..... معاد ٦٤

إذا أنت اكرمت الكريم ملكته ..... تمردا ١٣٩

(ذ)

إف للدنيا إذا كانت كذا ..... وأذى ٧٢

(ر)

رب أنعمت في كثير من العمر ..... الأشرار ١٣٣

صحوت وأوقدت للجهل نارا ..... استعارا ٢٧٤

ترى اللؤم في العجلان يوما وليلة ..... الدهر ١٣٥

خلافة الله في هارون ثابتة ..... الصور ٣١٢

يعيب الرجال زمانا مضى ..... غير ٥٥

(س)

إن الجديدين في طول اختلافهما ..... الناس ٦٤

نعيب زماننا والعيب فينا ..... سوانا ٥٦
إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا ..... دفنوا ١٠٥

(هـ)

الخير لا يأتيك مجتمعا ..... مطره ٣٨٨
والعين تعلم في عيني محدثها ..... أعاديها ١٤٦
ومنزلة السفيه من الفقيه ..... السفيه ١٧٦
رب يوم بكيت منه فلما ..... عليه ٦٢
أهين لهم نفسي لأكرمها بهم ..... يهينها ٣٨٢

(ي)

أشاب الصغير وأفنى الكبير ..... العشي ٦٦



(ض)

وقد نسجت أيدي الجنوب مطارفا ..... الأرض ٣٣٥

(ع)

قد نادت الدنيا على نفسها ..... يسمع ٤٣

الألمعي الذي يظن بك الظن ..... سمعا ١٥٨

(ف)

العلم يرفع بيتا لا عماد له ..... الشرف ١٧٩

أقبلت من عند زياد كالخرف ..... مختلف ٢٥٢

(ك)

حبي حياة الله من كل ميت ..... هالك ٢٨

(ل)

أتانا وما داناه سحبان وائل ..... قائل ٣٣٢

قالوا سرى لسبيله المتوكل ..... تنزل ٢٧٧

أرى زمانا نوكاه أكثر أهله ..... عاقل ٨٤

إذا المجلس العبدي يوما تقابلوا ..... يقابله ١٣٥

قد قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبا ..... قيلا ٢٤٥

(م)

لا تصاحب من الأنام لئيما ..... لئيم ١٣٤

أأترك إن قلت دراهم خالد ..... للئيم ١٣٣

جمعت صنوف المال من كل وجهة ..... كريم ١٣٧

(ن)

أرى حللا تصان على أناس ..... تصان ٨٦

نبذة عن المؤلف :

- ولد عام ١٣٤٤هـ في مدينة عنيزة بالقصيم بالمملكة العربية السعودية.
- جزء من دراسته الابتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة.
- حصل على الليسانس من دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٣٧١هـ.
- حصل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ.
- عيِّن في العام نفسه أميناً عاماً لجامعة الملك سعود.
- عيِّن وكيلاً للجامعة عام ١٣٨١هـ حتى عام ١٣٩١هـ.
- درَّس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب.
- انتقل منها رئيساً لديوان المراقبة العامة لمدة عامين ثم وزيراً للصحة ثم وزيراً للمعارف.

كتب صدرت للمؤلف :

- نشر عام ١٣٩٠هـ كتاب الشيخ أحمد المنقور في التاريخ.
- ألَّف عام ١٣٩٠هـ كتاب «عثمان بن بشر».
- ألَّف عام ١٣٩٥هـ كتيب «في طريق البحث».
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيبرس » باللغة العربية.
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيبرس » باللغة الانجليزية.
- حقق عام ١٣٩٦هـ كتاب « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر » ونشره.
- حقق كتاب : « حسن المناقب السّرية، المتفرعة من السيرة الظاهرية » لشافع ابن علي، ونشره عام ١٣٩٦هـ.
- من حطب الليل، نشر في عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- ألّف عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م كتاب: «قراءة في ديوان محمد بن عبدالله بن عثيمين».
- ألَّف بين عامي ١٤٠٩ و ١٤١٤هـ كتاب « أي بني » في خمسة أجزاء.
- ألَّف عام ١٤١٤هـ كتاب «إطلالة على التراث» الأجزاء الخمسة وبين يديك الجزء السادس.

التوزيع

تطلب الأجزاء الستة من كتاب «إطلالة على التراث»، والأجزاء الخمسة من كتاب «أي بني»

من مؤسسة الجريسي للتوزيع

الرياض ١١٤٣١ ص. ب ١٤٠٥ - ت : ٤٠٢٢٥٦٤

جدة ت : ٦٨٢٦١٠٥ - الدمام ت : ٨٢٧١٨١١

القصيم ت : ٣٦٤٤٣٦٦ - خميس مشيط ت : ٢٢٢٠٧٥٨

ردمك : ٨ - ١١٨ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (مـــج ٦)

مطبعة سفير تلفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ * الرياض